

تَفْسِيرُ الْفَحْرِ الرَّازِي

الشَّرِحُ بِالتَّفْسِيرِ الْكَبِيرِ لِوَمَقَابِعِ الْفَيْبِ

لِدِيْمَامِ مُحَمَّدِ الرَّازِيِّ فَخْرِ الدِّينِ ابْنِ الْعَلَمِيِّ ضِيَاءِ الدِّينِ عَمَرِ
الشَّرِحُ بِخُطْبَتِ الرَّى نَفْعُ اللَّهِ بِالسَّامِينِ

٥٤٤ — ٦٠٤ هـ



حقوق الطبع محفوظة للناشر
الطبعة الأولى ١٤٠١ - ١٩٨١ م

الجُزْءُ الثَّامِنُ

دار الفك
الطباعة والنشر والتوزيع

قُلْ أَللّٰهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِنْ مَنْ تَشَاءُ
وَتُنْذِلُ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِّجُ الظَّلَلَ فِي النَّهَارِ
وَتُولِّجُ النَّهَارَ فِي الظَّلَلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيَّ وَتَرْزُقُ مَنْ
تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتزع من تشاء
وتنزل من تشاء بيديك الخير إنك على كل شيء قادر ، تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل
وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل التوحيد والنبوة ، وصحة دين الإسلام ، ثم قال لرسوله
(فان حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن) ثم ذكر من صفات المخالفين كفرهم بالله ،
وقتلهم الأنبياء والصالحين بغير حق ، وذكر شدة عنادهم وتمردهم في قوله (ألم تر إلى الذين
أوتوا نصيبا من الكتاب) ثم ذكر شدة غرورهم بقوله (لن تمسنا النار إلا أيام معدودات) ثم
ذكر وعيدهم بقوله (فكيف إذا جمعناهم ل يوم لا ريب فيه) أمر رسول الله ﷺ بدعاوة وتمجيد
يدل على مبادئ طرقه وطريق أتباعه ، لطريقة هؤلاء الكافرين المعاندين المعرضين ، فقال
معلما نبيه كيف يمجد ويعدم ويطلب (قل اللهم مالك الملك) وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلف النحويون في قوله (اللهم) فقال الخليل وسيبوه (اللهم)
معناه : يا الله ، والميم المشددة عوض من : يا ، وقال الفراء : كان أصلها ، يا الله أم بخير :
فلما كثر في الكلام حذفوا حرف النداء ، وحذفوا الهمزة من : أم ، فصار (اللهم) ونظيره قول
العرب : هل ، والأصل : هل ، فضم : أم ، إليها ، حجة الأولين على فساد قول الفراء
وجوه (الأول) لو كان الأمر على ما قاله الفراء لما صح أن يقال : اللهم افعل كذا إلا بحرف
العاطف ، لأن التقدير : يا الله أمنا واغفر لنا ، ولم نجد أحداً يذكر هذا الحرف العاطف

(والثاني) وهو حجة الزجاج أنه لو كان الأمر كما قال ، لجاز أن يتكلم به على أصله ، فيقال (الله ألم) كما يقال (ويم) ثم يتكلم به على الأصل فيقال (ويل أمه) (الثالث) لو كان الأمر على ما قاله الفراء لكان حرف النداء مذوفا ، فكان يجوز أن يقال : يا اللهم ، فلما لم يكن هذا جائزأ علمنا فساد قول الفراء بل نقول : كان يجب أن يكون حرف النداء لازما ، كما يقال : يا الله ألم) معناه : يا الله أقصد ، فلو قال : واغفر لكان المعطوف مغايراً للمعطوف عليه فحينئذ يصير السؤال سؤالين (أحددهما) قوله (أمنا) (والثاني) قوله (واغفر لنا) أما إذا حذفنا العطف صار قوله : اغفر لنا تفسيراً لقوله : أمنا . فكان المطلوب في الحالين شيئاً واحداً فكان ذلك أكد ، ونظائره كثيرة في القرآن ، وأما الثاني فضعيف أيضاً ، لأن أصله عندنا أن يقال ؛ يا الله أمنا . ومن الذي ينكر جواز التكلم بذلك ، وأيضاً فلأن كثيراً من الألفاظ لا يجوز فيها إقامة الفرع مقام الأصل ، ألا ترى أن مذهب الخليل وسيبويه أن قوله : ما أكرمه ، معناه أي شيء أكرمه ثم إنه قط لا يستعمل هذا الكلام الذي زعموا أنه الأصل في معرض التعجب فكذا ههنا ، وأما الثالث فمن الذي سلم لكم أنه لا يجوز أن يقال ، يا لله وأنشد الفراء :

سبحت أو صليت يا للهـما

وأما عليك أن تقسو لي كلـما

وقول البصريين: إن هذا الشعر غير معروف، فحاصله تكذيب النقل ، ولو فتحنا هذا الباب لم يبق شيء من اللغة وال نحو سليما عن الطعن ، وأما قوله : كان يلزم أن يكون ذكر حرف النداء لازما فجوابه أنه قد يحذف حرف النداء كقوله (يوسف أيها الصديق أفتـنا) فلا يبعد أن يختص هذا الأسم بالزمام هذا الحذف ، ثم أحتج الفراء على فساد قول البصريين من وجوه (الأول) أنا لو جعلنا الميم قائماً مقام حرف النداء لكنا قد أخرنا النداء عن ذكر المنادي ، وهذا غير جائز البة ، فإنه لا يقال البة (الله يا) وعلى قولكم يكون الأمر كذلك (الثاني) لو كان هذا الحرف قائماً مقام النداء لجاز مثله في سائر الأسماء ، حتى يقال : زيدم . وبكرم ، كما يجوز أن يقال : يا زيد ويا بكر (الثالث) لو كان الميم بدلاً عن حرف النداء لما اجتمعا ، لكنهما اجتمعا في الشعر الذي رويناـه (الرابع) لم نجد العرب يزيدون هذه الميم في الأسماء التامة لـإفادـة معنى بعض الحروف المبـانـية لـلـكلـمة الداخـلة عـلـيـها ، فـكان المصـير إلـيـه في هـذـه الـلـفـظـة الواحـدة حـكـما على خـلـاف الإـسـقـراءـ العامـ فيـ الـلـغـةـ وـأـنـهـ غـيرـ جـائزـ ، فـهـذـا جـملـةـ الـكـلامـ فيـ هـذـا الـمـوضـعـ .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (مالك الملك) في نصبه وجهـانـ (الأول) وهو قول سيـبوـيهـ أنه منصوب على النداء ، وكذلك قوله (قل اللهم فاطر السموات والأرض) ولا يجوز أن يكون

نعتا لقوله (اللهم) لأن قولنا (اللهم) مجموع الاسم والحرف ، وهذا المجموع لا يمكن وصفه (والثاني) وهو قول المبرد والزجاج أن (مالك) وصف للمنادى المفرد ، لأن هذا الأسم ومعه الميم بمنزلته ومعه (يا) ولا يمتنع الصفة مع الميم ، كما لا يمتنع مع الياء .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ روي أن النبي ﷺ حين افتتح مكة وعد أمته ملك فارس والروم ، فقال المنافقون واليهود : هيئات هيئات من أين لمحمد ملك فارس والروم ، وهم أعز وأمنع من ذلك ، وروي أنه عليه الصلاة والسلام لما خط الخندق عام الأحزاب ، وقطع لكل عشرة أربعين ذراعا ، وأخذوا يحفرون خرج من بطن الخندق صخرة كالتل العظيم لم تعمل فيها المعاول ، فوجهاوا سليمان إلى النبي ﷺ فخبره ، فأخذ المعلول من سليمان فلما ضربها ضربة صدعاها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها كأنه مصباح في جوف ليل مظلم ، فكبر وكبر المسلمين ، وقال عليه الصلاة والسلام « أضاءت لي منها قصور الحمر من أرض الروم » ثم ضرب الثالثة فقال الثانية ، فقال « أضاءت لي منها قصور الحمر من أرض الروم » ثم ضرب الثالثة فقال « أضاءت لي منها قصور صنعاء وأخبرني جبريل عليه السلام أن أمتي ظاهرة على كلها فأبشروا » فقال المنافقون : ألا تعجبون من نبيكم يعدكم الباطل وينبئكم أنه يبصر من يشرب قصور الحيرة ومداين كسرى ، وأنها تفتح لكم وأنتم تحفرون الخندق من الخوف لا تستطيعون أن تخرجوا فنزلت هذه الآية والله أعلم ، وقال الحسن إن الله تعالى أمر نبيه إن يسأله أن يعطيه ملك فارس والروم ويرد ذل العرب عليهما ، وأمره بذلك دليل على أنه يستجيب له هذا الدعاء ، وهكذا منازل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا أموروا بدعاوة استجيب دعاءهم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ (الملك) هو القدرة ، والملك هو القادر ، فقوله (مالك الملك) معناه القادر على القدرة ، والمعنى إن قدرة الخلق على كل ما يقدرون عليه ليست إلا بإقدار الله تعالى فهو الذي يقدر كل قادر على مقدوره ، ويملك كل مالك مملوكيه ، قال صاحب الكشاف (مالك الملك) أي يملك جنس الملك فيتصرف فيه تصرف الملائكة فيما يملكون ، واعلم أنه تعالى لما بين كونه (مالك الملك) على الإطلاق ، فصل بعد ذلك وذكر أنواعا خمسة .

﴿ النوع الأول ﴾ قوله تعالى (تؤتي الملك من تشاء وتتنزع الملك من تشاء) وذكروا فيه وجوها (الأول) المراد منه : ملك النبوة والرسالة كما قال تعالى (فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملوكا عظيماء) والنبوة أعظم مرتبة الملك لأن العلماء هم أمر عظيم على بواطن الخلق والجبارية لهم أمر على ظواهر الخلق والأنبياء أمرهم نافذ في البواطن والظواهر ، فاما على البواطن فلأنه يجب على كل أحد أن يقبل دينهم وشرعيتهم ، وأن يعتقد أنه هو الحق ، وأما

على الطواهر فلأنهم لو ترددوا واستكروا لاستوجبوا القتل ، وما يؤكد هذا التأويل أن بعضهم كان يستبعد أن يجعل الله تعالى بشرًا رسولاً فحكي الله عنهم قوله (أبعث الله بشراً رسولاً) وقال الله تعالى (ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً) وقوم آخر ون جوزوا من الله تعالى أن يرسل رسولاً من البشر ، إلا أنهم كانوا يقولون : إن محمدًا فقير يتيم ، فكيف يليق به هذا المنصب العظيم على ما حكى الله عنهم أنهم قالوا (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القربيتين عظيم) وأما اليهود فكانوا يقولون النبوة كانت في آبائنا وأسلافنا ، وأما قريش فهم ما كانوا أهل النبوة والكتاب فكيف يليق النبوة بمحمد ﷺ ؟ وأما المنافقون فكانوا يحسدونه على النبوة ، على ما حكى الله ذلك عنهم في قوله (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) .

وأيضاً فقد ذكرنا في تفسير قوله تعالى (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهداد) أن اليهود تكبر واعلى النبي ﷺ بکثرة عددهم وسلاحهم وشدتهم ، ثم إنه تعالى رد على جميع هؤلاء الطوائف بأن بين أنه سبحانه هو مالك الملك فيؤتى ملكه من يشاء ، فقال : « تؤتي الملك من تشاء وتتنزع الملك من تشاء » .

فإن قيل : فإذا حملتم قوله (تؤتي الملك من تشاء) على ايتاء ملك النبوة ، وجب أن تحملوا قوله (وتتنزع الملك من تشاء) على أنه قد يعزل عن النبوة من جعلهنبياً، ومعلوم أن ذلك لا يجوز .

قلنا : الجواب من وجهين (الأول) أن الله تعالى إذا جعل النبوة في نسل رجل ، فإذا أخرجها الله من نسله، وشرف بها إنساناً آخر من غير ذلك النسل ، صح أن يقال إنه تعالى نزعها منهم ، واليهود كانوا معتقدين أن النبوة لا بد وأن تكون في بنى إسرائيل ، فلما شرف الله تعالى محمداً ﷺ بها ، صح أن يقال إنه ينزع ملك النبوة من بنى إسرائيل إلى العرب . « والجواب الثاني » أن يكون المراد من قوله (وتتنزع الملك من تشاء) أي تحررهم ولا تعطيهم هذا الملك لا على معنى أنه يسلبه ذلك بعد أن أعطاهم ، ونظيره قوله تعالى (الله ولِيَ الَّذِينَ آمَنُوا بِخُرْجَهُمْ مِّنَ الظُّلْمَاتِ إِلَى النُّورِ) مع أن هذا الكلام يتناول من لم يكن في ظلمة الكفر فقط ، وقال الله تعالى خبراً عن الكفار أنهم قالوا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام (أولئك الذين في ملتنا) وأولئك الأنبياء قالوا (وما يكون لنا أن نعوذ إلا أن يشاء الله) مع أنهم ما كانوا فيها قط فهذا جملة الكلام في تقرير قول من فسر قوله تعالى (تؤتي الملك من تشاء) بملك النبوة.

« القول الثاني » أن يكون المراد من الملك ، ما يسمى ملكاً في العرف ، وهو عبارة عن مجموع أشياء (أحددها) تكثير المال والجاه ، أما تكثير المال فيدخل فيه ملك الصامت والناطق

والدور والضياع ، والحرث ، والنسل ، وأما تكثير الجاه فهو أن يكون مهيباً عند الناس ، مقبول القول ، مطاعاً في الخلق (والثاني) أن يكون بحيث يجب على غيره أن يكون في طاعته ، وتحت أمره ونفيه (والثالث) أن يكون بحيث لو نازعه في ملكه أحد ، قدر على قهر ذلك المزارع ، وعلى غلبه ، ومعلوم أن كل ذلك لا يحصل إلا من الله تعالى ، أما تكثير المال فقد نرى جماعاً في غاية الكياسة لا يحصل لهم مع الكد الشديد ، والعناء العظيم قليل من المال ، ونرى الأبله الغافل قد يحصل له من الأموال ما لا يعلم كميته ، وأما الجاه فالأمر أظهر ، فانا رأينا كثيراً من الملوك بذلوا الأموال العظيمة لأجل الجاه ، وكانوا كل يوم أكثر حقاره ومهانة في أعين الرعية ، وقد يكون على العكس من ذلك وهو أن يكون الإنسان معاذراً في العقائد ، مهيباً في القلوب ، ينقاد له الصغير والكبير ، ويتواضع له القاصي والداني ، وأما القسم الثاني وهو كونه واجب الطاعة ، فمعلوم أن هذا تشريف يشرف الله تعالى به بعض عباده ، وأما القسم الثالث ، وهو حصول النصرة والظفر فمعلوم أن ذلك مما لا يحصل إلا من الله تعالى ، فكم شاهدنا من فتنة قليلة غلت فتنة كثيرة بأذن الله ، وعند هذا يظهر بالبرهان العقلي صحة ما ذكره الله تعالى من قوله (تؤتي الملك من تشاء) .

واعلم أن للمعتزلة هنابحثا قال الكعبي قوله (تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك من تشاء) ليس على سبيل المختارية ، ولكن بالاستحقاق فيؤتيه من يقوم به ، ولا ينزعه إلا من فسق عن أمر ربه ويدل عليه قوله (لا ينال عهدي الظالمين) وقال في حق العبد الصالح (إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطه في العلم والجسم) فجعله سبباً للملك ، وقال الجبائي : هذا الحكم مختص بملوك العدل ، فأما ملوك الظلم فلا يجوز أن يكون ملوكهم بaitاء الله ، وكيف يصح أن يكون ذلك بaitاء الله ، وقد أزمعهم أن لا يتملكونه ، ومنعهم من ذلك فصح بما ذكرنا أن الملوك العادلين هم المختصون بأن الله تعالى آتاهم ذلك الملك ، فأما الظالمون فلا ، قالوا : ونظير هذا ما قلناه في الرزق أنه لا يدخل تحته الحرام الذي زجره الله عن الأنفع به ، وأمره بأن يرده على مالكه فكذا هنا ، قالوا : وأما النزع فيخالف ذلك لأنه كما ينزع الملك من الملوك العادلين لمصلحة تقتضي ذلك فقد ينزع الملك عن الملوك الظالمين ونزع الملك يكون بوجوه : منها بالموت ، وإزالة العقل ، وإزالة القوى ، والقدر والحواس ، ومنها بورود الهلاك والتلف عن الأموال ، ومنها أن يأمر الله تعالى المحق بأن يسلب الملك الذي في يد المتغلب المبطل ويعطيه القوة والنصرة ، فإذا حاربه المحق وقهقه وسلب ملكه جاز أن يضاف هذا السلب والنزع إليه تعالى ، لأنه وقع عن أمره ، وعلى هذا الوجه نزع الله تعالى ملك فارس على يد الرسول ، هذا جملة كلام المعتزلة في هذا الباب .

واعلم أن هذا الموضع مقام بحث مهم وذلك لأن حصول الملك الظالم ، إما أن يقال :

إنه وقع لا عن فاعل وإنما حصل بفعل ذلك المغلب ، أو إنما حصل بالأسباب الربانية ، والأول نفي الصانع والثاني باطل لأن كُل أحد يريد تحصيل الملك ، والدولة لنفسه ، ولا يتيسر له البتة فلم يبق إلا أن يقال بأن ملك الظالمين إنما حصل بaitate الله تعالى ، وهذا الكلام ظاهر وبما يؤكّد ذلك أن الرجل قد يكون بحيث تهابه النفوس ، وتميل إليه القلوب ، ويكون النصر قرينا له والظفر جليساً معه فأيّما توجه حصل مقصوده وقد يكون على الضد من ذلك ، ومن تأمل في كيفية أحوال الملوك اضطر إلى العلم بأن ذلك ليس إلا بتقدير الله تعالى ، ولذلك قال حكيم الشعرا :

لو كان بالحيل الغنى لوجدتني
لكن من رزق الحجا حرم الغنى
ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس الليب وطيب عيش الأحمق

﴿ والقول الثاني ﴾ أن قوله (تؤتى الملك من تشاء) محمول على جميع أنواع الملك فيدخل فيه ملك النبوة ، وملك العلم ، وملك العقل ، والصحة والأخلاق الحسنة ، وملك النفاذ والقدرة وملك المحبة ، وملك الأموال ، وذلك لأن اللفظ عام فالتحصيص من غير دليل لا يجوز .

وأما قوله تعالى (وتعز من تشاء وتذل من تشاء) فاعلم أن العزة قد تكون في الدين ، وقد تكون في الدنيا ، أما في الدين فأشرف أنواع العزة الإيمان قال الله تعالى (والله العزة ولرسوله وللمؤمنين) إذا ثبت هذا فنقول : لما كان أعز الأشياء الموجبة للعزّة هو الإيمان ، وأذل الأشياء الموجبة للمذلة هو الكفر ، فلو كان حصول الإيمان والكفر مجرد مشيئة العبد ، لكان إعزاز العبد نفسه بالإيمان وإذلاله نفسه بالكفر أعظم من إعزاز الله عبده بكل ما أعزه به ، ومن إذلال الله عبده بكل ما أذله به ولو كان الأمر كذلك لكان حظ العبد من هذا الوصف أتم وأكمل من حظ الله تعالى منه ، ومعلوم أن ذلك باطل قطعاً ، فعلمـنا أن الإعزاز بالإيمان والحق ليس إلا من الله ، والإذلال بالكفر والباطل ليس إلا من الله ، وهذا وجـه قوي في المسـألة ، قال القاضي : الإعزاز المضاف إليه تعالى قد يكون في الدين ، وقد يكون في الدنيا أما الذي في الدين فهو أن الشواب لا بد وأن يكون مشتملا على التعظيم والمدح والكرامة في الدنيا والآخرة ، وأيضاً فإنه تعالى يمدهم بمزيد الألطاف ويعليهم على الأعداء بحسب المصلحة ، وأما ما يتعلق بالدنيا فباعطاء الأموال الكثيرة من الناطق والصامت وتكثير الحرف وتکثير النتاج في الدواب ، وإلقـاء الهـيبة في قلوبـ الخلق .

واعلم أن كلامنا يأبى ذلك لأن كل ما يفعله الله تعالى من التعظيم في باب الثواب فهو حق واجب على الله تعالى ولو لم يفعله لانعزل عن الإلهية والخرج عن كونه إلهًا للخلق فهو تعالى باعطاء هذه التعظيمات يحفظ إلهية نفسه عن الزوال فأما العبد ، فلما خص نفسه بالإيمان الذي يوجب هذه التعظيمات فهو الذي أعز نفسه فكان إعزازه لنفسه أعظم من إعزاز الله تعالى إياه ، فعلمنا أن هذا الكلام المذكور لازم على القوم .

أما قوله (وتدل من تشاء) فقال الجبائي في تفسيره : إنه تعالى إنما يذل أعداءه في الدنيا والآخرة ولا يذل أحداً من أوليائه وإن أفقرهم وأمرضهم وأحوجهم إلى غيرهم ، لأنه تعالى إنما يفعل هذه الأشياء ليعزهم في الآخرة ، إما بالثواب ، وإما بالعوض فصار ذلك كالقصد والمحاجمة فأنهما وإن كانا يؤلمان في الحال إلا أنهما لما كانا يستعقبان نفعاً عظيماً لا جرم لا يقال فيهما: إنها تعذيب، قال وإذا وصف الفقر بأنه ذلة فعلى وجه المجاز كما سمي الله تعالى لين المؤمنين ذلا بقوله (أدلة على المؤمنين) .

إذا عرفت هذا فتقول : إذلال الله تعالى عبده المبطل إنما يكون بوجوه منها بالذم واللعنة ومنها بأن يخذلهم باللحجة والنصرة ، ومنها بأن يجعلهم خولاً لأهل دينه ، ويجعل مالهم غنيمة لهم ومنها بالعقوبة لهم في الآخرة هذا جملة كلام المعتزلة ، ومذهبنا أنه تعالى يعز البعض بالإيمان والمعرفة ، ويذل البعض بالكفر والضلال ، وأعظم أنواع الإعزاز ، والإذلال هو هذا والذي يدل عليه وجوه (الأول) وهو أن عز الإسلام وذل الكفر لا بد فيه من فاعل وذلك الفاعل إما أن يكون هو العبد أو الله تعالى والأول باطل ، لأن أحداً لا يختار الكفر لنفسه ، بل إنما يريد الإيمان والمعرفة والهدایة فلما أراد العبد الإيمان ولم يحصل له بل حصل له الجهل ، علمنا أن حصوله من الله تعالى لا من العبد (الثاني) وهو أن الجهل الذي يحصل للعبد إنما أن يكون بواسطة شبهة وإنما أن يقال : يفعله العبد ابتداء ، والأول باطل إذ لو كان كل جهل إنما يحصل بجهل آخر يسبقه ويقدمه لزم التسلسل وهو محال ، فبقي أن يقال : تلك الجهات تنتهي إلى جهل يفعله العبد ابتداء من غير سبق موجب البتة لكننا نجد من أنفسنا أن العاقل لا يرضي لنفسه أن يصير على الجهل ابتداء من غير موجب فعلمنا أن ذلك بادلال الله عبده وبخذلانه إياه (الثالث) ما بينا أن الفعل لا بد فيه من الداعي والمرجح ، وذلك المرجح يكون من الله تعالى فان كان في طرف الخير كان إعزازاً ، وإن كان في طرف الجهل والشر والضلال كان إذلاً ، فثبت أن المعز والمذل هو الله تعالى .

أما قوله تعالى (بيدك الخير) .

فاعلم أن المراد من اليد هو القدرة ، والمعنى بقدرتك الخير والألف واللام في الخير

يوجبان العموم ، فالمعني بقدرتك تحصل كل البركات والخيرات ، وأيضاً قوله (بيدك الخير) يفيد الحصر كأنه قال بيدك الخير لا بيد غيرك ، كما أن قوله تعالى (لكم دينكم ولهم دين) أي لكم دينكم أي لا لغيركم وذلك الحصر ينافي حصول الخير بيد غيره ، فثبتت دلالة هذه الآية من هذين الوجهين على أن جميع الخيرات منه ، ويتكونه وتخليقه وإيجاده وإبداعه ، إذا عرفت هذا فنقول : أفضل الخيرات هو الإيمان بالله تعالى ومعرفته ، فوجب أن يكون الخير من تخليق الله تعالى لا من تخليق العبد ، وهذا استدلال ظاهر ومن الأصحاب من زاد في هذا التقرير فقال : كل فاعلين فعل أحدهما أشرف وأفضل من فعل الآخر كان ذلك الفاعل أشرف وأكمل من الآخر ، ولا شك أن الإيمان أفضل من الخير ، ومن كل ما سوى الإيمان فلو كان الإيمان بخلق العبد لا بخلق الله لوجب كون العبد زائداً في الخيرية على الله تعالى ، وفي الفضيلة والكمال ، وذلك كفر قبيح فدللت هذه الآية من هذين الوجهين على أن الإيمان بخلق الله تعالى .

فإن قيل : فهذه الآية حجة عليكم من وجه آخر لأنه تعالى لما قال (بيدك الخير) كان معناه أنه ليس بيدك إلا الخير ، وهذا يقتضي أن لا يكون الكفر والمعصية واقعين بتخليق الله .

(والجواب) أن قوله (بيدك الخير) يفيد أن بيده الخير لا بيد غيره ، وهذا ينافي أن يكون بيده غيره ولكن لا ينافي أن يكون بيده الخير وبيده ما سوى الخير إلا أنه خص الخير بالذكر لأنه الأمر المتنفع به فوق التنصيص عليه لهذا المعنى قال القاضي : كل خير حصل من جهة العباد فلولا أنه تعالى أقدرهم عليه وهداهم إليه لما تمكنا منه ، فلهذا السبب كان مضافاً إلى الله تعالى إلا أن هذا ضعيف لأن على هذا التقدير يصير بعض الخير مضافاً إلى الله تعالى ، ويصير أشرف الخيرات مضافاً إلى العبد ، وذلك على خلاف هذا النص .

أما قوله (إنك على كل شيء قادر) فهذا كالتأكيد لما تقدم من كونه مالكاً لإيتاء الملك وزرعه والإعزاز والإذلال .

أما قوله تعالى (تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل) فيه وجهان (الأول) أنه يجعل الليل قصيراً و يجعل ذلك القدر الزائد داخلاً في النهار وتارة على العكس من ذلك وإنما فعل سبحانه وتعالى ذلك لأنه علق قوام العالم ونظامه بذلك (والثاني) أن المراد هو أنه تعالى يأتي بالليل عقيب النهار ، فيليس الدنيا ظلمة بعد أن كان فيها ضوء النهار ، ثم يأتي بالنهار عقيب الليل فيليس الدنيا ضوءه فكان المراد من إيلاج أحدهما في الآخر إيجاد كل واحد منها الآخر ، والأول أقرب إلى اللفظ ، لأنه إذا كان النهار طويلاً فجعل ما نقص منه زيادة في الليل كان ما نقص منه داخلاً في الليل .

لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ

وأما قوله (ونخرج الحي من الميت ونخرج الميت من الحي) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ نافع وحمزة والكسائي (الميت) بالتشديد ، والباقيون بالتحفيف ، وهم لغتان بمعنى واحد ، قال المبرد : أجمع البصريون على أنها سواء وأنشدوا :

إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيْتُ الْأَحْيَاءِ

وهو مثل قوله : هين وهين ، ولين ولين ، وقد ذهب ذاهبون إلى أن الميت من قدمات ، والميت من لم يمت .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر المفسرون فيه وجوها (أحدها) بخرج المؤمن من الكافر كابراهيم من آزر ، والكافر من المؤمن مثل كنعان من نوح عليه السلام (والثاني) بخرج الطيب من الخبيث وبالعكس (والثالث) بخرج الحيوان من النطفة ، والطير من البيضة وبالعكس (والرابع) بخرج السنبلة من الحبة وبالعكس ، والنخلة من النواة وبالعكس ، قال القفال رحمه الله : والكلمة محتملة للكل أما الكفر والإيمان فقال تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه) يريد كان كافراً فهدى ناه فجعل الموت كفراً والحياة إيماناً ، وسمي إخراج النبات من الأرض إحياء ، وجعل قبل ذلك ميتة فقال (يحيى الأرض بعد موتها) وقال (فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها) وقال (كيف تكفرون بالله وكتنتم أمواتاً فأحييتم ثم يحييكم ثم يحييكم) .

أما قوله (وترزق من تشاء بغير حساب) ففيه وجوه (الأول) أنه يعطى من يشاء ما يشاء لا يحاسبه على ذلك أحد ، إذ ليس فوقه ملك يحاسبه بل هو الملك يعطي من يشاء بغير حساب (والثاني) ترزق من تشاء غير محدود ولا محدود ، بل تبسطه له وتوسعه عليه كما يقال : فلان ينفق بغير حساب إذا وصف عطاوه بالكثرة ، ونظيره قوله في تكثير مال الإنسان : عنده مال لا يحصى (والثالث) ترزق من تشاء بغير حساب ، يعني على سبيل التفضل من غير استحقاق لأن من أعطى على قدر الاستحقاق فقد أعطى بحساب ، وقال بعض من ذهب إلى هذا المعنى : إنك لا ترزق عبادك على مقدار أعمالهم والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ لا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ

مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَسْقُوا مِنْهُمْ تُقْهَّكًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾

الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاهة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير .

في كيفية النظم وجهان (الأول) أنه تعالى لما ذكر ما يجب أن يكون المؤمن عليه في تعظيم الله تعالى ، ثم ذكر بعده ما يجب أن يكون المؤمن عليه في المعاملة مع الناس ، لأن كمال الأمر ليس إلا في شيئين : التعظيم لأمر الله تعالى ، والشفقة على خلق الله قال (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) (الثاني) لما بين أنه تعالى مالك الدنيا والآخرة بين أنه ينبغي أن تكون الرغبة فيما عنده ، وعند أوليائه دون أعدائه .

وفي الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ في سبب النزول وجوه (الأول) جاء قوم من اليهود إلى قوم المسلمين ليفتنوهم عن دينهم فقال رفاعة بن المنذر ، وعبد الرحمن بن جبير ، وسعيد بن خيثمة لأولئك النفر من المسلمين : اجتبوا هؤلاء اليهود ، واحذرزوا أن يفتتنوكم عن دينكم فنزلت هذه الآية (والثاني) قال مقاتل : نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وغيره ، وكانوا يتولون اليهود والمشركين ويخبرونهم بالأخبار ويرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية (الرابع) أنها نزلت في عبادة بن الصامت وكان له حلفاء من اليهود ، ففي يوم الأحزاب قال يا نبي الله إن معي خمسة من اليهود وقد رأيت أن يخرجوا معي فنزلت هذه الآية .

فإن قيل : إنه تعالى قال (ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء) وهذه صفة الكافر .

قلنا : معنى الآية فليس من ولاية الله في شيء ، وهذا لا يوجب الكفر في تحريم موالة الكافرين .

واعلم أنه تعالى أنزل آيات كثيرة في هذا المعنى منها قوله تعالى (لا تتخذوا بطانة من دونكم) قوله (لا تجده قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله) قوله (لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوبي وعدوكم أولياء) وقال (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) .

واعلم أن كون المؤمن مواليًّا للكافر يحمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون راضياً بكفره ويتولاه لأجله ، وهذا من نوع منه لأن كل من فعل ذلك كان مصوبًا له في ذلك الدين ، وتصويب

الكفر كفر والرضا بالكفر كفر ، فيستحيل أن يبقى مؤمناً مع كونه بهذه الصفة .

فإن قيل : أليس أنه تعالى قال (ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء) وهذا لا يوجب الكفر فلا يكون داخلا تحت هذه الآية ، لأنه تعالى قال (يا أيها الذين آمنوا) فلا بد وأن يكون خطاباً في شيء يبقى المؤمن معه مؤمناً (وثانيها) المعاشرة الجميلة في الدنيا بحسب الظاهر ، وذلك غير منع منه .

﴿ والقسم الثالث ﴾ وهو كالمتوسط بين القسمين الأولين هو أن موالة الكفار بمعنى الركون إليهم والمعونة ، والمظاهرة ، والنصرة إما بسبب القرابة ، أو بسبب المحبة مع اعتقاد أن دينه باطل فهذا لا يوجب الكفر إلا أنه منهى عنه ، لأن الموالاة بهذا المعنى قد تجره إلى إحسان طريقته والرضا بدينه ، وذلك يخرجه عن الإسلام فلا جرم هدد الله تعالى فيه فقال (ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء) .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يكون المراد من الآية النهي عن اتخاذ الكافرين أولياء بمعنى أن يتولوهم دون المؤمنين ، فاما إذا تولوهم وتولوا المؤمنين معهم فذلك ليس منهى عنه ، وأيضاً قوله (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء) فيه زيادة مزية ، لأن الرجل قد يوالي غيره ولا يتخذه موالياً فالنهي عن اتخاذ مواليا لا يوجب النهي عن أصل مولاته .

قلنا : هذان الاحتلان وإن قاما في الآية إلا أن سائر الآيات الدالة على أنه لا تجوز مواлатهم دلت على سقوط هذين الاحتللين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنما كسرت الذال من يتخذ لأنها مجزومة للنهي ، وحركت لاجتماع الساكدين قال الزجاج : ولو رفع على الخبر لجاز ، ويكون المعنى على الرفع أن من كان مؤمناً فلا ينبغي أن يتخذ الكافر ولیاً .

واعلم أن معنى النهي ومعنى الخبر يقتربان لأنه متى كانت صفة المؤمن أن لا يوالي الكافر كان لا محالة منهاً عن موالاة الكافر ، ومتى كان منهاً عن ذلك ، كان لا محالة من شأنه وطريقته أن لا يفعل ذلك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (من دون المؤمنين) أي من غير المؤمنين كقوله (وادعوا شهداءكم من دون الله) أي من غير الله ، وذلك لأن لفظ دون مختص بالمكان ، تقول : زيد جلس دون عمرو أي في مكان أسفل منه ، ثم إن من كان مبياناً لغيره في المكان فهو مغاير له

فجعل لفظ دون مستعماً في معنى غير ، ثم قال تعالى (ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء) وفيه حذف ، والمعنى فليس من ولاية الله في شيء يقع عليه اسم الولاية يعني أنه منسلخ من ولاية الله تعالى رأساً ، وهذا أمر معقول فإن موالاة الولي ، وموالاة عدوه ضدان قال الشاعر :

تود عدوي ثم تزعم أني صديقك ليس النوك عنك بعارب

ويحتمل أن يكون المعنى : فليس من دين الله في شيء وهذا أبلغ .

ثم قال تعالى (إِلَّا أَنْ تَقُوا مِنْهُمْ تَقَاءٌ) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ الكسائي : تقأة بالإِمَالَة ، وقرأ نافع وحمزة : بين التفحيم والإِمَالَة ، والباقيون بالتفحيم ، وقرأ يعقوب تقية وإنما جازت الإِمَالَة لتوذن أن الألف من الياء ، وتقأة وزنها فعلة نحو تؤدة وتخمة ، ومن فخم فالأجل الحرف المستعلي وهو القاف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الواهidi : تقىته تقأة ، وتقىي ، وتقية ، وتقوى ، فإذا قلت إنقيت كان مصدره الإنقياء ، وإنما قال تقووا ثم قال تقأة ولم يقل إنقاء اسم وضع المصدر ، كما يقال : جلس جلسة ، وركب ركبة ، وقال الله تعالى (فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً) وقال الشاعر :

وبعد عطائك المائة الرتابعا

فاجراه مجرى الإعطاء ، قال : ويجوز أن يجعل تقأة ههنا مثل رماة فيكون حالاً مؤكدة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الحسن أخذ مسيلمة الكذاب رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ فقال لأحدهما : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم نعم نعم ، فقال : افتشهد أني رسول الله ؟ قال : نعم ، وكان مسيلمة يزعم أنه رسولبني حنيفة ، و محمد رسول قريش ، فتركه ودعا الآخر فقال أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم ، قال : أفتشهد أني رسول الله ؟ فقال : إني أصم ثلاثة ، فقدمه وقتلته فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فقال : أما هذا المقتول فمضى على يقينه وصدقه فهنيئاً له ، وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه .

واعلم أن نظير هذه الآية قوله تعالى (إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقْلَبَهُ مَطْمَئِنٌ بِالإِيمَان) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اعلم أن للقيقة أحکاماً كثيرة ونحن نذكر بعضها .

﴿ الحكم الأول ﴾ أن التقىة إنما تكون إذا كان الرجل في قوم كفار ، ويخاف منهم على

نفسه وماليه فيدار بهم باللسان ، وذلك بأن لا يظهر العداوة باللسان ، بل يجوز أيضاً أن يظهر الكلام الموهم للمحبة والموالاة ، ولكن بشرط أن يضم خلافه ، وأن يعرض في كل ما يقول ، فإن التقى تأثيرها في الظاهر لا في أحوال القلوب .

﴿ الحكم الثاني للتقىة ﴾ هو أنه لو أفصح بالإعنان والحق حيث يجوز له التقىة كان ذلك أفضل ، ودليله ما ذكرناه في قصة مسلمة .

﴿ الحكم الثالث للتقىة ﴾ أنها إنما تجوز فيما يتعلق باظهار الموالاة والمعاداة ، وقد تجوز أيضاً فيما يتعلق باظهار الدين فأما ما يرجع ضرره إلى الغير كالقتل والزنا وغضب الأموال والشهادة بالزور وقذف المحسنات واطلاع الكفار على عورات المسلمين ، فذلك غير جائز .

البته .

﴿ الحكم الرابع ﴾ ظاهر الآية يدل أن التقىة إنما تحل مع الكفار الغالبين إلا أن مذهب الشافعي رضي الله عنه أن الحالة بين المسلمين إذا شاكلت الحالة بين المسلمين والمرجع حلت التقىة حماماً على النفس .

﴿ الحكم الخامس ﴾ التقىة جائزة لصون النفس ، وهل هي جائزة لصون المال يتحمل أن يحكم فيها بالجواز ، لقوله ﷺ « حرمة مال المسلم كحرمة دمه » ولقوله ﷺ « من قتل دون ماله فهو شهيد » ولأن الحاجة إلى المال شديدة والماء إذا بيع بالغبن سقط فرض الوضوء ، وجاز الاقتصار على التيمم دفعاً لذلك القدر من نقصان المال ، فكيف لا يجوز ههنا والله أعلم .

﴿ الحكم السادس ﴾ قال مجاهد : هذا الحكم كان ثابتاً في أول الإسلام لأجل ضعف المؤمنين فأما بعد قوّة دولة الإسلام فلا ، وروى عوف عن الحسن : أنه قال التقىة جائزة للمؤمنين إلى يوم القيمة ، وهذا القول أولى ، لأن دفع الضرر عن النفس واجب بقدر الإمكان .

ثم قال تعالى (ويحذركم الله نفسه) وفيه قوله (الأول) أن فيه مذوقاً ، والتقدير : ويحذركم الله عقاب نفسه ، وقال أبو مسلم المعنى (ويحذركم الله نفسه) أن تعصوه فتستحقوا عقابه والفائدة في ذكر النفس أنه لوقال : ويحذركم الله فهذا لا يفيد أن الذي أريد التحذير منه هو عقاب يصدر من الله أو من غيره ، فلما ذكر النفس زال هذا الاشتباه ، ومعلوم أن العقاب الصادر عنه يكون أعظم أنواع العقاب لكونه قادرًا على ما لا نهاية له ، وأنه لا قدرة لأحد على دفعه ومنعه مما أراد .

﴿ والقول الثاني ﴾ أن النفس هنا تعود إلى اتخاذ الأولياء من الكفار ، أي ينهاهم الله

**قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تَبْدُوهُ يَعْلَمُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣﴾**

عن نفس هذا الفعل .

ثم قال (وإلى الله المصير) والمعنى : إن الله يحدركم عقابه عند مصيركم إلى الله .

قوله تعالى « قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قادر ». .

اعلم أنه تعالى لما نهى المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء ظاهراً أو باطناً واستثنى عنه التقية في الظاهر أتبع ذلك بالوعيد على أن يصير الباطن موافقاً للظاهر في وقت التقية ، وذلك لأن من أقدم عند التقية على إظهار المولا ، فقد يصير إقدامه على ذلك الفعل بحسب الظاهر سبيلاً لحصول تلك المولا في الباطن ، فلا جرم بين تعالى أنه عالم بالبوطن كعلمه بالظواهر ، فيعلم العبد أنه لا بد أن يجازيه على كل ما عزم عليه في قلبه ، وفي الآية سؤالات :

« **السؤال الأول** » هذه الآية جملة شرطية فقوله (إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه) شرط وقوله (يعلمه الله) جزاء ولا شك أن الجزاء مترب على الشرط متاخر عنه ، فهذا يقتضي حدوث علم الله تعالى .

(والجواب) أن تعلق علم الله تعالى بأنه حصل الآن لا يحصل إلا عند حصوله الآن ، ثم أن هذا التبدل والتتجدد إنما وقع في النسب والإضافات والتعليقات لا في حقيقة العلم ، وهذه المسألة لها غور عظيم وهي مذكورة في علم الكلام .

« **السؤال الثاني** » محل البواعث والضيائير هو القلب ، فلسم قال (إن تخفوا ما في صدوركم) ولم يقل إن تخفوا ما في قلوبكم؟ .

(الجواب) لأن القلب في الصدر ، فجاز إقامة الصدر مقام القلب كما قال (يوسوس في صدور الناس) وقال (فانها لا تعمي الأ بصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور) .

« **السؤال الثالث** » إن كانت هذه الآية وعيداً على كل ما يخطر بالبال فهو تكليف ما لا يطاق .

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنْ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمْدَأْ بَعِيدًا وَيَحْذِرُ كُلُّ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٣﴾

(الجواب) ذكرنا تفصيل هذا الكلام في آخر سورة البقرة في قوله (الله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) .

ثم قال تعالى (ويعلم ما في السماوات وما في الأرض) .

واعلم أنه رفع على الاستئناف ، وهو قوله (قاتلواهم يعذبهم الله) جزم الأفعال ، ثم قال (ويتبوب الله) فرفع ، ومثله قوله (فان يشأ الله يختم على قلبك ويحيى الله الباطل) رفعاً ، وفي قوله (ويعلم ما في السماوات وما في الأرض) غاية التحذير لأنه اذا كان لا يخفى عليه شيء فيها فكيف يخفى عليه المصير .

ثم قال تعالى (والله على كل شيء قادر) إتماماً للتحذير ، وذلك لأنه لما بين أنه تعالى عالم بكل المعلومات كان عالماً بما في قلبه ، وكان عالماً بمقادير استحقاقه من الشواب والعقاب ، ثم بين أنه قادر على جميع المقدورات ، فكان لا محالة قادراً على إيصال حق كل أحد إليه ، فيكون في هذا تام الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب .

قوله تعالى ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرأ و ما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أبداً بعيداً و يحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ﴾ .

اعلم أن هذه الآية من باب الترغيب والترهيب ، ومن تام الكلام الذي تقدم .

وفي مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا في العامل في قوله (يوم) وجهها (الأول) قال ابن الأباري : اليوم متعلق بالمصير والتقدير : وإلى الله المصير يوم تجد (الثاني) العامل فيه قوله (و يحذركم الله نفسه) في الآية السابقة ، كأنه قال : و يحذركم الله نفسه في ذلك اليوم (الثالث) العامل فيه قوله (والله على كل شيء قادر) أي قادر في ذلك اليوم الذي تجد كل نفس ما عملت من خير محضرأ ، و خص هذا اليوم بالذكر ، وإن كان غيره من الأيام بمنزلته في قدرة الله

تعالى تفضيلا له لعظم شأنه كقوله (مالك يوم الدين) (الرابع) أن العامل فيه قوله (تود) والمعنى : تود كل نفس كذا وكذا في ذلك اليوم (الخامس) يجوز أن يكون متسبباً بمضمر ، والتقدير : واذكر يوم تجد كل نفس .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن العمل لا يبقى ، ولا يمكن وجدانه يوم القيمة ، فلا بد فيه من التأويل وهو من وجهين (الأول) أنه يجد صحائف الأعمال ، وهو قوله تعالى (إنا كنا نستنسخ ما كتتم تعملون) وقال (فینبئهم بما عملوا أحصاء الله ونسوه) (والثاني) أنه يجد جزاء الأعمال وقوله تعالى (محضراً) يحتمل أن يكون المراد أن تلك الصحائف تكون محضرة يوم القيمة ، ويحتمل أن يكون المعنى : أن جزاء العمل يكون محضراً ، كقوله (ووجدوا ما عملوا حاضراً) وعلى كلا الوجهين ، فالترغيب والترهيب حاصلان .

أما قوله (وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الواهidi : الأظهر أن يجعل (ما) ه هنا منزلة الذي ، ويكون (عملت) صلة لها ، ويكون معطوفاً على (ما) الأول ، ولا يجوز أن تكون (ما) شرطية ، وإلا كان يلزم أن ينصب (تود) أو يخفضه ، ولم يقرأ أحد إلا بالرفع ، فكان هذا دليلاً على أن (ما) ه هنا بمعنى الذي .

فإن قيل : فهل يصح أن تكون شرطية على قراءة عبد الله ، ودت .

قلنا : لا كلام في صحته لكن الحمل على الابتداء والخبر أوقع ، لأنه حكاية حال الكافر في ذلك اليوم ، وأكثر موافقة للقراءة المشهورة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الواو في قوله (وما عملت من سوء) فيه قولان (الأول) وهو قول أبي مسلم الأصفهاني : الواو واؤ العطف ، والتقدير : تجد ما عملت من خير وما عملت من سوء ، وأما قوله (تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً) ففيه وجهان (الأول) أنه صفة للسوء ، والتقدير : وما عملت من سوء الذي تود أن يبعد ما بينها وبينه (الثاني) أن يكون حالاً ، والتقدير : يوم تجد ما عملت من سوء محضراً حال ما تود بعده عنها .

﴿ والقول الثاني ﴾ أن الواو للاستناف ، وعلى هذا القول لا تكون الآية دليلاً على القطع بوعيد المذنبين ، وموضع الكرم واللطف هذا ، وذلك لأنه نص في جانب الثواب على كونه محضراً وأما في جانب العقاب فلم ينص على الحضور ، بل ذكر أنهم يودون الفرار منه ، والبعد عنه ، وذلك ينبه على أن جانب الوعد أولى بالوقوع من جانب الوعيد .

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٤٣﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الأمد ، الغاية التي يتنهى إليها ، ونظيره قوله تعالى (يا ليت بيبي وبينك بعد المشرقين فبئس القرین) .

واعلم أن المراد من هذا التمني معلوم ، سواء حملنا لفظ الأمد على الزمان أو على المكان ، إذ المقصود تمني بعده ، ثم قال (ويذكركم الله نفسه) وهو لتأكيد الوعيد . ثم قال (والله رؤف بالعباد) وفيه وجوه (الأول) أنه رؤف بهم حيث حذرهم من نفسه ، وعرفهم كمال علمه وقدرته ، وأنه يهلل ولا يهمل ، ورغبهم في استيصال رحمته ، وحذرهم من استحقاق غضبه ، قال الحسن : ومن رأفته بهم أن حذرهم نفسه (الثاني) أنه رؤف بالعباد حيث أمهلهم للتوبة والتدارك والتلافي (الثالث) أنه لما قال (ويذكركم الله نفسه) وهو للوعيد أتبعه بقوله (والله رؤف بالعباد) وهو للوعيد ليعلم العبد أن وعده ورحمته ، غالب على وعيده وسخطه (الرابع) وهو أن لفظ العباد في القرآن مختص ، قال تعالى (عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً) وقال تعالى (عينا يشرب بها عباد الله) فكان المعنى أنه لما ذكر وعید الكفار والفساق ذكر وعد أهل الطاعة فقال (والله رؤف بالعباد) أي كما هو متقسم من الفساق ، فهو رؤف بالمطهرين والمحسنين .

قوله تعالى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله ويففر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما دعا القوم إلى الإيمان به ، والإيمان برسله على سبيل التهديد والوعيد ، دعاهم إلى ذلك من طريق آخر وهو أن اليهود كانوا يقولون (نحن أبناء الله وأحبابه) فنزلت هذه الآية ، ويروى أنه ﷺ وقف على قريش وهم في المسجد الحرام يسجدون للأصنام فقال : يا معاشر قريش والله لقد خالفتكم ملة إبراهيم ، فقالت قريش : إنما نعبد هذه حباً الله تعالى ليقربونا إلى الله زلفى ، فنزلت هذه الآية ، ويروى أن النصارى قالوا : إنما نعظم المسيح حباً الله ، فنزلت هذه الآية ، وبالجملة بكل واحد من فرق العقلاة يدعى أنه يحب الله ، ويطلب رضاه وطاعته فقال لرسوله ﷺ : قل إن كنتم صادقين في ادعاء محبة الله تعالى فكونوا منقادين لأوامره محترزين عن مخالفته ، وتقدير الكلام : أن من كان محبًا لله تعالى لا بد وأن يكون في

غاية الخذر ما يجب سخطه ، وإذا قامت الدلالة القاطعة على نبوة محمد ﷺ وجبت متابعته ، فإن لم تحصل هذه المتابعة دل ذلك على أن تلك المحبة ما حصلت .

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى) أما الكلام المستقصي في المحبة ، فقد تقدم في تفسير قوله تعالى (والذين آمنوا أشد حبًّا لله) والمتكلمون مصرون على أن محبة الله تعالى عبارة عن محبة إعظامه وإجلاله ، أو محبة طاعته ، أو محبة ثوابه ، قالوا : لأن المحبة من جنس الإرادة ، والإرادة لا تعلق لها إلا بالحوادث وإنما بالمنافع .

واعلم أن هذا القول ضعيف ، وذلك لأنه لا يمكن أن يقال في كل شيء إنه إنما كان محبوباً لأجل معنى آخر وإنما لزم التسلسل والدور ، فلا بد من الانتهاء إلى شيء يكون محبوباً بالذات ، كما أنها نعلم أن اللذة محبوبة لذاتها ، فكذلك نعلم أن الكمال محبوب لذاته ، وكذلك أنا إذا سمعنا أخبار رستم واسفنديار في شجاعتها مال القلب إليهما مع أنها نقطع بأنه لا فائدة لنا في ذلك الميل ، بل ربما نعتقد أن تلك الحبة معصية لا يجوز لنا أن نصر عليها ، فعلمنا أن الكمال محبوب لذاته ، كما أن اللذة محبوبة لذاتها ، وكمال الكمال لله سبحانه وتعالى ، فكان ذلك يقتضي كونه محبوباً لذاته من ذاته ومن المقربين عنده الذين تحلى لهم أثر من آثار كماله وجلاله قال المتكلمون : وأما محبة الله تعالى للعبد فهي عبارة عن إرادته تعالى إيصال الخيرات والمنافع في الدين والدنيا إليه .

المسألة الثانية) القوم كانوا يدعون أنهم كانوا محبين لله تعالى ، وكانوا يظهرون الرغبة في أن يحبهم الله تعالى ، والأية مشتملة على أن الإلزام من وجهين (أحدهما) إن كنتم تحبون الله فاتبعوني ، لأن المعجزات دلت على أنه تعالى أوجب عليكم متابعتي (الثاني) إن كنتم تحبون أن يحبكم الله فاتبعوني لأنكم إذا اتبعتموني فقد أطعتم الله ، والله تعالى يحب كل من أطاعه ، وأيضاً فليس في متابعتي إلا أنني دعوتكم إلى طاعة الله تعالى وتعظيمه وترك تعظيم غيره ، ومن أحب الله كان راغباً فيه ، لأن المحبة توجب الإقبال بالكلية على المحبوب ، والإعراض بالكلية عن غير المحبوب .

المسألة الثالثة) خاض صاحب الكشاف في هذا المقام في الطعن في أولياء الله تعالى وكتب هنا ما لا يليق بالعقل أن يكتب مثله في كتب الفحش فهاب أنه اجترأ على الطعن في أولياء الله تعالى فكيف اجترأ على كتبه مثل ذلك الكلام الفاحش في تفسير كلام الله تعالى ، نسأل الله العصمة والهدایة ، ثم قال تعالى (ويغفر لكم ذنبكم) والمراد من محبة الله تعالى

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَرْسُولَ فَإِن تَوَلُوا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكُفَّارِينَ

له إعطاءه الثواب ، ومن غفران ذنبه إزالة العقاب ، وهذا غاية ما يتطلبه كل عاقل ، ثم قال (والله غفور رحيم) يعني غفور في الدنيا يستر على العبد أنواع المعاصي رحيم في الآخرة بفضله وكرمه .

قوله تعالى ﴿ قل أطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلُوا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكُفَّارِينَ ﴾ .

يروى أنه لما نزل قوله (قل إن كتم تحبون الله) الآية قال عبد الله بن أبي : إن محمدًا يجعل طاعة كطاعة الله ، ويأمرنا أن نحبه كما أحبب النصارى عيسى ، فنزلت هذه الآية ، وتحقيق الكلام أن الآية الأولى لما اقتضت وجوب متابعته ، ثم إن المنافق ألقى شبهة في الدين ، وهي أن محمدًا يدعى لنفسه مثل ما يقوله النصارى في عيسى ، ذكر الله تعالى هذه الآية إزالة لتلك الشبهة ، فقال (قل أطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ) يعني إنما أوجب الله عليكم متابعتي لا كما تقول النصارى في عيسى بل لكوني رسولًا من عند الله ، ولما كان مبلغ التكاليف عن الله هو الرسول لزم أن تكون طاعته واجبة فكان إيجاب المتابعة لهذا المعنى لا لأجل الشبهة التي ألقاها المنافق في الدين .

ثم قال تعالى (فَإِن تَوَلُوا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكُفَّارِينَ) يعني إن أعرضوا فإنه لا يحصل لهم محبة الله ، لأنه تعالى إنما أوجب الثناء وال مدح لمن أطاعه ، ومن كفر استوجب الذلة والإهانة ، وذلك ضد المحبة والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عُمَرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين أن محبته لا تتم إلا بمتابعة الرسل بين علو درجات الرسل وشرف مناصبهم فقال (إن الله اصطفى آدم) وفي الآية مسائل .

﴿ المسألة الأولى ﴾ اعلم أن المخلوقات على قسمين : المكلف وغير المكلف واتفقوا على أن المكلف أفضل من غير المكلف ، واتفقا على أن أصناف المكلف أربعة : الملائكة ، والإنس والجن والشياطين ، أما الملائكة ، فقد روى في الأخبار أن الله تعالى خلقهم من الريح ومنهم من احتاج بوجوه عقلية على صحة ذلك (فال الأول) أنهم لهذا السبب قدروا على الطيران على أسرع الوجوه (والثاني) لهذا السبب قدروا على حمل المركش ، لأن الريح تقوم بحمل الأشياء

إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَنَا إِذَاً وَنُوحًا وَأَلَّا إِبْرَاهِيمَ وَأَلَّا عِمَّارَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣﴾ دُرِّيَةٌ بَعْضُهَا
مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَبِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤﴾

(الثالث) لهذا السبب سموار وحانين ، وجاء في رواية أخرى أنهم خلقوا من النور ، وهذا صفت وأخلصت لله تعالى والأولى أن يجمع بين القولين فنقول : أبدانهم من الريح وأرواحهم من النور فهولاء هم سكان عالم السماوات ، أما الشياطين فهم كفرة أما إيليس فكفره ظاهر لقوله تعالى (وكان من الكافرين) وأما سائر الشياطين فهم أيضاً كفرة بدلليل قوله تعالى (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهם إنكم مشركون) ومن خواص الشياطين أنهم بأسراها أعداء للبشر قال تعالى (ففسق عن أمر ربه أفتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو) وقال (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجنة) ومن خواص الشياطين كونهم مخلوقين من النار قال الله تعالى حكاية عن إيليس (خلقتني من نار وخلقته من طين) وقال (والجنة خلقناه من قبل من نار السموات) فأما الجن فمنهم كافر ومنهم مؤمن ، قال تعالى (وأنا منا المسلمين ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحرروا رشدًا) وأما الإنس فلاشك أن لهم والدًا هو والدهم الأول ، وإلا للذهب إلى ما لا نهاية القرآن دل على أن ذلك الأول هو آدم عليه ما قال تعالى في هذه السورة (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) وقال (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها) .

إذا عرفت هذا فنقول : اتفق العلماء على أن البشر أفضل من الجن والشياطين ، واختلفوا في أن البشر أفضل أم الملائكة ، وقد استقصينا هذه المسألة في تفسير قوله تعالى (اسجدوا للأدم فسجدوا) والقائلون بأن البشر أفضل تمسكوا بهذه الآية ، وذلك لأن الاصطفاء يدل على مزيد الكرامة وعلو الدرجة ، فلما بين تعالى أنه اصطفى آدم وأولاده من الأنبياء على كل العالمين وجب أن يكونوا أفضل من الملائكة لكونهم من العالمين .

فإن قيل : إن حملنا هذه الآية على تفضيل المذكورين فيها على كل العالمين أدى إلى التناقض لأن الجمجم الكبير إذا وصفوا بأن كل واحد منهم أفضل من كل العالمين يلزم كون كل واحد منهم أفضل من كل العالمين يلزم كون كل واحد منهم أفضل من الآخر وذلك محال ، ولو حملناه على كونه أفضل عالمي زمانه أو عالمي جنسه لم يلزم التناقض ، فوجب حمله على هذا المعنى دفعاً للتناقض وأيضاً قال تعالى في صفة بنى إسرائيل (وإنني فضلتم على العالمين) ولا

يلزم كونهم أفضل من محمد ﷺ بل قلنا . المراد به عالمو زمان كل واحد منهم ، والجواب ظاهر في قوله : اصطفى آدم على العالمين ، يتناول كل من يصح إطلاق لفظ العالم عليه فيندرج فيه الملك ، غاية ما في هذا الباب أنه ترك العمل بعمومه في بعض الصور لدليل قام عليه ، فلا يجوز أن نتركه في سائر الصور من غير دليل .

﴿ المَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ ﴾ (اصطفى) في اللغة اختار ، فمعنى : اصطفاهم ، أي جعلهم صفة خلقه ، تمثيلاً بما يشاهد من الشيء الذي يصفى وينقى من الكدوره ، ويقال على ثلاثة أوجه : صفة ، وصفوة وصفوة ، ونظير هذه الآية قوله لموسى (إني اصطفيتك على الناس برسالاتي) وقال في إبراهيم (وإسحق ويعقوب وإنهم عندنا من المصطفين الأخيار) .

إذا عرفت هذا فقول . في الآية قولان (الأول) المعنى أن الله اصطفى دين آدم ودين نوح فيكون الاصطفاء راجعاً إلى دينهم وشرعيهم وملتهم ، ويكون هذا المعنى على تقدير حذف المضاف (والثاني) أن يكون المعنى : إن الله اصطفاهم ، أي صفاهم من الصفات الذميمة ، وزينهم بالخصال الحميدة ، وهذا القول أولى لوجهين (أحددهما) أنا لاحتاج فيه إلى الإصرار (والثاني) أنه موافق لقوله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وذكر الحليمي في كتاب المنهاج أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا بد وأن يكونوا مخالفين لغيرهم في القوى الجسمانية ، والقوى الروحانية ، أما القوى الجسمانية ، فهي إما مدركة ، وإما محركة .

﴿ أَمَا الْمَدْرَكَةُ ﴾ فهي إما الحواس الظاهرة ، وإما الحواس الباطنة ، أما الحواس الظاهرة فهي خمسة (أحددها) القوة البصرية ، ولقد كان الرسول ﷺ مخصوصاً بكمال هذه الصفة ويدل عليه وجهان (الأول) قوله ﷺ « زويت لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها » (والثاني) قوله ﷺ « أقيموا صفوكم وتراسوا فأئم أراكم من وراء ظهري » ونظير هذه القوة ما حصل لإبراهيم ﷺ وهو قوله تعالى (وكذلك نرى إبراهيم ملكت السموات والأرض) ذكروا في تفسيره أنه تعالى قوى بصره حتى شاهد جميع الملائكة من الأعلى والأسفل قال الحليمي رحمه الله : وهذا غير مستبعد لأن البصراً يتفاوتون فروى أن زرقاء اليمامة كانت تبصر الشيء من مسيرة ثلاثة أيام ، فلا يبعد أن يكون بصر النبي ﷺ أقوى من بصرها (وثانية) القوة السامعة ، وكان ﷺ أقوى الناس في هذه القوة ، ويدل عليه وجهان (أحددهما) قوله ﷺ « أطت السماء وحق لها أن تهطم ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد لله تعالى » فسمع أطيط السماء (والثاني) أنه سمع دوياً ذكر أنه هو صخرة قذفت في جهنم فلم تبلغ قعرها إلى الآن ، قال الحليمي : ولا سبيل للفلسفه إلى استبعاد هذا ، فإنهم زعموا أن فيتاغورث راض نفسه حتى سمع خفييف الفلك ، ونظير هذه القوة لسلیمان عليه السلام في قصة النمل (قالت

نملة يا أئمَّة النَّمَل ادخلوا مساكنكم) فالله تعالى أسمع سليمان كلام النَّمَل وأوقفه على معناه وهذا داخل أيضًا في باب تقوية الفهم ، وكان ذلك حاصلًا لمحمد ﷺ حين تكلم مع الذئب ومع البعير (وثالثها) تقوية قوة الشَّم ، كما في حق يعقوب عليه السلام ، فلما فصلت العيز قال يعقوب (إني لأجد السلام لما أمر بحمل قميصاً إليه وإلقائه على وجهه ، فلما فصلت العيز قال يعقوب (إنِّي لأجد ريح يوسف) فأحس بها من مسيرة أيام (ورابعها) تقوية قوة الذوق ، كما في حق رسولنا ﷺ حين قال « إنَّ هذَا الذِّرَاع يخْبِرُنِي أَنَّهُ مَسْمُوم » (وخامسها) تقوية القوة اللامسة كما في حق الخليل حيث جعل الله تعالى النار بردًا وسلامًا عليه ، فكيف يستبعد هذا ويشاهد مثله في السمندل والنعامنة ، وأما الحواس الباطنة فمنها قوة الحفظ ، قال تعالى (سنقرئك فلا تنسى) ومنها قوة الذكاء قال علي عليه السلام « علمني رسول الله ﷺ ألف باب من العلم واستنبط من كل باب ألف باب » فإذا كان حال الولي هكذا ، فكيف حال النبي ﷺ .

﴿ وَأَمَّا الْقُوَى الْمُحْرَكَة ﴾ فمثل عروج النبي ﷺ إلى المراج ، وعروج عيسى حيًّا إلى السماء ، ورفع إدريس وإلياس على ما وردت به الأخبار ، وقال الله تعالى (قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك) .

﴿ وَأَمَّا الْقُوَى الرُّوحَانِيَّةِ الْعُقْلِيَّةِ ﴾ فلا بد وأن تكون في غاية الكمال ، ونهاية الصفاء .

واعلم أن تمام الكلام في هذا الباب أن النفس القدسية النبوية مخالفة باهيتها لسائر النفوس ، ومن لوازم تلك النفس الكمال في الذكاء ، والفضة ، والحرية ، والاستعلاء ، والترفع عن الجسمانيات والشهوات ، فإذا كانت الروح في غاية الصفاء والشرف ، وكان البدن في غاية النقاء والطهارة كانت هذه القوى المحركة والمدركة في غاية الكمال لأنها جارية مجرى أنوار فائضة من جوهر الروح واصلة إلى البدن ، ومتنى كان الفاعل والقابل في غاية الكمال كانت الآثار في غاية القوة والشرف والصفاء .

إذا عرفت هذا فقوله (إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا) معناه : إنَّ اللَّهَ تَعَالَى اصْطَفَى آدَمَ إِمَّا من سكان العالم السفلي على قول من يقول : الملك أفضل من البشر ، أو من سكان العالم العلوي على قول من يقول : البشر أشرف المخلوقات ، ثم وضع كمال القوة الروحانية في شعبة معينة من أولاد آدم عليه السلام ، هم شيث وأولاده ، إلى إدريس ، ثم إلى نوح ، ثم إلى إبراهيم ، ثم حصل من إبراهيم شعبتان : إسماعيل وإسحق ، فجعل إسماعيل مبدأ لظهور الروح القدسية لمحمد ﷺ ، وجعل إسحق مبدأ لشعبتين : يعقوب وعيصو ، فوضع النبوة في نسل يعقوب ، ووضع الملك في نسل عيصو ، واستمر ذلك إلى زمان محمد ﷺ ، فلما ظهر محمد

ﷺ نقل نور النبوة ونور الملك إلى محمد ﷺ ، وبقياً يعني الدين والملك لأتباعه إلى قيام القيمة ، ومن تأمل في هذا الباب وصل إلى أسرار عجيبة .

﴿المسألة الثالثة﴾ من الناس من قال . المراد بآل إبراهيم المؤمنون ، كما في قوله (أدخلوا آل فرعون) وال الصحيح أن المراد بهم الأولاد ، وهم المراد بقوله تعالى (إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) وأما آل عمران فقد اختلفوا فيه ، فمنهم من قال المراد عمران ولد موسى وهرون ، وهو عمران بن يصهر بن قاheet بن لاوي بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم ، فيكون المراد من آل عمران موسى وهرون وأتباعها من الأنبياء ، ومنهم من قال : بل المراد : عمران بن ماثان والد مريم ، وكان هو من نسل سليمان بن داود بن إيسا ، وكانتوا من نسل يهوذا بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام ، قالوا . وبين العماريين ألف وثمانمائة سنة ، واحتج من قال بهذا القول على صحته بأمور (أحددها) أن المذكور عقب قوله (وآل عمران على العالمين) هو عمران بن ماثان جد عيسى عليه السلام من قبل الأم ، فكان صرف الكلام إليه أولى (وثانيها) أن المقصود من الكلام أن النصارى كانوا يتحجون على إلهية عيسى بالخوارق التي ظهرت على يديه ، فالله تعالى يقول : إنما ظهرت على يده إكرااماً من الله تعالى إياها ، وذلك لأنَّه تعالى اصطفاه على العالمين وخصه بالكرامات العظيمة ، فكان حمل هذا الكلام على عمران بن ماثان أولى في هذا المقام من حمله على عمران والد موسى وهرون (وثالثها) أن هذا اللفظ شديد المطابقة لقوله تعالى (وجعلناها وابنها آية للعالمين) واعلم أن هذه الوجوه ليست دلائل قوية ، بل هي أمور ظنية ، وأصل الاحتمال قائم .

أما قوله تعالى (ذرية بعضها من بعض) ففيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ في نصب قوله (ذرية) وجهان (الأول) أنه بدل من آل إبراهيم (والثاني) أن يكون نصباً على الحال ، أي اصطفاهم في حال كون بعضهم من بعض .

﴿المسألة الثانية﴾ في تأويل الآية وجوه (الأول) ذرية بعضها من بعض في التوحيد والإخلاص والطاعة ، ونظيره قوله تعالى (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) وذلك بسبب اشتراكهم في النفاق (والثاني) ذرية بعضها من بعض يعني أن غير آدم عليه السلام كانوا متولدين من آدم عليه السلام ، ويكون المراد بالذرية من سوى آدم .

أما قوله تعالى (والله سمِيع علِيم) فقال القفال : المعنى والله سمِيع لأقوال العباد ، علِيم بضمائرهم وأفعالهم ، وإنما يصطفى من خلقه من يعلم استقامته قولًا وفعلاً ، ونظيره قوله

إِذْ قَالَتْ أُمَّرَأٌ عِمْرَانَ رَبِّي إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقْبَلْ مِنِّي إِنَّكَ
أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّي إِنِّي وَضَعَتْهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكْرُ كَالأنْثَى وَإِنِّي سَمِّيَتْهَا مَرِيمٌ وَإِنِّي أَعْيَدُهَا لِكَ وَذَرِّيَّتْهَا مِنَ
الشَّيْطَنِ الْرَّجِيمِ ﴿٤٧﴾ فَتَقْبَلَهَا رَبُّهَا يَقْبُولُ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَلَهَا
زَكَرِيَّاً كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّاً الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنْمَرِيمُ أَنِّي لَكَ هَذَا
قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٨﴾

تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) و قوله (إنهم كانوا يسارعون في المخارات ويدعوننا رغبة ورهباً وكانوا النا خاسعين) وفيه وجه آخر : وهو أن اليهود كانوا يقولون : نحن من ولد إبراهيم ومن آل عمران ، فنحن أبناء الله وأحباؤه ، والنصارى كانوا يقولون : المسيح ابن الله ، وكان بعضهم عالماً بأن هذا الكلام باطل ، إلا أنه لتطيب قلوب العوام بقي مصرأً عليه ، فالله تعالى كأنه يقول : والله سميع هذه الأقوال الباطلة منكم ، عليم بأغراضكم الفاسدة من هذه الأقوال فيجازيكم عليها ، فكان أول الآية بياناً لشرف الأنبياء والرسل ، وآخرها تهديداً لهؤلاء الكاذبين الذين يزعمون أنهم مستقررون على أديانهم .

واعلم أنه تعالى ذكر عقب هذه الآية قصصاً كثيرة :

القصة الأولى

واقعة حنة أم مريم عليهما السلام

قوله تعالى ﴿٤٦﴾ إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم ، فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر

كالأنثى وإنني سميتها مريم وإنني أغىدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ، فتقبلها ربهما بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكرييا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أني لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب 》 .

وفي مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في موضع (إذ) من الإعراب أقوال (الأول) قال أبو عبيدة : إنها زائدة لغواً ، والمعنى : قالت امرأة عمران ، ولا موضع لها من الإعراب ، قال الزجاج : لم يصنع أبو عبيدة في هذا شيئاً ، لأنه لا يجوز إلغاء حرف من كتاب الله تعالى ، ولا يجوز حذف حرف من كتاب الله تعالى من غير ضرورة (والثاني) قال الأخفش والمبرد : التقدير (اذكر إذ قالت امرأة عمران) ومثله في كتاب الله تعالى كثير (الثالث) قال الزجاج ، التقدير : واصطفى آل عمران على العالمين إذ قالت امرأة عمران ، وطعن ابن الأنباري فيه وقال : إن الله تعالى قرن اصطفاء آل عمران باصطفاء آدم ونوح ، ولما كان اصطفاؤه تعالى آدم ونوحاً قبل قول امرأة عمران استحال أن يقال : إن هذا الاصطفاء مقيد بذلك الوقت الذي قالت امرأة عمران هذا الكلام فيه ويمكن أن يجاب عنه بأن أثر اصطفاء كل واحد إنما ظهر عند وجوده ، وظهور طاعاته ، فجاز أن يقال : إن الله اصطفى آدم عند وجوده ، ونوحًا عند وجوده ، وأآل عمران عندما قالت امرأة عمران هذا الكلام (الرابع) قال بعضهم : هذا متعلق بما قبله ، والتقدير : والله سميح عليم إذا قالت امرأة عمران هذا القول .

فإن قيل : إن الله سميح عليم قبل أن قالت المرأة هذا القول ، فما معنى هذا التقييد ؟

قلنا : إن سمعه تعالى لذلك الكلام مقيد بوجود ذلك الكلام وعلمه تعالى بأنها تذكر ذلك مقيد بذكرها لذلك والتغير في العلم والسمع إنما يقع في النسب والمتصلات .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أن زكريا بن اذن ، وعمران بن ماثان ، كانوا في عصر واحد ، وامرأة عمران حنة بنت فاقوذ ، وقد تزوج زكريا بابنته إيساع اخت مريم ، وكان يحيى وعيسي عليهما السلام ابني خالة ، ثم في كيفية هذا النذر روايات :

﴿ الرواية الأولى ﴾ قال عكرمة . إنها كانت عاقراً لا تلد ، وكانت تغبط النساء بالأولاد ، ثم قالت : اللهم إن لك علي نذراً إن رزقني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس ليكون من سدنته .

﴿ والرواية الثانية ﴾ قال محمد بن إسحق : إن أم مريم ما كان يحصل لها ولد حتى شاخت ، وكانت يوماً في ظل شجرة فرأت طائراً يطعم فرخاً له فتحركت نفسها للولد ، فدعت ربها أن يهب لها ولداً فحملت بحريم ، وهلك عمران ، فلما عرفت جعلته الله محراً ، أي خادماً للمسجد ، قال الحسن البصري : إنها إنما فعلت ذلك بإلهام من الله ولو لاه ما فعلت كما رأى إبراهيم ذبح ابنه في المنام فعلم أن ذلك أمر من الله وإن لم يكن عن وحي ، وكما ألم الله أم موسى فقدفته في اليم وليس بوحي .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المحرر الذي يجعل حراً خالصاً ، يقال : حررت العبد إذا خلصته عن الرق ، وحررت الكتاب إذا أصلحته ، وخلصته فلم تبق فيه شيئاً من وجوده بغلط ، ورجل حر إذا كان خالصاً لنفسه ليس لأحد عليه تعلق ، والطين الحر الخالص عن الرمل والحجارة والحماء والعيوب أما التفسير فقيل خالصاً للعبادة عن الشعبي ، وقيل : خادماً للبيعة ، وقيل : عتيقاً من أمر الدنيا لطاعة الله ، وقيل : خادماً من يدرس الكتاب ، ويعلم في البيع ، والمعنى أنها نذرت أن يجعل ذلك الولد وقفاً على طاعة الله ، قال الأصم : لم يكن لبني إسرائيل غنية ولا سي ، فكان تحريرهم جعلهم أولادهم على الصفة التي ذكرنا ، وذلك لأنه كان الأمر في دينهم أر الولد إذا صار بحيث يمكن استخدامه كان يجب عليه خدمة الأبوين ، فكانوا بالنذر يتربون بذلك النوع من الإنفاع ، ويجعلونهم محررين لخدمة المسجد وطاعة الله تعالى ، وقيل : كان المحرر يجعل في الكنيسة يقوم بخدمتها حتى يبلغ الحلم ، ثم يخير بين المقام والذهب ، فإن أبي المقام وأراد أن يذهب ذهب ، وإن اختار المقام فليس له بعد ذلك خيار ، ولم يكن النبي إلا ومن نسله محرر في بيت المقدس .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ هذا التحرير لم يكن جائزاً إلا في الغلمان أما الجارية فكانت لا تصلح لذلك لما يصيها من الحيض والأذى ، ثم إن حنة نذرت مطلقاً إما لأنها بنت الأمر على التقدير ، أو لأنها جعلت ذلك النذر وسيلة إلى طلب الذكر .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ في انتصار قوله (محراً) وجهان (الأول) أنه نصب على الحال من (ما) وتقديره : نذرت لك الذي في بطني محراً (والثاني) وهو قول ابن قتيبة أن المعنى نذرت لك أن أجعل ما في بطني محراً .

ثم قال الله تعالى حاكياً عنها (فتقبل مني إنك أنت السميع العليم) التقبيل : أخذ الشيء على الرضا ، قال الواهidi : وأصله من المقابلة لأنه يقبل بالجزاء ، وهذا كلام من لا يريد بما فعله إلا الطلب لرضا الله تعالى والإخلاص في عبادته ، ثم قالت (إنك أنت السميع العليم) والمعنى : أنك أنت السميع لتضرعي ودعائي وندائي ، العليم بما في ضميري وقلبي ونبيي .

واعلم أن هذا النوع من النذر كان في شرعبني إسرائيل وغير موجود في شرعنا ، والشائع لا يمتنع اختلافها في مثل هذه الأحكام ،

قال تعالى (فلما وضعتها) واعلم أن هذا الضمير إما أن يكون عائداً إلى الأنثى التي كانت في بطنها وكان عالماً بأنها كانت أنثى أو يقال : إنها عادت إلى النفس والنسمة أو يقال : عادت إلى المنذورة .

ثم قال تعالى (قالت رب إني وضعتها أنثى) واعلم أن الفائدة في هذا الكلام أنه تقدم منها النذر في تحرير ما في بطنها ، وكان الغالب على ظنها أنه ذكر فلم تشترط ذلك في كلامها ، وكانت العادة عندهم أن الذي يحرر ويفرغ لخدمة المسجد وطاعة الله هو الذكر دون الأنثى فقالت (رب إني وضعتها أنثى) خائفة أن نذرها لم يقع الموقع الذي يعتد به ومعتذرة من إطلاقها النذر المتقدم فذكرت ذلك لا على سبيل الإعلام لله تعالى ، تعالى الله عن أن يحتاج إلى إعلامها ، بل ذكرت ذلك على سبيل الإعتذار .

ثم قال الله تعالى (والله أعلم بما وضعت) قرأ أبو بكر عن عاصم وابن عامر (وضعت) برفع التاء على تقدير أنها حكاية كلامها ، والفائدة في هذا الكلام أنها لما قالت (إني وضعتها أنثى) خافت أن يظن بها أنها تخبر الله تعالى ، فأزالت الشبهة بقولها (والله أعلم بما وضعت) وثبت أنها إنما قالت ذلك للاعتذار لا للإعلام ، والباقيون بالجزم على أنه كلام الله ، وعلى هذه القراءة يكون المعنى أنه تعالى قال : والله أعلم بما وضعت تعظيمًا لولدها ، وتجهيلًا لها بقدر ذلك الولد ، ومعناه : والله أعلم بالشيء الذي وضعت وبما علق به من عظام الأمور ، وأن يجعله ولد آية للعالمين ، وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئاً فلذلك تحسرت ، وفي قراءة ابن عباس (والله أعلم بما وضعت) على خطاب الله لها ، أي : أنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب والله هو العالم بما فيه من العجائب والآيات .

ثم قال تعالى حكاية عنها (وليس الذكر كالأنثى) وفيه قولان (الأول) أن مرادها تفضيل الولد الذكر على الأنثى ، وسبب هذا التفضيل من وجوه (أحددها) أن شرعاً أنه لا

يجوز تحرير الذكور دون الإناث (والثاني) أن الذكر يصح أن يستمر على خدمة موضع العبادة ، ولا يصح ذلك في الأنثى لمكان الحيض وسائر عوارض النساء (والثالث) الذكر يصلح لقوته وشدة للخدمة دون الأنثى فإنها ضعيفة لا تقوى على الخدمة (والرابع) أن الذكر لا يلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالناس وليس كذلك الأنثى (والخامس) أن الذكر لا يلحقه من التهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى فهذه الوجوه تقتضي فضل الذكر على الأنثى في هذا المعنى .

﴿ والقول الثاني ﴾ أن المقصود من هذا الكلام ترجيح هذه الأنثى على الذكر ، كأنها قالت الذكر مطلوبٌ وهذه الأنثى موهوبة الله تعالى ، وليس الذكر الذي يكون مطلوبٌ كالأنثى التي هي موهوبة لله ، وهذا الكلام يدل على أن تلك المرأة كانت مستغرقة في معرفة جلال الله عالمة بأن ما يفعله رب بالعبد خير مما يريده العبد لنفسه .

ثم حكى تعالى عنها كلاماً ثانياً وهو قوله (وإنني سميتها مريم) وفيه أبحاث :

﴿ البحث الأول ﴾ أن ظاهر هذا الكلام يدل على ما حكينا من أن عمران كان قد مات في حال حمل حنة بِمَرِيمَ ، فلذلك تولت الأم تسميتها ، لأن العادة أن ذلك يتولاه الآباء .

﴿ البحث الثاني ﴾ أن مريم في لغتهم : العابدة ، فأرادت بهذه التسمية أن تطلب من الله تعالى أن يعصيَّها من آفات الدين والدنيا ، والذي يؤكِّد هذا قوله بعد ذلك (وإنني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) .

﴿ البحث الثالث ﴾ أن قوله (وإنني سميتها مريم) معناه : وإنني سميتها بهذا اللفظ أي جعلت هذا اللفظ اسمَّها ، وهذا يدل على أن الإِسْمُ والمِسْمَى والتسمية أمور ثلاثة متغيرة .

ثم حكى الله تعالى عنها كلاماً ثالثاً وهو قوله (وإنني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) وذلك لأنَّه لما فاتها ما كانت تريد من أن يكون رجلاً خادماً للمسجد تضرعت إلى الله تعالى في أن يحفظها من الشيطان الرجيم ، وأن يجعلها من الصالحات القانتات ، وتفسير الشيطان الرجيم قد تقدم في أول الكتاب .

وما حكى الله تعالى عن حنة هذه الكلمات قال (فتقبلها ربهما بقبول) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إنما قال (فتقبلها ربهما بقبول حسن) ولم يقل : فتقبلها ربهما بتقبيل لأن القبول والتقبيل متقاربان قال تعالى (والله أنتكم من الأرض نباتاً) أي إنباتاً ، والقبول مصدر قوله : قبل فلان الشيء قبولاً إذا رضيه ، قال سيبويه : خمسة مصادر جاءت على

فعول : قبول وظهور وضوء وقود ولوغ ، إلا أن الأكثر في الوقود إذا كان مصدراً للضم ، وأجاز الفراء والزجاج : قبولاً بالضم ، وروى ثعلب عن ابن الأعرابي يقال : قبلته قبولاً وقبولاً ، وفي الآية وجه آخر وهو أن ما كان من باب التفعل فإنه يدل على شدة اعتماد ذلك الفاعل بإظهار ذلك الفعل كالتصرير والتجلد ونحوهما فإنها يفيدان الجد في إظهار الصبر والجلادة ، فكذا هنا التقبل يفيد المبالغة في إظهار القبول .

فإن قيل : فلم لم يقل : فتقبلها ربها بتقبل حسن حتى صارت المبالغة أكمل ؟

(والجواب) أن لفظ التقبل وإن أفاد ما ذكرنا إلا أنه يفيد نوع تكليف على خلاف الطبع ، أما القبول فإنه يفيد معنى القبول على وفق الطبيع فذكر التقبل ليزيد الجد والمبالغة ، ثم ذكر القبول ليزيد أن ذلك ليس على خلاف الطبيع ، بل على وفق الطبيع ، وهذه الوجوه وإن كانت ممتنعة في حق الله تعالى ، إلا أنها تدل من حيث الاستعارة على حصول العناية العظيمة في تربيتها ، وهذا الوجه مناسب معقول .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر المفسرون في تفسير ذلك القبول الحسن وجوهاً :

﴿ الوجه الأول ﴾ أنه تعالى عصمتها وعصم ولدها عيسى عليه السلام من مس الشيطان روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال « ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إلا مريم وابنها » ثم قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم (وإنني أعيذها بك وذريتها من الشيطان) طعن القاضي في هذا الخبر وقال : إنه خبر واحد على خلاف الدليل فوجب ردّه ، وإنما قلنا : إنه على خلاف الدليل لوجوه (أحدها) أن الشيطان إنما يدعو إلى الشر من يعرف الخير والشر والصبي وليس كذلك (والثاني) أن الشيطان لو تمكّن من هذا النحس لفعل أكثر من ذلك من إهلاك الصالحين وإفساد أحوالهم (والثالث) لم يحصل بهذا الاستثناء مريم وعيسى عليهما السلام دون سائر الأنبياء عليهم السلام (الرابع) أن ذلك النحس لو وجد بقي أثره ، ولو بقي أثره لدام الصراخ والبكاء ، فلما لم يكن كذلك علمتنا بطلانه ، واعلم أن هذه الوجوه محتملة ، وبأمثالها لا يجوز دفع الخبر والله أعلم .

﴿ الوجه الثاني ﴾ في تفسير أن الله تعالى تقبلها بقبول حسن ، ما روى أن حنة حين ولدت مريم لفتها في خرقه وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار أبناء هارون ، وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة ، وقالت : خذوا هذه النذير ، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم ، وكانت بنو ماثان رؤس بنى إسرائيل وأحبارهم وملوكهم فقال لهم زكريا : أنا أحق بها عندي خالتها فقالوا لا حتى تفترع عليها ، فانطلقوا و كانوا سبعة وعشرين إلى نهر فألقوا فيه

أقلامهم التي كانوا يكتبون الوحي بها على أن كل من ارتفع علمه فهو الراجح ، ثم القوا أقلامهم ثلاث مرات ، ففي كل مرة كان يرتفع قلم زكريا فوق الماء وترسب أقلامهم فأخذها زكريا .

﴿ الوجه الثالث ﴾ روى القفال عن الحسن أنه قال : إن مريم تكلمت في صباها كما تكلم المسيح ولم تلتقم ثدياً قط ، وإن رزقها كان يأتيها من الجنة .

﴿ الوجه الرابع ﴾ في تفسير القبول الحسن أن المعتمد في تلك الشريعة أن التحرير لا يجوز إلا في حق الغلام حين يصير عاقلاً قادرًا على خدمة المسجد ، وهنالما أعلم الله تعالى تصرع تلك المرأة قبل تلك الجارية حال صغراها وعدم قدرتها على خدمة المسجد ، فهذا كله هو الوجه المذكورة في تفسير القبول الحسن .

ثم قال الله تعالى (وأنبتها نباتاً حسناً) قال ابن الأباري : التقدير أنبتها فنبت هي نباتاً حسناً ثم منهم من صرف هذا النبات الحسن إلى ما يتعلق بالدنيا ، ومنهم من صرفه إلى ما يتعلق بالدين ، أما الأول فقالوا : المعنى أنها كانت تنبت في اليوم مثل ما ينجب المولود في عام واحد ، وأما في الدين فلأنها نبتت في الصلاح والسداد والعفة والطاعة .

ثم قال الله تعالى (وكفلها زكريا) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يقال : كفل يكفل كفالة وكفلاً فهو كافل ، وهو الذي ينفق على إنسان ويهم بإصلاح مصالحة ، وفي الحديث « أنا وكافل اليتيم كهاتين » وقال الله تعالى (اكفلنيها) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ عاصم وجمزة والكسائي (وكفلها) بالتشديد ، ثم اختلفوا في زكريا فقرأ عاصم بالمد ، وقرأ حمزه والكسائي بالقصر على معنى ضمها الله تعالى إلى زكريا ، فمن قرأ (زكريا) بالمد أظهر النصب ومن قرأ بالقصر كان في محل النصب ولباقيون قرأوا بالمد والرفع على معنى ضمها زكرياء إلى نفسه ، وهو الإختيار ، لأن هذا مناسب لقوله تعالى (أيهم يكفل مريم) وعليه ضمنها زكرياء إلى نفسه ، وهو الإختيار ، لأن هذا مناسب لقوله تعالى (أيهم يكفل مريم) وعليه الأكثر ، وعن ابن كثير في رواية (كفلها) بكسر الفاء ، وأما القصر والمد في زكريا فهما لغتان ، كالمهيجاء والهيجا ، وقرأ مجاهد (فتقبّلها رَبَّها ، وأنْبَثَها ، وكفُلَّها) على لفظ الأمر في الأفعال الثلاثة ، ونصب (ربها) كأنها كانت تدعوا الله فقالت : أقبلها يا ربها ، وأنبتها يا ربها ، وأجعل زكريا كافلاً لها

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا في كفالة زكريا عليه السلام إياها متى كانت ، فقال الأثرون : كان ذلك حال طفوليتها ، وبه جاءت الروايات ، وقال بعضهم : بل إنما كفلها بعد أن فطممت ، وأحتجوا عليه بوجهين (الأول) أنه تعالى قال (وأنبتها نباتاً حسناً) ثم قال (وكفلها زكريا) وهذا يوهم أن تلك الكفالة بعد ذلك النبات الحسن (والثاني) انه تعالى قال : (وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أني لك هذا قالت هو من عند الله) وهذا يدل على أنها كانت قد فارقت الرضاع وقت تلك الكفالة ، وأصحاب القول الأول أجابوا بأن الواو لا توجب الترتيب ، فلعل الأنبات الحسن وكفالة زكريا حصلا معا .

﴿ وأما الحجة الثانية ﴾ فلعل دخوله عليها وسؤاله منها هذا السؤال إنما وقع في آخر زمان الكفالة .

ثم قال الله (كلما دخل عليها زكريا بالمحراب وجد عندها رزقا) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (المحراب) الموضع العالى الشريف ، قال عمر بن أبي ربيعة :

ربة محراب إذا جنتها
لم أدن حتى أرتقى سلما

واحتاج الأصمعي على أن المحراب هو الغرفة بقوله تعالى (إذ تصور والمحراب) والتصور لا يكون إلا من علو ، وقيل : المحراب أشرف المجالس وأرفعها ، يروي أنها لما صارت شابة بني زكريا عليه السلام لها غرفة في المسجد ، وجعل بابها في وسطه لا يصعد إليه بسلم ، وكان إذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتاج أصحابنا على صحة القول بكرامة الأولياء بهذه الآية ، ووجه الاستدلال أنه تعالى أخبر أن زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم : أني لك هذا؟ قالت هو من عند الله ، فحصول ذلك الرزق عندها إما أن يكون خارقا للعادة ، أو لا يكون ، فان قلنا : إنه غير خارق للعادة فهو باطل من خمسة أوجه (الأول) أن على هذا التقدير لا يكون حصول ذلك الرزق عند مريم دليلا على علو شأنها وشرف درجتها وامتيازها عن سائر الناس بتلك الخاصية ومعلوم أن المراد من الآية هذا المعنى (والثاني) أنه تعالى قال بعد هذه الآية (هنالك دعا زكريا ربه قال رب لي من لدنك ذرية طيبة) والقرآن دل على أنه كان آيسا من الولد بسبب شيخوخته وشيخوخة زوجته ، فلما رأى انحراف العادة في حق مريم طمع في حصول الولد فيستقيم قوله (هنالك دعا زكريا ربه) أما لو كان الذي شاهده في حق مريم لم يكن خارقا للعادة لم تكن مشاهدة ذلك سبباً لطمعه في انحراف العادة بحصول الولد من المرأة الشيحة العاقر (الثالث) أن التنكر في قوله (وجد عندها رزقا) يدل

على تعظيم حال ذلك الرزق ، كأنه قيل : رزقا ، أي رزق غريب عجيب ، وذلك إنما يفيد الغرض اللاحق لسياق هذه الآية لو كان خارقاً للعادة (الرابع) هو أنه تعالى قال (وجعلناها وابنها آية للعالمين) ولو لا أنه ظهر عليهما من الخوارق ، وإلا لم يصح ذلك .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يقال : المراد من ذلك هو أن الله تعالى خلق لها ولداً من غير ذكر ؟

قلنا : ليس هذا بآية ، بل يحتاج تصحيحه إلى آية ، فكيف نحمل الآية على ذلك ، بل المراد من الآية ما يدل على صدقها وظهورها ، وذلك لا يكون إلا بظهور خوارق العادات على يدها كما ظهرت على يد ولدها عيسى عليه السلام (الخامس) ما تواترت الروايات به أن زكريا عليه السلام كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهه الصيف في الشتاء ، فثبتت أن الذي ظهر في حق مريم عليها السلام كان فعلاً خارقاً للعادة ، فنقول : إما أن يقال : إنه كان معجزة لبعض الأنبياء أو ما كان كذلك ، والأول باطل لأن النبي الموجود في ذلك الزمان هو زكريا عليه السلام ، ولو كان ذلك معجزة له لكان هو عالماً بحاله و شأنه ، فكان يجب أن لا يشتبه أمره عليه وأن لا يقول لمريم (أني لك هذا) وأيضاً قوله تعالى (هنالك دعا زكريا ربها) مشعر بأنه لما سألهما عن أمر تلك الأشياء ثم أنها ذكرت له أن ذلك من عند الله فهنالك طمع في انحراف العادة في حصول الولد من المرأة العقيمة الشیخة العاقر وذلك يدل على أنه ما وقف على تلك الأحوال إلا بأخبار مريم ، ومتى كان الأمر كذلك ثبت أن تلك الخوارق ما كانت معجزة لزكريا عليه السلام فلم يبق إلا أن يقال : إنها كانت كرامة لعيسى عليه السلام ، أو كانت كرامة لمريم عليها السلام ، وعلى التقديرين فالمقصود حاصل ، فهذا هو وجه الاستدلال بهذه الآية على وقوع كرامات الأولياء .

اعتراض أبو علي الجبائي وقال : لم لا يجوز أن يقال إن تلك الخوارق كانت من معجزات زكريا عليه السلام ، وبيانه من وجهين (الأول) أن زكريا عليه السلام دعا لها على الإجمال أن يوصل الله إليها رزقاً ، وأنه ربما كان غافلاً عن تفاصيل ما يأتيها من الأرزاق من عند الله تعالى ، فاذا رأى شيئاً بيته في وقت معين قال لها (أني لك هذا قالت هو من عند الله) فعند ذلك يعلم أن الله تعالى أظهر بدعائه تلك المعجزة (والثاني) يحتمل أن يكون زكريا يشاهد عند مريم رزقاً معتاداً إلا أنه كان يأتيها من السماء ، وكان زكريا يسألها عن ذلك حذرأً من أن يكون يأتيها من عند إنسان يبعثه إليها ، فقالت هو من عند الله لا من عند غيره .

﴿ المقام الثاني ﴾ أنا لا نسلم أنه كان قد ظهر على مريم شيء من خوارق العادات ، بل

معنى الآية أن الله تعالى كان قد سبب لها رزقا على أيدي المؤمنين الذين كانوا يرغبون في الإنفاق على الزاهدات العبادات ، فكان زكريا عليه السلام إذا رأى شيئاً من ذلك خاف أنه ربما أتتها ذلك الرزق من وجه لا ينبغي ، فكان يسألها عن كيفية الحال ، هذا مجموع ما قاله الجبائي في تفسيره وهو في غاية الضعف ، لأنه لو كان ذلك معجزاً لذكر يا عليه السلام كان مأذوناً له من عند الله تعالى في طلب ذلك ، ومتى كان مأذوناً في ذلك الطلب كان عالماً قطعاً بأنه يحصل ، وإذا علم ذلك امتنع أن يطلب منها كيفية الحال ، ولم يبق أيضاً لقوله (هنالك دعا زكريا ربها) فائدة ، وهذا هو الجواب بعينه عن الوجه الثاني .

وأما سؤاله الثالث ففي غاية الركاكة لأن هذا التقدير لا يبقى فيه وجه اختصاص مريم بمثل هذه الواقعة ، وأيضاً فإن كان في قلبه احتمال أنه ربما أتتها هذا الرزق من الوجه الذي لا ينبغي فبمجرد إخبارها كيف يعقل زوال تلك التهمة فعلمنا سقوط هذه الأسئلة وبالله التوفيق .

أما المعتزلة فقد احتجوا على امتناع الكرامات بأنها دلالات صدق الأنبياء ، ودليل النبوة لا يوجد مع غير الأنبياء ، كما أن الفعل المحكم لما كان دليلاً على العلم لا جرم لا يوجد في حق غير العالم .

والجواب من وجوه (الأول) وهو أن ظهور الفعل الخارق للعادة دليل على صدق المدعى ، فإن ادعى صاحبه النبوة فذاك الفعل الخارق للعادة يدل على كونهنبياً ، وإن ادعى الولاية فذلك يدل على كونه ولينا (والثاني) قال بعضهم : الأنبياء مأموروون باظهارها ، والأولياء مأموروون باخفايتها (والثالث) وهو أن النبي يدعى المعجز ويقطع به ، والسوى لا يمكنه أن يقطع به (والرابع) أن المعجزة يجب أنفكاكها عن المعارضة ، والكرامة لا يجب انفكاكها عن المعارضة ، فهذا جملة الكلام في هذا الباب وبالله التوفيق .

ثم قال تعالى حكاية عن مريم عليها السلام (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) فهذا يتحمل أن يكون من جملة كلام مريم ، وأن يكون من كلام الله سبحانه وتعالى ، قوله (بغير حساب) أي بغير تقدير لكثرته ، أو من غير مسألة سألاها على سبيل يناسب حصوها ، وهذا قوله (ويرزقه من حيث لا يحتسب) وهنها آخر الكلام في قصة حنة .

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّيْتَ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ



القصة الثانية

واقعة زكرييا عليه السلام

قوله تعالى ﴿ هنالك دعا زكرييا ربه قال رب هب لي من لدنك ذريمة طيبة إنك سميح الدعاء ﴾

وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أعلم أن قولنا : ثم ، وهناك ، وهنالك ، يستعمل في المكان ، ولفظة : عند ، وحين يستعملان في الزمان ، قال تعالى (فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين) وهو إشارة إلى المكان الذي كانوا فيه ، وقال تعالى : (إذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرني دعوا هنالك ثبورا) أي في ذلك المكان الضيق ، ثم قد يستعمل لفظة (هنالك) في الزمان أيضا ، قال تعالى (هنالك الولاية لله الحق) فهذا إشارة إلى الحال والزمان .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله (هنالك دعا زكرييا ربه) إن حملناه على المكان فهو جائز ، أي في ذلك المكان الذي كان قاعداً فيه عند مريم عليه السلام ، وشاهد تلك الكرامات دعا ربه ، وإن حملناه على الزمان فهو أيضاً جائز ، يعني في ذلك الوقت دعا ربه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أعلم أن قوله (هنالك دعا) يقتضي أنه دعا بهذا الدعاء عند أمر عرفه في ذلك الوقت له تعلق بهذا الدعاء ، وقد أختلفوا فيه ، والجمهور الأعظم من العلماء المحققين والمفسرين قالوا : هو أن زكرييا عليه السلام رأى عند مريم من فاكهة الصيف في الشتاء ، ومن فاكهة الشتاء في الصيف ، فلما رأى خوارق العادات عندها ، طمع في أن يحرقها الله تعالى في حقه أيضاً فيرزقه الولد من زوجة الشيخة العاقر .

﴿ والقول الثاني ﴾ وهو قول المعتزلة الذين ينكرون كرامات الأولياء ، وإرهادات الأنبياء قالوا : إن زكرييا عليه السلام لما رأى أثار الصلاح والعفاف والتقوى مجتمعة في حق مريم عليها السلام اشتهر الولد وقناه فدعا عند ذلك ، وأعلم أن القول الأول أولى ، وذلك لأن حصول الزهد والعفاف والسيرة المرضية لا يدل على انحراف العادات ، فرؤيه ذلك لا يحمل

الإنسان على طلب ما يخرق العادة ، وأما رؤية ما يخرق العادة قد يطعمه في أن يطلب أيضاً فعلاً خارقاً للعادة ومعلوم أن حدوث الولد من الشيخ الهرم ، والزوجة العاقر من خوارق العادات ، فكان حمل الكلام على هذا الوجه أولى .

فأن قيل : إن قلتم إن زكريا عليه السلام ما كان يعلم قدرة الله تعالى على خرق العادات إلا عند ما شاهد تلك الكرامات عند مريم عليها السلام كان في هذا نسبة الشك في قدرة الله تعالى إلى زكريا عليه السلام .

فإن قلنا : إنه كان عالماً بقدرة الله على ذلك لم تكن مشاهدة تلك الأشياء سبباً لزيادة علمه بقدرة الله تعالى ، فلم يكن لمشاهدته تلك الكرامات أثر في ذلك ، فلا يقى لقوله هنالك أثر .

(والجواب) أنه كان قبل ذلك عالماً بالجواز ، فأما أنه هل يقع أم لا فلم يكن عالماً به ، فلما شاهد علم أنه إذا وقع كرامة لولي ، فبأن يجوز وقوع معجزة لنبي كان أولى ، فلا جرم قوي طمعه عند مشاهدته تلك الكرامات .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إن دعاء الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام لا يكون إلا بعد الإذن ، لاحتمال أن لا تكون الإجابة مصلحة ، فحينئذ تصير مردودة ، وذلك نقصاناً في منصب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، هكذا قاله المتكلمون ، وعندي فيه بحث ، وذلك لأنه تعالى لما أذن في الدعاء مطلقاً ، وبين أنه تارة يجيب وأخرى لا يجيب ، فللرسول أن يدعو كلما شاء وأراد ما لا يكون معصية ، ثم أنه تعالى تارة يجيب وأخرى لا يجيب ، وذلك لا يكون نقصاناً بمنصب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لأتهم على باب رحمة الله تعالى سائلون فان أجابهم بفضله وإحسانه وإن لم يجدهم فمن المخلوق حتى يكون له منصب على باب الخالق .

أما قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام (هب لي من لدنك ذرية طيبة) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أما الكلام في لفظة (لدن) فسيأتي في سورة الكهف والفائدة في ذكره هنا أن حصول الولد في العرف والعادة له أسباب مخصوصة فلما طلب الولد فقدان تلك الأسباب كان المعنى : أريد منك إلهي أن تعزل الأسباب في هذه الواقعة وأن تحدث هذا الولد بمحض قدرتك من غير توسط شيء من هذه الأسباب .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لذرية النسل ، وهو لفظ يقع على الواحد ، والجمع ، والذكر

فَنَادَهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحِيٍّ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةِ
مِنَ اللَّهِ وَسِيدًا وَحَصُورًا وَنِيَّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَمٌ وَقَدْ
بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَأَمْرَأِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٠﴾

والأنثى ، والمراد منه هنا : ولد واحد ، وهو مثل قوله (فهو لي من لدنك ولها) قال الفراء : وأنث (طيبة) لتأنيث الذرية في الظاهر ، فالتأنيث والتذكير تارة يحيى على اللفظ وتارة على المعنى ، وهذا إنما نقوله في أسماء الأجناس ، أما في أسماء الأعلام فلا ، لأنه لا يجوز أن يقال جاءت طلحة ، لأن أسماء الأعلام لا تفيد إلا ذلك الشخص ، فإذا كان ذلك الشخص مذكرا لم يجز فيها إلا التذكير .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله تعالى (إنك سميع الدعاء) ليس المراد منه أن يسمع صوت الدعاء فذلك معلوم ، بل المراد منه أن يجيب دعاءه ولا يخيب رجاءه ، وهو قول المصلين : سمع الله لمن حمده ، يربلون قبل حمد من المؤمنين ، وهذا متأكد بما قال تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام في سورة مريم (ولم أكن بداعائك رب شقيا) .

قوله تعالى ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ، قال رب أنني يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وأمرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائي : فناداه الملائكة ، على التذكير والإملاء ، والباقيون على التأنيث على اللفظ ، وقيل : من ذكر فلان الفعل قبل الأسم ، ومن أنت فلان الفعل للملائكة ، وقرأ ابن عامر (المحراب) بالإملاء ، والباقيون بالتفخيم ، وفي قراءة ابن مسعود : فناداه جبريل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ظاهر اللفظ يدل على أن النداء كان من الملائكة ، ولا شك أن هذه في التشريف أعظم ، فإن دل دليل منفصل أن المنادي كان جبريل عليه السلام فقط صرنا إليه . وحملنا هذا اللفظ على التأويل ، فإنه يقال : فلان يأكل الأطعمة الطيبة ، ويلبس الثياب النفيسة ، أي يأكل من هذا الجنس ، ويلبس من هذا الجنس ، مع أن المعلوم أنه لم يأكل

جميع الأطعمة ، ولم يلبس جميع الأثواب ، فكذا هنا ، ومثله في القرآن (الذين قال لهم الناس) وهم تعيم بن مسعود إن الناس : يعني أبا سفيان ، قال المفضل بن سلمة : إذا كان القائل رئيساً جاز الإخبار عنه بالجمع لاجتماع أصحابه معه ، فلما كان جبريل رئيس الملائكة ، وقلما يبعث إلا ومعه جمع صح ذلك .

أما قوله (وهو قائم يصلي في المحراب) فهو يدل على أن الصلاة كانت مشروعة في دينهم ، والمحراب قد ذكرنا معناه .

أما قوله (أن الله يبشرك بيحيى) فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أما البشارة فقد فسرناها في قوله تعالى (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وفي قوله (يبشرك بيحيى) وجهان (الأول) أنه تعالى كان قد عرف زكرييا أنه سيكون في الأنبياء رجل اسمه يحيى وله ذرية عالية ، فإذا قيل : إن ذلك النبي المسمى بيحيى هو ولدك كان ذلك بشارة له بيحيى عليه السلام (والثاني) أن الله يبشرك بولد اسمه يحيى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ ابن عامر حمزة (إن) بكسر الهمزة ، والباقيون بفتحها ، أما الكسر فعل إرادة القول ، أو لأن النداء نوع من القول ، وأما الفتح فتقديره : فنادته الملائكة بأن الله يبشرك .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قرأ حمزة والكسائي (يبشرك) بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين ، وقرأ الباقيون (يبشرك) وقرئء أيضاً (يبشرك) قال أبو زيد يقال : بشر يبشر بشرا ، وبشر يبشر تبشيرا ، وأبشر يبشر ثلاث لغات .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ حمزة والكسائي (يحيى) بالإملاء لأجل الياء والباقيون بالتفخيم ، وأما أنه لم سمى يحيى فقد ذكرناه في سورة مريم ، واعلم أنه تعالى ذكر من صفات يحيى ثلاثة أنواع :

﴿ الصفة الأولى ﴾ قوله (مصدقا بكلمة من الله) وفيه مسائلتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال الواحدي قوله (مصدقا بكلمة من الله) نصب على الحال لأنه نكرة ، ويحيى معرفة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في المراد بكلمة (من الله) قولان (الأول) وهو قول أبي عبيدة : أنها كتاب من الله ، واستشهد بقولهم : أنسد فلان كلمة ، والمراد به القصيدة الطويلة .

﴿ والقول الثاني ﴾ وهو اختيار الجمهور : أن المراد من قوله (بكلمة من الله) هو عيسى عليه السلام ، قال السدى : لقيت أم عيسى أم يحيى عليهما السلام ، وهذه حامل بيحى وتلك بعيسى ، فقالت : يا مريم أشعرت أني حبلى ؟ فقالت مريم : وأنا أيضاً حبلى ، قالت أمراً ذكري يا فاني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك فذلك قوله (مصدقاً بكلمة من الله) وقال ابن عباس : إن يحيى كان أكبر سنًا من عيسى بستة أشهر ، وكان يحيى أول من وصدق بأنه كلمة الله وروحه ، ثم قتل يحيى قبل رفع عيسى عليهما السلام ، فان قيل : لم سمي عيسى كلمة في هذه الآية ، وفي قوله (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته) قلنا : فيه وجوه (الأول) أنه خلق بكلمة الله ، وهو قوله (كن) من غير واسطة الأب ، فلما كان تكوينه بمحض قول الله (كن) وبمحض تكوينه وتخليقه من غير واسطة الأب والبذر ، لا جرم سمي : الكلمة ، كما يسمى المخلوق خلقاً ، والمقدور قدرة ، والمرجو رجاء ، والمشتهى شهوة ، وهذا باب مشهور في اللغة (والثاني) أنه تكلم في الطفولية ، وآتاه الله الكتاب في زمان الطفولية ، فكان في كونه متكلماً بالغاً مبلغاً عظيماً ، فسمى الكلمة بهذا التأويل وهو مثل ما يقال : فلان جود وإقبال إذا كان كاملاً فيها (والثالث) أن الكلمة كما أنها تفيد المعاني والحقائق ، كذلك عيسى كان يرشد إلى الحقائق والأسرار الإلهية ، فسمى : الكلمة ، بهذا التأويل ، وهو مثل تسميته روحًا من حيث إن الله تعالى أحيا به من الضلالة كما يحيى الإنسان بالروح ، وقد سمي الله القرآن روحًا . فقال (وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا) (والرابع) أنه قد وردت البشارة به في كتب الأنبياء الذين كانوا قبله ، فلما جاء قيل : هذا هو تلك الكلمة ، فسمى الكلمة بهذا التأويل قالوا : وجده المجاز فيه أن من أخبر عن حدوث أمر فإذا حدث ذلك الأمر قال : قد جاء قولي وجاء كلامي ، أي ما كنت أقول وأتكلم به ، ونظيره قوله تعالى (وكذلك حقت الكلمة ربكم على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) وقال (ولكن حقت الكلمة العذاب على الكافرين) (الخامس) أن الإنسان قد يسمى بفضل الله ولطف الله ، فكذا عيسى عليه السلام كان اسمه العلم : الكلمة الله ، وروح الله ، واعلم أن الكلمة الله هي كلامه ، وكلامه على قول أهل السنة صفة قدية قائمة بذاته ، وعلى قول المعتزلة أصوات يخلقها الله تعالى في جسم مخصوص دالة بالوضع على معانٍ مخصوصة ، والعلم الضروري حاصل بأن الصفة القدية أو الأصوات التي هي أعراض غير باقية يستحيل أن يقال : أنها هي ذات عيسى عليه السلام ، ولما كان ذلك باطلاً في بداهة العقول لم يبق إلا التأويل .

﴿ الصفة الثانية ﴾ ليحيى عليه السلام قوله (وسيداً) والمفسرون ذكروا فيه وجوهها (الأول) قال ابن عباس : السيد الحليم ، وقال الجبائي : إنه كان سيداً للمؤمنين ، رئيساً لهم

في الدين ، أعني في العلم والحلم والعبادة والورع ، وقال مجاهد : الكرييم على الله ، وقال ابن المسبب الفقيه العالم ، وقال عكرمة الذي لا يغلبه الغضب ، قال القاضي : السيد هو المتقدم المرجوع إليه ، فلما كان سيداً في الدين كان مرجوعاً إليه في الدين وقدوة في الدين ، فيدخل فيه جميع الصفات المذكورة من العلم والحلم والكرم والعفة والزهد والورع .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ قوله (وحصورة) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في تفسير الحصور والحصر في اللغة الحبس ، يقال حصر حصره يحصره حسراً وحصر الرجل : أي اعتقل بطنه . والحصر الذر يكتم السر ويحبسه ، والحصر الضيق البخيل ، وأما المفسرون : فلهم قولان (أحدهما) أنه كان عاجزاً عن إتيان النساء ، ثم منهم من قال كان ذلك لصغر الآلة ، ومنهم من قال : كان ذلك لتعذر الإنزال ، ومنهم من قال : كان ذلك لعدم القدرة ، فعلى هذا الحصور فعل مفعول ، كأنه قال محصور عنهن ، أي محبوس ، ومثله ركوب بمعنى مركوب وحلوب بمعنى مخلوب ، وهذا القول عندنا فاسد لأن هذا من صفات النقصان وذكر صفة النقصان في معرض المدح لا يجوز ، ولأن على هذا التقدير لا يستحق به ثواباً ولا تعظيمها .

﴿ والقول الثاني ﴾ وهو اختيار المحققين أنه الذي لا يأتي النساء لا للعجز بل للعفة والزهد ، وذلك لأن الحصور هو الذي يكثر منه حصر النفس ومنعها كالأكول الذي يكثر منه الأكل وكذا الشروب ، والظلم ، والغشوم ، والمنع إنما يحصل أن لو كان المقتضى قائماً ، فلو لا أن القدرة والداعية كانتا موجودتين ، وإلا لما كان حاصراً لنفسه فضلاً عن أن يكون حصوراً ، لأن الحاجة إلى تكثير الحصر والدفع إنما تحصل عند قوة الرغبة والداعية والقدرة ، وعلى هذا الحصور بمعنى الحاصر فعل مفعول بمعنى فاعل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن ترك النكاح أفضل وذلك لأنه تعالى مدحه بترك النكاح ، وذلك يدل على أن ترك النكاح أفضل في تلك الشريعة ، وإذا ثبت أن الترك في تلك الشريعة أفضل ، وجب أن يكون الأمر كذلك في هذه الشريعة بالنص والمعقول ، أما النص فقوله تعالى (أولئك الذين هدى الله بهداهم اقتده) وأما المعقول فهو أن الأصل في الثابت بقاوه على ما كان والنسخ على خلاف الأصل .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ قوله (ونبياً) واعلم أن السيادة إشارة إلى أمررين (أحدهما) قدرته على ضبط مصالح الخلق فيها يرجع إلى تعليم الدين (والثاني) ضبط مصالحهم فيها يرجع إلى التأديب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأما الحصور فهو إشارة إلى الزهد التام فلما

اجتمعا حصلت النبوة بعد ذلك ، لأنه ليس بعدهما إلا النبوة .

﴿ الصفة الخامسة ﴾ قوله (من الصالحين) وفيه ثلاثة أوجه (الأول) معناه أنه من أولاد الصالحين (والثاني) أنه خير كما يقال في الرجل الخير (إنه من الصالحين) (والثالث) أن صلاحه كان أتم من صلاح سائر الأنبياء ، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام « ما من نبي إلا وقد عصى ، أو هم بمعصية غير يحيى فانه لم يعص ولم يهم » .

فإن قيل : لما كان منصب النبوة أعلى من منصب الصلاح فلما وصفه بالنبوة فما الفائدة في وصفه بعد ذلك بالصلاح ؟

قلنا : أليس أن سليمان عليه السلام بعد حصول النبوة قال (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) وتحقيق القول فيه : أن للأنبياء قدرًا من الصلاح لو انتقص لأنفت النبوة ، فذلك القدر بالنسبة إليهم يجري حفظ الواجبات بالنسبة إلينا ، ثم بعد اشتراكهم في ذلك القدر تتفاوت درجاتهم في الزيادة على ذلك القدر ، وكل من كان أكثر نصيباً منه كان أعلى قدرًا والله أعلم .

قوله تعالى (قال رب إنى يكون لي غلام) في الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ قوله (رب) خطاب مع الله أو مع الملائكة ، لأنه جائز أن يكون خطاباً مع الله ، لأن الآية المتقدمة دلت على أن الذين نادوه هم الملائكة ، وهذا الكلام لا بد أن يكون خطاباً مع ذلك المنادي لا مع غيره ، ولا جائز أن يكون خطاباً مع الملك ، لأنه لا يجوز للإنسان أن يقول للملك : يا رب .

(الجواب) للمفسرين فيه قولان (الأول) أن الملائكة لمنادوه بذلك وبشروه به تعجب زكريا عليه السلام ورجع في إزالة ذلك التعجب إلى الله تعالى (والثاني) أنه خطاب مع الملائكة والرب إشارة إلى المربى ، ويجوز وصف المخلوق به ، فإنه يقال : فلان يربيني ويسعدني إلى .

﴿ السؤال الثاني ﴾ لما كان زكريا عليه السلام هو الذي سأله الولد ، ثم أجابه الله تعالى إليه فلم تعجب منه ولم استبعده ؟ .

(الجواب) لم يكن هذا الكلام لأجل أنه كان شاكاً في قدرة الله تعالى على ذلك والدليل عليه وجهان (الأول) أن كل أحد يعلم أن خلق الولد من نطفة إنما كان على سبيل العادة لأنه لو كان لا نطفة إلا من خلق ، ولا خلق إلا من نطفة ، لزم التسلسل ولزم حدوث الحوادث في

الأزل وهو محال ، فعلمنا أنه لا بد من الانتهاء إلى مخلوق خلقه الله تعالى لا من نطفة أو من نطفة خلقها الله تعالى لا من إنسان ..

﴿ والوجه الثاني ﴾ أن ذكر يا عليه السلام طلب ذلك من الله تعالى ، فلو كان ذلك محالاً ممتنعاً لما طلبه من الله تعالى ، فثبت بهذين الوجهين أن قوله (أني يكون لي غلام) ليس للاستبعاد ، بل ذكر العلماء فيه وجوهاً . (الأول) أن قوله (أني) معناه : من أين . ويجتَّحَّ أن يكون معناه : كيف تعطي ولداً على القسم الأول أم على القسم الثاني ، وذلك لأن حدوث الولد يتحمل وجهين (أحددهما) أن يعيده الله شبابه ثم يعطيه الولد مع شيخوخته ، فقوله (أني يكون لي غلام) معناه : كيف تعطي الولد على القسم الأول أم على القسم الثاني؟ فقيل له كذلك . أي على هذا الحال والله يفعل ما يشاء ، وهذا القول ذكره الحسن والأصم (والثاني) أن من كان آيساً من الشيء مستبعداً لحصوله ووقعه إذا اتفق أن حصل له ذلك المقصود فربما صار كالمدهوش من شدة الفرح فيقول : كيف حصل هذا ، ومن أين وقع هذا كمن يرى إنساناً وله أموالاً عظيمة ، يقول كيف وهبت هذه الأموال ، ومن أين سمحت نفسك بهبتها؟ فكذا هنا لما كان ذكر يا عليه السلام مستبعداً لذلك ، ثم اتفق إجابة الله تعالى إليه ، صار من عظم فرجه وسروره قال ذلك الكلام (الثالث) أن الملائكة لما بشروه بيحسي لم يعلم أنه يرزق الولد من جهة أنسى أو من صلبه ، فذكر هذا الكلام لذلك الاحتمال (الرابع) أن العبد إذا كان في غاية الاشتياق إلى شيء فطلبة من السيد ، ثم إن السيد يعده بأنه سيعطيه بعد ذلك ، فاللذن السائل بسماع ذلك الكلام ، فربما أعاد السؤال ليعيد ذلك الجواب فحيثئذ يلتذ بسماع تلك الإجابة مرة أخرى ، فالسبب في إعادة ذكر يا هذا الكلام يتحمل أن يكون من هذا الباب (الخامس) نقل سفيان بن عيينة أنه قال : كان دعاؤه قبل البشرارة بستين سنة حتى كان قد نسي ذلك السؤال وقت البشرارة فلما سمع البشرارة زمان الشيخوخة لا جرم استبعد ذلك على مجرى العادة لا شكـا في قدرة الله تعالى فقال ما قال (السادس) نقل عن السيد أن ذكر يا عليه السلام جاءه الشيطان عند سماع البشرارة فقال إن هذا الصوت من الشيطان ، وقد سخر منه فاشتبه الأمر على ذكر يا عليه السلام فقال (رب أني يكون لي غلام) وكان مقصوده من هذا الكلام أن يريه الله تعالى آية تدل على أن ذلك الكلام من الوحي والملائكة لا من إلقاء الشيطان قال القاضي : لا يجوز أن يشتبه كلام الملائكة بكلام الشيطان عند الوحي على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذ لو جوزنا ذلك لارتفاع الوثوق عن كل الشرائع ويمكن أن يقال : لما قامت المعجزات على صدق الوحي في كل ما يتعلق بالدين لا جرم حصل الوثوق هناك بأن الوحي من الله تعالى بواسطـة الملائكة ولا مدخل للشـيطان فيه ، أما ما يتعلق بمصالح الدنيا وبالولد فربما لم يتتأكد ذلك المعجز فلا جرم بقي احتمالـاً كون ذلك من الشـيطان فلا جرم رجع إلى

قال رب أَجْعَلْتِي آيَةً قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ بِالنَّاسِ ثَلَاثَةً أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَأَذْكُرْ
رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبْعَ يَوْمًا وَالْأَكْثَرُ ۝

الله تعالى في أن يزيل عن خاطره ذلك الاحتمال .

أما قوله تعالى (وقد بلغني الكبر) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الكبر مصدر كبر الرجل يكبر إذا أسن ، قال ابن عباس : كان يوم بشر بالولد ابن عشرين ومائة سنة وكانت امرأته بنت تسعين وثمانين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال أهل المعاني : كل شيء صادفته وببلغته فقد صادفك وبلغك ، وكلما جاز أن يقول : بلغت الكبر جاز أن يقول بلغني الكبر يدل عليه قول العرب : لقيت الحائط ، وتلقاني الحائط .

فإن قيل : يجوز بلغني البلد في موضع بلغت البلد ، قلنا : هذا لا يجوز ، والفرق بين الموضعين أن الكبر كالشيء الطالب للإنسان فهو يأتيه بحدوده فيه ، والإنسان أيضاً يأتيه بمرور السنين عليه ، أما البلد فليس كالطالب للإنسان الذاهب ، فظهر الفرق .

أما قوله (وامرأتي عاقر) .

اعلم أن العاقر من النساء التي لا تلد ، يقال : عقر يقر عقراً ، ويقال أيضاً عقر الرجل ، وعقر بالحركات الثلاث في القاف إذا لم يحمل له ، ورمل عاقر : لا ينبث شيئاً ، واعلم أن زكري يا عليه السلام ذكر كبر نفسه مع كون زوجته عاقراً تأكيد حال الاستبعاد .

أما قوله (قال كذلك الله يفعل ما يشاء) ففيه بحثان (الأول) أن قوله (قال) عائد إلى مذكور سابق ، وهو الرب المذكور في قوله (قال رب أني يكون لي غلام) وقد ذكرنا أن ذلك يحتمل أن يكون هو الله تعالى ، وأن يكون هو جبريل .

﴿ البحث الثاني ﴾ قال صاحب الكشاف (كذلك الله) مبتدأ وخبر أي على نحو هذه الصفة الله ، ويفعل ما يشاء بيان له ، أي يفعل ما يريد من الأفعال الخارقة للعادة .

قوله تعالى ﴿ قال رب أجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبع بالعشى والإبكار ﴾ .

واعلم أن زكريا عليه السلام لفطر سروره بما بشر به وثقة بكرم ربه ، وإنعامه عليه أحب أن يجعل له علامه تدل على حصول العلوق ، وذلك لأن العلوق لا يظهر في أول الأمر فقال (رب اجعل لي آية) فقال الله تعالى (آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكر هنا ثلاثة أيام ، وذكر في سورة مريم ثلاثة ليالي فدل مجموع الآيتين على أن تلك الآية كانت حاصلة في الأيام الثلاثة مع لياليها.

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكروا في تفسير هذه الآية وجوها (أحدها) أنه تعالى حبس لسانه ثلاثة أيام فلم يقدر أن يكلم الناس إلا رمزاً ، وفيه فائدتان (إحداهما) أن يكون ذلك آية على علوق الولد (والثانية) أنه تعالى حبس لسانه عن أمور الدنيا ، وأقدرها على الذكر والتسبيح والتهليل ، ليكون في تلك المدة مشتغلًا بذكر الله تعالى ، وبالطاعة والشكر على تلك النعمة الجسيمة وعلى هذا التقدير يصير الشيء الواحد علامة على المقصود ، وأداء لشكر تلك النعمة ، فيكون جامعاً لكل المقاصد .

ثم اعلم أن تلك الواقعة كانت مشتملة على المعجز من وجوه (أحدها) أن قدرته على التكلم بالتسبيح والذكر ، وعجزه عن التكلم بأمور الدنيا من أعظم المعجزات (وثانيها) أن حصول ذلك المعجز في تلك الأيام المقدورة مع سلامه البنية واعتداه المزاج من جملة المعجزات (وثالثها) أن إخباره بأنه متى حصلت هذه الحالة فقد حصل الولد ، ثم إن الأمر خرج على وفق هذا الخبر يكون أيضاً من المعجزات .

﴿ القول الثاني في تفسير هذه الآية ﴾ وهو قول أبي مسلم : أن المعنى أن زكريا عليه السلام لما طلب من الله تعالى آية تدلله على حصول العلوق ، قال آيتك أن لا تكلم ، أي تصير مأموراً بأن لا تتكلم ثلاثة أيام بلياليها مع الخلق ، أي تكون مشتغلة بالذكر والتسبيح والتهليل معرضةً عن الخلق والدنيا شاكراً الله تعالى على إعطاء مثل هذه الموهبة ، فان كانت لك حاجة دل عليها بالرمز فإذا أمرت بهذه الطاعة فاعلم أنه قد حصل المطلوب ، وهذا القول عندي حسن معقول ، وأبو مسلم حسن الكلام في التفسير كثير الغوص على الدقائق واللطائف.

﴿ القول الثالث ﴾ روى عن قتادة أنه عليه الصلاة والسلام عوقب بذلك من حيث سأله الآية بعد بشارة الملائكة فأخذ لسانه وصبر بحيث لا يقدر على الكلام .

أما قوله (إلا رمزاً) فيه مسائلان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أصل الرمز الحركة ، يقال : ارتمز إذا تحرك ، ومنه قيل للبحر : الراموز ، ثم اختلفوا في المراد بالرمز هنالك على أقوال (أحدها) أنه عبارة عن الإشارة كيف كانت باليد ، أو الرأس ، أو الحاجب ، أو العين ، أو الشفة (والثاني) أنه عبارة عن تحريك الشفتين باللّفظ من غير نطق وصوت قالوا : وحمل الرمز على هذا المعنى أولى ، لأن الإشارة بالشفتين يمكن وقوعها بحيث تكون حركات الشفتين وقت الرمز مطابقة لحركاتها عند النطق فيكون الاستدلال بتلك الحركات على المعاني الذهنية أسهل (والثالث) وهو أنه كان يمكنه أن يتكلم بالكلام الخفي ، وأما رفع الصوت بالكلام فكان ممنوعاً منه .
فإن قيل : الرمز ليس من جنس الكلام فكيف استثنى منه ؟ .

قلنا : لما أدى ما هو المقصود من الكلام سمي كلاماً ، ويجوز أيضاً أن يكون استثناء منقطعاً فاما إن حملنا الرمز على الكلام الخفي فان الإشكال زائل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ يحيى بن ثايث (إلا رمزاً) بضمتين جمع رموز ، كرسول ورسل ، وقرئ (رمزاً) بفتح الراء والميم جمع رامز ، كخادم وخدم ، وهو حال منه ومن الناس ، ومعنى (إلا رمزاً) إلا مترامزين ، كما يتكلم الناس مع الآخرين بالإشارة ويكلمهم .
ثم قال الله تعالى (واذكر ربك كثيراً) وفيه قوله (أحدهما) أنه تعالى حبس لسانه عن أمور الدنيا (إلا رمزاً) فأما في الذكر والتسبيح ، فقد كان لسانهجيداً ، وكان ذلك من العجزات الباهرة (والثاني) إن المراد منه الذكر بالقلب وذلك لأن المستغرين في بحار معرفة الله تعالى عادتهم في الأول أن يواظبو على الذكر اللساني مدة فإذا امتلاه القلب من نور ذكر الله سكت اللسان وبقي الذكر في القلب ، ولذلك قالوا : من عرف الله كل لسانه ، فكان زكريا عليه السلام أمر بالسکوت واستحضار معاني الذكر والمعرفة واستدامتها .

(وسبع بالعشي والأبكار) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (العشي) من حين تزول الشمس إلى أن تغيب ، قال الشاعر :

فلا الظل من برد الضحى تستطيعه ولا الفيء من برد العشي تذوق

والفيء ، إنما يكون من حين زوال الشمس إلى أن يتناهى غروبها ، وأما الإيكار فهو مصدر بكر يبكر إذا خرج للأمر في أول النهار ، ومثله بكر وابتكر وبكر ، ومنه الباكرة لأول الشمرة ، هذا هو أصل اللغة ، ثم سمي ما بين طلوع الفجر إلى الضحى : إيكاراً ، كما سمي إصباحاً ، وقرأ بعضهم (والأبكار) بفتح الهمزة ، جمع بكر كسر و أسحار ، ويقال :

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرِيمًا إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَنِكَ وَأَصْطَفَنِكَ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ
يَا مَرِيمًا اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكِعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٢٣﴾

أتته بكرًا بفتحين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في قوله (وسبع) قوله (أحدهما) المراد منه : وصل لأن الصلاة تسمى تسبيحاً قال الله تعالى (فسبحان الله حين تسون) وأيضاً الصلاة مشتملة على التسبيح ، فجاز تسمية الصلاة بالتسبيح ، وه هنا الدليل دل على وقوع هذا المحتمل وهو من وجهين (الأول) أنا لو حملناه على التسبيح والتهليل لم يبق بين هذه الآية وبين ما قبلها وهو قوله (واذكر ربك) فرق ، وحينئذ يبطل لأن عطف الشيء على نفسه غير جائز (والثاني) وهو أنه شديد الموقفة لقوله تعالى (أقم الصلاة طرفي النهار) (وثانيهما) أن قوله (واذكر ربك) محمول على الذكر باللسان .

القصة الثالثة

وصفه طهارة مريم صلوات الله عليها

قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرِيمًا إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَكَ وَطَهَرَكَ وَأَصْطَفَكَ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ، يَا مَرِيمًا اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكِعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ عامل الإعراب ه هنا في (إذ) هو ما ذكرناه في قوله (إذ قالت امرأة عمران) من قوله (سماع عليم) ثم عطف عليه (إذ قالت الملائكة) وقيل : تقديره واذكر إذ قالت الملائكة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالوا المراد بالملائكة هنا جبريل وحده ، وهذا كقوله (ينزل الملائكة بالروح من أمره) يعني جبريل ، وهذا وإن كان عدولًا عن الظاهر إلا أنه يجب المصير إليه ، لأن سورة مريم دلت على أن المتكلم مع مريم عليها السلام هو جبريل عليه السلام ، وهو قوله

(فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أن مريم عليها السلام ما كانت من الأنبياء لقوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى) وإذا كان كذلك كان إرسال جبريل عليه السلام إليها إما أن يكون كرامة لها . وهو مذهب من يجوز كرامات الأولياء ، أو إرهاصاً لعيسى عليه السلام ، وذلك جائز عندنا ، وعند الكعبى من المعتزلة ، أو معجزة لذكر ياء عليه السلام ، وهو قول جمهور المعتزلة ، ومن الناس من قال : إن ذلك كان على سبيل النفي في الروع والإهام والإلقاء في القلب ، كما كان في حق أم موسى عليه السلام في قوله (وأوجينا إلى أم موسى) .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اعلم أن المذكور في هذه الآية أولاً هو الاصطفاء ، وثانياً التطهير ، وثالثاً الاصطفاء على نساء العالمين ، ولا يجوز أن يكون الاصطفاء أولاً من الاصطفاء الثاني ، لما أن التصریح بالترکیر غير لائق ، فلا بد من صرف الاصطفاء الأول إلى ما اتفق لها من الأمور الحسنة في أول عمرها ، والاصطفاء الثاني إلى ما اتفق لها في آخر عمرها .

﴿ النوع الأول من الاصطفاء ﴾ فهو أمور (أحدها) أنه تعالى قبل تحريرها مع أنها كانت أنشى ولم يحصل مثل هذا المعنى لغيرها من الإناث (وثانيها) قال الحسن : إن أمها لما وضعتها ما غذتها طرفة عين ، بل أقتتها إلى زكريا ، وكان رزقها يأتيها من الجنة (وثالثها) أنه تعالى فرغها لعبادته ، وخصها في هذا المعنى بأنواع اللطف والهدایة والعصمة (ورابعها) أنه كفأها أمر معيشتها ، فكان يأتيها رزقها من عند الله تعالى على ما قال الله تعالى (أني لك هذا قالت هو من عند الله) (وخامسها) أنه تعالى أسمعها كلام الملائكة شفافها ، ولم يتفق ذلك لأنشى غيرها ، فهذا هو المراد من الاصطفاء الأول ، وأما التطهير فيه وجوه (أحدها) أنه تعالى طهرها عن الكفر والمعصية ، فهو كقوله تعالى في أزواج النبي ﷺ (ويطهركم تطهيراً) (وثانيها) أنه تعالى طهرها عن مسيس الرجال (وثالثها) طهرها عن الحيض ، قالوا : كانت مريم لا تخیض (ورابعها) وطهرك من الأفعال الذميمة ، والعادات القبيحة (وخامسها) وطهرك عن مقالة اليهود وتهمتهم وكذبهم .

﴿ وأما الاصطفاء الثاني ﴾ فالمراد أنه تعالى وهب لها عيسى عليه السلام من غير أب ، وأنطق عيسى حال انفصاله منها حتى شهد بما يدل على براءتها عن التهمة ، وجعلها وابنها آية للعالمين ، فهذا هو المراد من هذه الألفاظ الثلاثة .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ روى أنه عليه الصلاة والسلام قال « حسبك من نساء العالمين

أربع : مريم وأسيمة امرأة فرعون ، وخدجية ، وفاطمة عليهن السلام » فقيل هذا الحديث دل على أن هؤلاء الأربع أفضل من النساء ، وهذه الآية دلت على أن مريم عليها السلام أفضل من الكل ، وقول من قال المراد إنها مصطفاة على عالمي زمانها . فهذا ترك الظاهر.

ثم قال تعالى (يا مريم اقتي لربك واسجدي) وقد تقدم تفسير القنوت في سورة البقرة في قوله تعالى (وَقَوْمًا لِّهُ قَاتِلِينَ) وبالجملة فلما بين تعالى أنها مخصوصة بمزيد الموهب والعطايا من الله أوجب عليها مزيد الطاعات ، شكرًا لتلك النعم السننية ، وفي الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم قدم ذكر السجدة على ذكر الركوع؟

والجواب من وجوه (الأول) أن الواو تفيد الاشتراك ولا تفيد الترتيب (الثاني) أن غاية قرب العبد من الله أن يكون ساجدًا قال عليه الصلاة والسلام « أقرب ما يكون العبد من ربه إذا سجد » فلما كان السجود مختصاً بهذا النوع من الرتبة والفضيلة لا جرم قدمه على سائر الطاعات .

ثم قال (واركعي مع الراکعين) وهو إشارة إلى الأمر بالصلاحة ، فكانه تعالى يأمرها بالمواظبة على السجود في أكثر الأوقات ، وأما الصلاة فأنها تأتي بها في أوقاتها المعينة لها (والثالث) قال ابن الأنباري : قوله تعالى (اقتي) أمر بالعبادة على العموم ، ثم قال بعد ذلك (اسجدي واركعي) يعني استعمل السجود في وقته اللائق به ، واستعمل الركوع في وقته اللائق به ، وليس المراد أن يجمع بينهما ، ثم يقدم السجود على الركوع والله أعلم (الرابع) أن الصلاة تسمى سجوداً كما قيل في قوله (وأدب الرسوجود) وفي الحديث « إذا دخل أحدكم المسجد فليس بمسجد سجدين » وأيضاً المسجد سمي باسم مشتق من السجود والمراد منه موضع الصلاة ، وأيضاً أشرف أجزاء الصلاة السجود وتسمية الشيء باسم أشرف أجزاءه نوع مشهور في المجاز .

إذا ثبت هذا فنقول قوله (يا مريم اقتني) معناه: يا مريم قومي ، وقوله (واسجدي) أي صلى فكان المراد من هذا السجود الصلاة ، ثم قال (واركعي مع الراکعين) إما أن يكون أمراً لها بالصلاحة بالجماعة فيكون قوله (واسجدي) أمراً بالصلاحة حال الانفراد ، وقوله (واركعي مع الراکعين) أمراً بالصلاحة في الجماعة ، أو يكون المراد من الركوع التواضع ويكون قوله (واسجدي) أمراً ظاهراً بالصلاحة ، وقوله (واركعي مع الراکعين) أمراً بالخصوص والخشوع بالقلب .

﴿ الوجه الخامس في الجواب ﴾ لعله كان السجود في ذلك الدين متقدماً على الركوع .

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءَ الْغَيْبِ نُوحِيهُ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقَوْنَ أَقْلَامَهُمْ أَيْهُمْ يَكْفُلُ
مَرِيمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِّمُونَ ﴿٤٩﴾

﴿ السؤال الثاني ﴾ ما المراد من قوله (واركعي مع الراکعی) .

(والجواب) قيل معناه : افعلي كفعلهم ، وقيل المراد به الصلاة في الجماعة كانت مأمورة بأن تصلى في بيت المقدس مع المجاورين فيه ، وإن كانت لا تختلط بهم .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم لم يقل واركعي مع الراکعات؟ .

والجواب لأن الاقتداء بالرجال حال الاختفاء من الرجال أفضل ، من الاقتداء بالنساء .

واعلم أن المفسرين قالوا : لما ذكرت الملائكة هذه الكلمات مع مريم عليها السلام شفاهها ، قامت مريم في الصلاة حتى ورمت قدماها : وسال الدم والقبح من قدميها .

قوله تعالى ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (ذلك) إشارة إلى ما تقدم ، والمعنى أن الذي مضى ذكره من حديث حنة وزكريا ويعيى وعيسى بن مريم ، إنما هو من إخبار الغيب فلا يمكنك أن تعلم إلا باللوحي .

فإن قيل : لم نفيت هذه المشاهدة ، وانتفاؤها معلوم بغير شبهة ، وترك نفي استماع هذه الأشياء من حفاظها وهو موهوم؟ .

قلنا : كان معلوماً عندهم علمياً يقينياً أنه ليس من أهل السمع والقراءة ، وكانوا منكرين للوحي ، فلم يبق إلا المشاهدة ، وهي وإن كانت في غاية الاستبعاد إلا أنها نفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحي مع علمهم بأنه لا سمع ولا قراءة ، ونظيره (وما كنت بجانب الغربي ، وما كنت بجانب الطور ، وما كنت لديهم إذا أجمعوا أمرهم ، وما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الأنباء : الأخبار عنها غاب عنك ، وأما الإيحاء فقد ورد الكتاب به على معانٍ مختلفة ، يجمعها تعريف الموحى إليه بأمر خفي من إشارة أو كتابة أو غيرها ، وبهذا التفسير يعد الإلهام وحياً كقوله تعالى (وأوحى ربك إلى النحل) وقال في الشياطين يوحون إلى أوليائهم ، وقال (فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا) فلما كان الله سبحانه له القوى هذه الأشياء إلى الرسول ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام بحيث يخفي ذلك على غيره سمه وحيًا .

أما قوله تعالى (إذ يلقون أقلامهم أيهما يكفل مريم) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا في تلك الأقلام وجوهاً (الأول) المراد بالأقلام التي كانوا يكتبون بها التوراة وسائر كتب الله تعالى ، وكان القراء على أن كل من جرى قلمه على عكس جرى الماء فالحق معه ، فلما فعلوا ذلك صار قلم زكريا كذلك فسلموا الأمر له وهذا قول الأكثرين (والثاني) أنهم القوا عصيهم في الماء الحارى جرت عصا زكريا على ضد جريمة الماء فغلبهم ، وهذا قول الربيع (والثالث) قال أبو مسلم : معنى يلقون أقلامهم مما كانت الأمم تفعله من المساعدة عند التنازع فيطرحون منها ما يكتبون عليها أسماءهم فمن خرج له السهم سلم له الأمر ، وقد قال الله تعالى (فسأهم فكان من المدحدين) وهو شبيه بأمر القداح التي تتقاسم بها العرب لحم الجزور ، وإنما سميت هذه السهام أقلاما لأنها تقلم وتبرى ، وكل ما قطعت منه شيئاً بعد شيء فقد قلمته ، وهذا السبب يسمى ما يكتب به قلماً .

قال القاضي : وقوع لفظ القلم على هذه الأشياء وإن كان صحيحاً نظراً إلى أصل الاشتقاء ، إلا أن العرف أوجب اختصاص القلم بهذا الذي يكتب به ، فوجب حمل لفظ القلم عليه .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ظاهر الآية يدل على أنهم كانوا يلقون أقلامهم في شيء على وجه يظهر به امتياز بعضهم عن البعض في استحقاق ذلك المطلوب ، وإنما ليس فيه دلالة على كيفية ذلك الإلقاء ، إلا أنه روى في الخبر أنهم كانوا يلقونها في الماء بشرط أن من جرى قلمه على خلاف جري الماء فاليد له ، ثم إن حصل هذا المعنى لزكريا عليه السلام ، فلا جرم صار هو أولى بكفالتها والله أعلم .

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرِيمٌ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلْمَةٍ مِّنْهُ أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مُرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقْرَبِينَ ﴿٤﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الْصَّالِحِينَ ﴿٥﴾

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلفوا في السبب الذي لأجله رغبوا في كفالتها حتى أدتهم تلك الرغبة إلى المنازعـة ، فقال بعضهم : إن عمران أباها كان رئيساً لهم ومقدماً عليهم ، فلأجل حق أبيها رغبوا في كفالتها ، وقال بعضهم : إن أمها حررتها لعبادة الله تعالى وخدمة بيت الله تعالى ، ولأجل ذلك حرصوا على التكفل بها ، وقالوا آخرون : بل لأن في الكتب الإلهية كان بيان أمرها وأمر عيسى عليه السلام حاصلاً فتقربوا لهذا السبب حتى اختصموا.

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اختلفوا في أن أولئك المختصمين من كانوا ؟ فمنهم من قال : كانوا هم خدمة البيت ، ومنهم من قال : بل العلماء والأحبار وكتاب الوحي ، ولا شبهة في أنهم كانوا من الخواص وأهل الفضل في الدين والرغبة في الطريق.

أما قوله (أيهم يكفل مريم) فيه حذف التقدير : يلقون أقلامهم لينظروا أيهم يكفل مريم وإنما حسن لكونه معلوماً .

أما قوله (وما كنت لديهم إذ يختصمون) فالمعنى وما كنت هناك إذ يتقارعون على التكفل بها وإذ يختصمون بسببيها فيحتمل أن يكون المراد بهذا الاختصاص ما كان قبل الإقراء ، ويحتمل أن يكون اختصاصاً آخر حصل بعد الإقراء ، وبالجملة فالقصد من الآية شدة رغبتهم في التكفل بشأنها ، والقيام باصلاح مهماتها ، وما ذاك إلا لدعاء أمها حيث قالت (فقبل مني إنك أنت السميع العليم) وقالت (إنني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) .

قوله سبحانه وتعالى ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهًا في الدنيا والآخرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما شرح حال مريم عليها السلام ، في أول أمرها وفي آخر أمرها شرح كيفية ولادتها لعيسى عليه السلام ، فقال (إذ قالت الملائكة) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلفو في العامل في (إذ) قيل : العامل فيه . وما كنت لديهم إذ قالت الملائكة ، وقيل : يختصمون إذ قالت الملائكة ، وقيل : إنه معطوف على (إذ) الأولى في قوله (إذا قالت امرأة عمران) وقيل التقدير : إن ما وصفته من أمور زكريا ، وهبة الله له يحيى كان إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك ، وأما أبو عبيدة : فإنه يجري في هذا الباب على مذهب له معروف ، وهو أن (إذ) صلة في الكلام وزيادة ، واعلم أن القولين الأولين فيهما بعض الضعف وذلك لأن مريم حال ما كانوا يلقون الأقلام وحال ما كانوا يختصمون ما بلغت الجد الذي تبشر فيه عيسى عليه السلام ، إلا قول الحسن : فإنه يقول إنها كانت عاقلة في حال الصغر ، فإن ذلك كان من كراماتها ، فإن صح ذلك جاز في تلك الحال أن يرد عليها البشري من الملائكة ، وإن فلابد من تأخر هذه البشري إلى حين العقل ، ومنهم من تكلف الجواب ، فقال : يتحمل أن يقال الاختصاص والبشرى وقعا في زمان واسع ، كما تقول لقيته في سنة كذا ، وهذا الجواب بعيد والأصواب هو الوجه الثالث ، والرابع ، أما قول أبو عبيدة : فقد عرفت ضعفه ، والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ظاهر قوله (إذ قالت الملائكة) يفيد الجمع إلا أن المشهور أن ذلك المنادي كان جبريل عليه السلام ، وقد قررناه فيما تقدم ، وأما البشارة فقد ذكرنا تفسيرها في سورة البقرة في قوله (وبشر الذي آمنوا وعملوا الصالحات) .

أما قوله تعالى (بكلمة منه) فقد ذكرنا تفسير الكلمة من وجوه وأليتها بهذا الموضع وجهان (الأول) أن كل علوق وإن كان مخلوقاً بواسطة الكلمة وهي قوله (كن) إلا أن ما هو السبب المتعارف كان مفقوداً في حق عيسى عليه السلام وهو الأب ، فلا جرم كان إضافة حدوثه إلى الكلمة أكمل وأتم فجعل بهذا التأويل بأنه نفس الكلمة كما أن من غالب عليه الجود والكرم والإقبال يقال فيه على سبيل المبالغة إنه نفس الجود ، ومحض الكرم ، وصريح الإقبال ، فكذا هنا .

﴿ والوجه الثاني ﴾ أن السلطان العادل قد يوصف بأنه ظل الله في أرضه ، وبأنه نور الله لما أنه سبب لظهور ظل العدل ، ونور الإحسان ، فكذلك كان عيسى عليه السلام سبباً لظهور كلام الله عز وجل بسبب كثرة بياناته وإزالة الشبهات والتحريفات عنه فلا يبعد أن يسمى بكلمة الله تعالى على هذا التأويل .

إن قيل : ولم قلتم إن حدوث الشخص من غير نطفة الأب ممكن قلنا : أما على أصول المسلمين فالأمر فيه ظاهر ويidel عليه وجهان (الأول) أن تركيب الأجسام وتأليفها على وجه

يحصل فيها الحياة والفهم ، والنطق أمر ممكن ، وثبت أنه تعالى قادر على الممكناً بأسرها ، وكان سبحانه وتعالى قادرًا على إيجاد الشخص ، لا من نطفة الأب ، وإذا ثبت الإمكان ، ثم إن المعجز قام على صدق النبي ، فوجب أن يكون صادقًا ، ثم أخبر عن وقوع ذلك الممكناً ، والصادق إذا أخبر عن وقوع الممكناً وجوب القطع بكونه كذلك ، فثبتت صحة ما ذكرناه (الثاني) ما ذكره الله تعالى في قوله (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم) فلما لم يبعد تخلق آدم من غير آب فلأن لا يبعد تخلق عيسى من غير آب كان أولى وهذه حجة ظاهرة ، وأما على أصوله الفلسفية فالأمر في تجويزه ظاهر ويدل عليه وجوه (الأول) أن الفلسفه اتفقوا على أنه لا يمتنع حدوث الإنسان على سبيل التوأله من غير تولد قالوا : لأن بدن الإنسان إنما استعد لقبول النفس الناطقة التي تدبر بواسطة حصول المزاج المخصوص في ذلك البدن ، وذلك المزاج إنما جعل لامتزاج العناصر الأربع على قدر معين في مدة معينة ، فحصول أجزاء العناصر على ذلك القدر الذي يناسب بدن الإنسان غير ممتنع وامتزاجها غير ممتنع ، فامتزاجها يكون عند حدوث الكيفية المزاجية واجباً ، وعند حدوث الكيفية المزاجية يكون تعلق النفس بذلك البدن واجباً ، فثبت أن حدوث الإنسان على سبيل التولد معقول ممكناً ، وإذا كان الأمر كذلك فحدث الإنسان لا عن الأب أولى بالجواز والإمكان .

﴿ الوجه الثاني ﴾ وهو أنا نشاهد حدوث كثير من الحيوانات على سبيل التولد ، كتولد الفار عن المدر ، والحيات عن الشعر ، والعقارب عن الباذروج ، وإذا كان كذلك فتولد الولد لا عن الأب أولى أن لا يكون ممتنعاً .

﴿ الوجه الثالث ﴾ وهو أن التخيلات الذهنية كثيراً ما تكون أسباباً لحدوث الحوادث الكثيرة ليس أن تصور المنافق يجب حصول كيفية الغضب ، ويوجب حصول السخونة الشديدة في البدن أليس اللوح الطويل إذا كان موضوعاً على الأرض قدر الإنسان على المشي عليه ولو جعل كالقنطرة على وهذه لم يقدر على المشي عليه ، بل كلما مشى عليه يسقط وما ذاك إلا أن تصور السقوط يجب حصول السقوط ، وقد ذكروا في كتب الفلسفة أمثلة كثيرة لهذا الباب ، وجعلوها كالأصل في بيان جواز المعجزات والكرامات ، فما المانع من أن يقال إنه لما تخيلت صورته عليه السلام كفى ذلك في علوق الولد في رحمها ، وإذا كان كل هذه الوجوه ممكناً محتملاً كان القول بحدوث عيسى عليه السلام من غير واسطة الأب قولًا غير ممتنع ، ولو أنك طالبت جميع الأولين والآخرين من أرباب الطبائع والطب والفلسفه على إقامة حجة إقناعية في امتناع حدوث الولد من غير الأب لم يجدوا إليه سبيلاً إلا الرجوع إلى استقراء العرف والعادة ، وقد اتفق علماء الفلسفه على أن مثل هذا الإستقراء لا يفيد الظن القوي فضلاً عن

العلم ، فعلمنا أن ذلك أمر ممكن فلما أخبر العباد عن وقوعه وجب الجزم به والقطع بصحته .

أما قوله تعالى (بكلمة منه) فلفظة (من) ليست للتبعيض ه هنا إذ لو كان كذلك لكان الله تعالى متجرزاً متبوضاً متحملاً للإجتماع والافتراق وكل من كان كذلك فهو محدث تعالى الله عنه ، بل المراد من كلمة (من) ه هنا ابتداء الغاية وذلك لأن في حق عيسى عليه السلام لما لم تكن واسطة الأب موجودة صار تأثير كلمة الله تعالى في تكوينه وتخليقه أكمل وأظهر فكان كونه كلمة (الله) مبدأ لظهوره ولحوثه أكمل فكان المعنى لفظ ما ذكرناه لا ما يتوهمه النصارى والخلولية .

وأما قوله تعالى (اسمه المسيح عيسى ابن مريم) فيه سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ المسيح : هل هو اسم مشتق ، أو موضوع ؟ .

(والجواب) فيه قولان (الأول) قال أبو عبيدة والليث : أصله بالعبرانية مشيحاً ، فعربته العرب وغيروا لفظه ، وعيسى : أصله يشوع كما قالوا في موسى : أصله موسى ، أو ميشا بالعبرانية ، وعلى هذا القول لا يكون له اشتغال .

﴿ والقول الثاني ﴾ أنه مشتق وعليه الأكثرون ، ثم ذكر وا فيه وجوهاً (الأول) قال ابن عباس : إنما سمي عيسى عليه السلام مسيحاً ، لأنه ما كان يمسح بيده ذا عاهة ، إلا بريء من مرضه (الثاني) قال أحمد بن حمبي : سمي مسيحاً لأنه كان يمسح الأرض أي يقطعها ، ومنه مساحة أقسام الأرض ، وعلى هذا المعنى يجوز أن يقال : لعيسى مسيح بالتشديد على المبالغة كما يقال للرجل فسيق وشريب (الثالث) أنه كان مسيحاً ، لأنه كان يمسح رأس اليتامي لله تعالى ، فعلى هذه الأقوال : هو فعل بمعنى : فاعل ، كرحيم بمعنى : راحم (الرابع) أنه مسح من الأوزار والأثام (الخامس) سمي مسيحاً لأنه ما كان في قدمه خمس . فكان ممسوح القدمين (السادس) سمي مسيحاً لأنه كان ممسواً بدهن طاهر مبارك يمسح به الأنبياء ، ولا يمسح به غيرهم . ثم قالوا : وهذا الدهن يجوز أن يكون الله تعالى جعله علامه حتى تعرف الملائكة أن كل من مسح به وقت الولادة فإنه يكون نبياً (السابع) سمي مسيحاً لأنه مسحه جبريل عليه السلام بجناحه وقت ولادته ليكون ذلك صوناً له عن مس الشيطان (الثامن) سمي مسيحاً لأنه خرج من بطنه أمه ممسواً بالدهن ، وعلى هذه الأقوال يكون المسيح ، بمعنى : المسروح ، فعال بمعنى : مفعول . قال أبو عمرو بن العلاء المسيح : الملك . وقال النخعي : المسيح الصديق والله أعلم . ولعلهما قالا ذلك من جهة كونه مدحًا لا لدلالة اللغة عليه ، وأما المسيح الدجال فإنما سمي مسيحاً لأحد وجهين (أحدهما) لأنه مسروح أحد

العينين (والثاني) أنه يمسح الأرض أي : يقطها في المدة القليلة ، قالوا : وهذا قيل له : دجال لضريه في الأرض ، وقطعه أكثر نواحيها ، يقال : قد دجل الدجال إذا فعل ذلك ، وقيل : سمي دجالاً من قوله : دجل الرجل إذا موه ولبس .

﴿ السؤال الثاني ﴾ المسيح كان كاللقب له ، وعيسى كالاسم فلم قدم اللقب على الاسم ؟ .

(الجواب) أن المسيح كاللقب الذي يفيد كونه شريفاً رفيع الدرجة ، مثل الصديق والفاروق فذكره الله تعالى أولاً بلقبه ليفيد علو درجته ، ثم ذكره باسمه الخاص .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم قال عيسى بن مريم والخطاب مع مريم ؟ .

(الجواب) لأن الأنبياء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات ، فلما نسبه الله تعالى إلى الأم دون الأب ، كان ذلك إعلاماً لها بأنه ححدث بغير الأب ، فكان ذلك سبباً لزيادة فضله وعلو درجته .

﴿ السؤال الرابع ﴾ الضمير في قوله : إسمه عائد إلى الكلمة وهي مؤنثة فلم ذكر الضمير ؟ .

(الجواب) لأن المسمى بها مذكر .

﴿ السؤال الخامس ﴾ لم قال اسمه المسيح عيسى بن مريم ؟ والاسم ليس إلا عيسى ، وأما المسيح فهو لقب ، وأما ابن مريم فهو صفة .

(الجواب) الاسم علامة المسمى ومعرف له ، فكأنه قيل : الذي يعرف به هو مجموع هذه الثلاثة .

أما قوله تعالى (وجيهًا في الدنيا والآخرة) فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ معنى الوجيه : ذو الجاه والشرف والقدر ، يقال : وجه الرجل ، يوجه وجاهة فهو وجيه ، إذا صارت له منزلة رفيعة عند الناس والسلطان ، وقال بعض أهل اللغة : الوجيه : هو الكريم ، لأن أشرف أعضاء الإنسان وجهه فجعل الوجه استعارة عن الكرم والكمال .

واعلم أن الله تعالى وصف موسى عليه السلام بأنه كان وجيهًا قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهًا) ثم للمفسرين أقوال :

(الأول) قال الحسن : كان وجيهًا في الدنيا بسبب النبوة ، وفي الآخرة بسبب علو المنزلة عند الله تعالى (والثاني) أنه وجيه عند الله تعالى ، وأما عيسى عليه السلام ، فهو وجيه في الدنيا بسبب أنه يستجاب دعاؤه ويحيي الموتى ويرى الأسماء والأبرص بسبب دعائه ، ووجيه في الآخرة بسبب أنه يجعله شفيع أمه المحقين ويقبل شفاعتهم فيهم كما يقبل شفاعة أكابر الأنبياء عليهم السلام (والثالث) أنه وجيه في الدنيا بسبب أنه كان مبراً من العيوب التي وصفه اليهود بها ، ووجيه في الآخرة بسبب كثرة ثوابه وعلو درجته عند الله تعالى .

فإن قيل : كيف كان وجيهًا في الدنيا واليهود عاملوه بما عاملوه ، قلنا : قد ذكرنا أنه تعالى سمي موسى عليه السلام بالوجيه مع أن اليهود طعنوا فيه ، وأذوه إلى أن برأه الله تعالى مما قالوا ، وذلك لم يقع في وجاهة موسى عليه السلام ، فكذا ه هنا .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الزجاج (وجيهًا) منصوب على الحال ، المعنى : أن الله يبشرك بهذا الولد وجيهًا في الدنيا والآخرة ، والفراء يسمى هذا قطعًا كأنه قال : عيسى بن مريم الوجيه فقط منه التعريف .

أما قوله (ومن المقربين) فيه وجوه (أحدها) أنه تعالى جعل ذلك كالمدح العظيم للملائكة فألحقه بمثل منزلتهم ودرجتهم بواسطة هذه الصفة (وثانيها) أن هذا الوصف كالتبني على أنه عليه السلام سيرفع إلى السماء وتصاحبه الملائكة (وثالثها) أنه ليس كل وجيه في الآخرة يكون مقرباً لأن أهل الجنة على منازل ودرجات ، ولذلك قال تعالى (وكتنم أزواجاً ثلاثة) إلى قوله (والسابقون السابقون أولئك المقربون) .

أما قوله تعالى (ويكلم الناس في المهد وكهلاً) فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الواو للعطف على قوله (وجيهًا) والتقدير كأنه قال : وجيهًا ومكلماً للناس وهذا عندي ضعيف ، لأن عطف الجملة الفعلية على الإسمية غير جائز إلا للضرورة ، أو الفائدة والأولى أن يقال تقدير الآية (إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم) الوجيه في الدنيا والآخرة المعدود من المقربين ، وهذا المجموع جملة واحدة ، ثم قال (ويكلم الناس) فقوله (ويكلم الناس) عطف على قوله (إن الله يبشرك) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في المهد قولان (أحدهما) أنه حجر أمه (والثاني) هو هذا الشيء المعروف الذي هو مضجع الصبي وقت الرضاع ، وكيف كان فالمراد منه : فإنه يكلم الناس في الحالة التي يحتاج الصبي فيها إلى المهد ، ولا يختلف هذا المقصود سواء كان في حجر أمه أو كان في المهد .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (وكهلاً) عطف على الظرف من قوله (في المهد) كأنه قيل :
يكلم الناس صغيراً وكهلاً وهنها سؤالات :
﴿ السؤال الأول ﴾ ما الكهل ؟ .

(الجواب) الكهل في اللغة ما اجتمع قوته وكم شابه ، وهو مأخوذ من قول العرب
اكتهل البات إذا قوى وتم قال الأعشى :

يضاحك الشمس منها كوكب شرق . مؤزر بحميم النبت مكتهل
أراد بالمكتهل المتأهي في الحسن والكمال .

﴿ السؤال الثاني ﴾ أن تكلمه حال كونه في المهد من العجزات ، فأما تكلمه حال
الكهولة فليس من العجزات ، فما الفائدة في ذكره ؟ .

(والجواب) من وجوه (الأول) أن المراد منه بيان كونه متقلباً في الأحوال من الصبا إلى
الكهولة والتغير على الإله تعالى محال ، والمراد منه الرد على وفد نجران في قوله : إن عيسى كان
إهلاً (والثاني) المراد منه أن يكلم الناس مرة واحدة في المهد لاظهار طهارة أمه ، ثم عند
الكهولة يتكلم بالوحى والنبوة (والثالث) قال أبو مسلم : معناه أنه يكلم حال كونه في المهد ،
وحال كونه كهلاً على حد واحد وصفة واحدة وذلك لا شك أنه غاية في العجز (الرابع) قال
الأصم : المراد منه أنه يبلغ حال الكهولة .

﴿ السؤال الثالث ﴾ نقل أن عمر عيسى عليه السلام إلى أن رفع كان ثلاثةً وثلاثين سنة
وستة أشهر ، وعلى هذا التقدير : فهو ما بلغ الكهولة .

(والجواب) من وجهين (الأول) بينما أن الكهل في أصل اللغة عبارة عن الكامل
النام ، وأكمل أحوال الإنسان إذا كان بين الثلاثين والأربعين ، فصح وصفه بكونه كهلاً في
هذا الوقت (والثاني) هو قول الحسين بن الفضل البجلي : أن المراد بقوله (وكهلاً) أن يكون
كهلاً بعد أن ينزل من السماء في آخر الزمان ، ويكلم الناس ، ويقتل الدجال ، قال الحسين
بن الفضل : وفي هذه الآية نص في أنه عليه الصلاة والسلام سينزل إلى الأرض .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ أنكرت النصارى كلام المسيح عليه السلام في المهد ، واحتجوا على
صحة قوله بأن كلامه في المهد من أعجب الأمور وأغربها ، ولا شك أن هذه الواقعة لو
وقعت لوجب أن يكون وقوعها في حضور الجمع العظيم الذي يحصل القطع واليقين بقولهم ،

قَالَتْ رَبِّي أَنِّي يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسِسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^(١) وَيُعْلِمُهُ الْكِتَابُ وَالْحِكْمَةُ وَالْتَّوْرَثَةُ وَالْإِنْجِيلُ^(٢)

لأن تخصيص مثل هذا المعجز بالواحد والإثنين لا يجوز ، ومتى حدثت الواقعة العجيبة جداً عند حضور الجمع العظيم فلا بد وأن تتوفر الدواعي على النقل فيصير ذلك بالغاً حد التواتر ، وإخفاء ما يكون بالغاً إلى حد التواتر ممتنع ، وأيضاً فلو كان ذلك لكان ذلك الإخفاء ههنا ممتنعاً لأن النصارى بالغوا في إفراط محبتهم إلى حيث قالوا إنه كان إلهًا ، ومن كان كذلك يمتنع أن يسعى في إخفاء مناقبه وفضائله بل ربما يجعل الواحد ألفاً فثبت أن لو كانت هذه الواقعة موجودة لكان أولى الناس بمعرفتها النصارى ، ولما أطبقوا على إنكارها علمنا أنه ما كان موجوداً البتة .

أجاب المتكلمون عن هذه الشبهة ، وقالوا : إن كلام عيسى عليه السلام في المهد إنما كان للدلالة على براءة حال مريم عليها السلام من الفاحشة ، وكان الحاضرون جمعاً قليلين ، فالسامعون لذلك الكلام ، كان جمعاً قليلاً ، ولا يبعد في مثله التواطؤ على الإخفاء ، وبتقدير : أن يذكروا بذلك إلا أن اليهود كانوا يكذبونهم في ذلك وينسبونهم إلى البهت ، فهم أيضاً قد سكتوا لهذه العلة فلأجل هذه الأسباب بقي الأمر مكتوماً خفياً إلى أن أخبر الله سبحانه وتعالى محمداً^{صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ} بذلك ، وأيضاً فليس كل النصارى ينكرون ذلك ، فإنه نقل عن جعفر بن أبي طالب : لما قرأ على النجاشي سورة مريم ، قال النجاشي : لا تفاوت بين واقعة عيسى ، وبين المذكور في هذا الكلام بذرة .

ثم قال تعالى (ومن الصالحين) .

فإن قيل : كون عيسى كلمة من الله تعالى ، وكونه (وجيهًا في الدنيا والآخرة) وكونه من المقربين عند الله تعالى ، وكونه مكلماً للناس في المهد ، وفي الكهولة كل واحد من هذه الصفات أعظم وأشرف من كونه صالحًا فلم ختم الله تعالى أوصاف عيسى بقوله (ومن الصالحين) ؟ .

قلنا : إنه لا رتبة أعظم من كون المرء صالحًا لأنه لا يكون كذلك إلا ويكون في جميع الأفعال والتزوك مواظباً على النهج الأصلاح ، والطريق الأكمل ، ومعلوم أن ذلك يتناول جميع المقامات في الدنيا والدين في أفعال القلوب ، وفي أفعال الجوارح ، فلما ذكر الله تعالى بعض التفاصيل أردفه بهذا الكلام الذي يدل على أرفع الدرجات .

قوله تعالى « قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرًا فلما يقول له كن فيكون » .

وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَتَىٰ قَدْ جَعَلْتُمْ بِغَايَةَ مِنْ رَبِّكُمْ أَتَىٰ أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الظِّئْنِ

قال المفسرون : إنها إنما قالت ذلك لأن التبشير به يقتضي التعجب مما وقع على خلاف العادة وقد قررنا مثله في قصة زكريا عليه السلام ، وقوله (إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون) تقدم تفسيره في سورة البقرة .

أما قوله تعالى ﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾ فيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ نافع ، وعاصم (ويعلمه) بالياء والباقيون بالنون ، أما الياء فعطف على قوله (يخلق ما يشاء) وقال المبرد عطف على يبشرك بكلمة ، وكذا وكذا (ويعلمه الكتاب) ومن قرأ بالنون قال تقدير الآية أنها : قالت رب أنى يكون لي ولد فقال لها الله (كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون) فهذا وإن كان إثباتاً على وجهه المغایبة ، فقال (وتعلمته) لأن معنى قوله (كذلك الله يخلق ما يشاء) معناه : كذلك نحن نخلق ما نشاء (وتعلمته الكتاب والحكمة) والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في هذه الآية أمور أربعة معطوف بعضها على بعض بواو العطف ، والأقرب عندي أن يقال : المراد من الكتاب تعليم الخط والكتابة ، ثم المراد بالحكمة تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق لأن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ومجموعهما هو المسمى بالحكمة ، ثم بعد أن صار عالماً بالخط والكتابة ، ومحيطاً بالعلوم العقلية والشرعية ، يعلمه التوراة ، وإنما آخر تعليم التوراة عن تعليم الخط والحكمة ، لأن التوراة كتاب إلهي ، وفيه أسرار عظيمة ، والإنسان ما لم يتعلم العلوم الكثيرة لا يمكنه أن يخوض في البحث على أسرار الكتب الإلهية ، ثم قال في المرتبة الرابعة والإنجيل ، وإنما آخر ذكر الإنجيل عن ذكر التوراة لأن من تعلم الخط ، ثم تعلم علوم الحق ، ثم أحاط بأسرار الكتاب الذي أنزله الله تعالى على من قبله من الأنبياء فقد عظمت درجته في العلم فإذا أنزل الله تعالى عليه بعد ذلك كتاباً آخر وأوقفه على أسراره فذلك هو الغاية القصوى ، والمرتبة العليا في العلم ، والفهم والإحاطة بالأسرار العقلية والشرعية ، والإطلاع على الحكم العلوية والسفلى ، فهذا ما عندي في ترتيب هذه الألفاظ الأربع .

ثم قال تعالى ﴿ ورسولاً إلىبني إسرائيل أني قد جئتكم بأية من ربكم ﴾ فيه مسائل :

كَهِيَةٌ طَيْرٌ فَأَنْفَخْتُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ

﴿المسألة الأولى﴾ في هذه الآية وجوه (الأول) تقدير الآية : وتعلمـه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ونبـعـثـه رسـوـلاً إـلـى بـنـي إـسـرـائـيل ، قـائـلاً : أـنـي قـد جـئـتـكـم بـآيـة مـن رـبـكـم ، وـالـحـذـفـ حـسـنـ إـذـا لـم يـفـضـ إـلـى الـاشـتـبـاهـ (الـثـانـيـ) قـالـ الزـجاجـ : الـإـختـيـارـ عـنـديـ أـنـ تـقـدـيرـهـ : وـيـكـلـمـ النـاسـ رـسـوـلاًـ ، وـإـنـماـ أـصـمـرـنـاـ ذـلـكـ لـقـولـهـ (أـنـي قـد جـئـتـكـمـ وـالـمعـنـىـ : وـيـكـلـمـهـ رـسـوـلاًـ بـأـنـيـ قـدـ جـئـتـكـمـ ، (الـثـالـثـ) قـالـ الـأـخـفـشـ : إـنـ شـئـتـ جـعـلـتـ الـوـاـوـ زـائـدـةـ ، وـالـتـقـدـيرـ : وـيـعـلـمـهـ الـكـتـابـ وـالـحـكـمـةـ وـالـتـورـاـةـ ، وـالـإـنـجـيـلـ رـسـوـلاًـ إـلـى بـنـي إـسـرـائـيلـ ، قـائـلاًـ : أـنـي قـدـ جـئـتـكـمـ بـآيـةـ .

﴿المسألة الثانية﴾ هذه الآية تدل على أنه ﷺ كان رسـوـلاًـ إـلـى كـلـ بـنـي إـسـرـائـيلـ بـخـلـافـ قولـ بعضـ الـيـهـودـ إـنـهـ كـانـ مـبـعـوـثـاًـ إـلـى قـومـ مـخـصـوصـيـنـ مـنـهـ .

﴿المسألة الثالثة﴾ المراد بالآية الجنس لا الفرد لأنـهـ تـعـالـىـ عـدـ هـنـاـ أـنـوـاعـاـ مـنـ الـآـيـاتـ ، وـهـيـ إـحـيـاءـ الـمـوـتـىـ ، وـإـبـرـاءـ الـأـكـمـةـ وـالـأـبـرـصـ ، وـالـإـخـبـارـ عنـ الـمـغـيـبـاتـ فـكـانـ الـمـرـادـ مـنـ قـولـهـ (قدـ جـئـتـكـمـ بـآيـةـ مـنـ رـبـكـمـ)ـ الجنسـ لاـ الفـردـ .

ثمـ قـالـ (أـنـيـ أـخـلـقـ لـكـمـ مـنـ الطـيـنـ كـهـيـةـ طـيـرـ فـأـنـفـخـ فـيـهـ فـيـكـونـ طـيـرـاًـ بـإـذـنـ اللـهــ)ـ .

اعـلـمـ أـنـهـ تـعـالـىـ حـكـيـ هـنـاـ خـمـسـةـ أـنـوـاعـ مـنـ مـعـجـزـاتـ عـيـسـىـ عـلـيـهـ السـلـامـ :

النـوعـ الـأـوـلـ

ما ذـكـرـهـ هـنـاـ فـيـ هـذـهـ آـيـةـ وـفـيـ مـسـائـلـ :

﴿المسألة الأولى﴾ قـرـأـ حـمـزةـ (أـنـيـ)ـ بـفـتـحـ الـهـمـزـةـ ، وـقـرـأـ نـافـعـ بـكـسـرـ الـهـمـزـةـ فـمـنـ فـتـحـ (أـنـيـ)ـ فـقـدـ جـعـلـهـ بـدـلـاًـ مـنـ آـيـةـ كـأـنـهـ قـالـ : وـجـئـتـكـمـ بـأـنـيـ أـخـلـقـ لـكـمـ مـنـ الطـيـنـ ، وـمـنـ كـسـرـ فـلـهـ وـجـهـانـ (أـحـدـهـاـ)ـ الـإـسـتـنـافـ وـقـطـعـ الـكـلـامـ مـاـ قـبـلـهـ (الـثـانـيـ)ـ أـنـهـ فـسـرـ الـآـيـةـ بـقـولـهـ (أـنـيـ أـخـلـقـ لـكـمـ)ـ وـيـجـوزـ أـنـ يـفـسـرـ الـجـمـلـةـ مـتـقـدـمـةـ بـمـاـ يـكـونـ عـلـىـ وـجـهـ الـابـتـداءـ قـالـ اللـهـ تـعـالـىـ (وـعـدـ اللـهـ الـذـينـ

آمنوا وعملوا الصالحات) ثم فسر الموعود بقوله (لهم مغفرة) وقال (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم) ثم فسر المثل بقوله (خلقه من تراب) وهذا الوجه أحسن لأنه في المعنى كقراءة من فتح (أني) على جعله بدلاً من آية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (أخلق لكم من الطين) أي أقدر وأصور وقد بينا في تفسير قوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم) إن الخلق هو التقدير ولا بأس بأن نذكره هنا أيضاً فنقول الذي يدل عليه القرآن والشعر والاستشهاد ، أما القرآن فأيات (أحدها) قوله تعالى (فتبارك الله أحسن الخالقين) أي المقدرين ، وذلك لأنه ثبت أن العبد لا يكون خالقاً بمعنى التكوين والإبداع فوجب تفسير كونه خالقاً بالتقدير والتسوية (وثانيها) أن لفظ الخلق يطلق على الكذب قال تعالى في سورة الشعراء (إن هذا إلا خلق الأولين) وفي العنكبوت (وتخلقون إفكاً) وفي سورة ص (إن هذا إلا اختلاق) والكافر وإنما سمي خالقاً لأنه يقدر الكذب في خاطره ويصوّره (وثالثها) هذه الآية التي نحن في تفسيرها وهي قوله (أني أخلق لكم من الطين) أي أصور وأقدر وقال تعالى في المائدة (وإذا تخلق من الطين كهيئة الطير) وكل ذلك يدل على أن الخلق هو التصوير والتقدير (ورابعها) قوله تعالى (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) وقوله (خلق) إشارة إلى الماضي ، فلو حملنا قوله (خلق) على الإيجاد والإبداع ، لكن المعنى : أن كل ما في الأرض فهو تعالى قد أوجده في الزمان الماضي ، وذلك باطل بالاتفاق ، فإذا وجب حمل الخلق على التقدير حتى يصح الكلام وهو أنه تعالى قادر في الماضي كل ما وجد الآن في الأرض ، وأما الشعر فقوله :

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَعْضَ الْقَوْمَ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي
وقوله

وَلَا يَعْطِي بِأَيْدِي الْخَالِقِينَ وَلَا أَيْدِي الْخَوَالِقِ إِلَّا جَيدُ الْأَدَمِ

﴿ وأما الاستشهاد ﴾ فهو أنه يقال : خلق النعل إذ قدرها وسواها بالقياس والخلق المدار من الخير ، وفلان خليق بكذا ، أي له هذا المدار من الإستحقاق ، والصخرة الخلقاء الملاس ، لأن الملاسة استواء ، وفي الخشونة اختلاف ، فثبت أن الخلق عبارة عن التقدير والتسوية .

إذا عرفت هذا فنقول : اختلف الناس في لفظه (الخالق) قال أبو عبد الله البصري : إنه لا يجوز إطلاقه على الله في الحقيقة ، لأن التقدير والتسوية عبارة عن الظن والحسبان وذلك على الله محال ، وقال أصحابنا : الخالق ، ليس إلا الله ، واحتجوا عليه بقوله تعالى (الله خالق كل

شيء) ومنهم من احتج بقوله (هل من خالق غير الله يرزقكم) وهذا ضعيف ، لأنه تعالى قال (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء) فالمعنى هل من خالق غير الله موصوف بوصف كونه رازقاً من السماء ولا يلزم من صدق قولنا الخالق الذي يكون هذا شأنه ، ليس إلا الله ، صدق قولنا أنه لا خالق إلا الله . وأجابوا عن كلام أبي عبد الله بأن التقدير والتسوية عبارة عن العلم والظن لكن الظن وإن كان محالاً في حق الله تعالى فالعلم ثابت .

إذا عرفت هذافقول (أنى أخلق لكم من الطين) معناه : أصور وأقدر وقوله (كهيئة الطير) فالهيئة الصورة المهيأة من قوله هيأت الشيء إذ قدرته وقوله (فأنفخ فيه) أي في ذلك الطين المصور وقوله (فيكون طيراً بإذن الله) ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قرأ نافع (فيكون طائراً) بالألف على الواحد ، والباقيون (طيراً) على الجمع ، وكذلك في المائدة والطير اسم الجنس يقع على الواحد وعلى الجمع .

يروى أن عيسى عليه السلام لما دعى النبوة ، وأظهر المعجزات أخذوا يتعنتون عليه وطالبوه بخلق خفاش ، فأخذ طيناً وصوره ، ثم نفخ فيه ، فإذا هو يطير بين السماء والأرض ، قال وهب : كان يطير مادام الناس ينظرون إليه ، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً ، ثم اختلف الناس فقال قوم : إنه لم يخلق غير الخفاش ، وكانت قراءة نافع عليه . وقال آخرون : إنه خلق أنواعاً من الطير وكانت قراءة الباقيين عليه .

﴿المسألة الثانية﴾ قال بعض المتكلمين : الآية تدل على أن الروح جسم رقيق كالريح ، ولذلك وصفها بالفتح ، ثم هنا بحث ، وهو أنه هل يجوز أن يقال : إنه تعالى أودع في نفس عيسى عليه السلام خاصية ، بحيث متى نفخ في شيء كان نفخه فيه موجباً لصيروحة ذلك الشيء حياً ، أو يقال : ليس الأمر كذلك بل الله تعالى كان يخلق الحياة في ذلك الجسم بقدرته عند نفخة عيسى عليه السلام فيه على سبيل إظهار المعجزات ، وهذا الثاني هو الحق لقوله تعالى (الذي خلق الموت والحياة) وحكى عن إبراهيم عليه السلام إنه قال في مناظرته مع الملك (ربى الذي يحيي ويميت) فلو حصل لغيره ، هذه الصفة لبطل ذلك الاستدلال .

﴿المسألة الثالثة﴾ القرآن دل على أنه عليه الصلاة والسلام إنما تولد من نفخ جبريل عليه السلام في مريم وجبريل عليه السلام روح حض وروحاني حض فلا جرم كانت نفخة عيسى عليه السلام للحياة والروح .

وَأَبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأَحِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبَثُكُمْ إِمَّا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ
فِي بُيُوتِكُمْ

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (بإذن الله) معناه بتكونين الله تعالى وتخليقه لقوله تعالى (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله) أي إلا بأن يوجد الله الموت ، وإنما ذكر عيسى عليه السلام هذا القيد إزالة للشبهة ، وتنبيهاً على إني أعمل هذا التصوير ، فاما خلق الحياة فهو من الله تعالى على سبيل إظهار المعجزات على يد الرسل .

وأما النوع الثاني والثالث والرابع من المعجزات

فهو قوله ﴿ وَأَبْرِئِ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأَحِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .

ذهب أكثر أهل اللغة إلى أن الأكمة هو الذي ولد أعمى ، وقال الخليل وغيره وهو الذي عمى بعد أن كان بصيراً ، وعن مجاهد هو الذي لا يبصر بالليل ، ويقال : إنه لم يكن في هذه الأمة أكمة غير قتادة بن دعامة السدوسي صاحب التفسير ، وروى أنه عليه الصلاة والسلام ربما اجتمع عليه خمسون ألفاً من المرضى من أطاق منهم أتاه ، ومن لم يطق أنراه عيسى عليه السلام ، وما كانت مداواته إلا بالدعاء وحده ، قال الكلبي : كان عيسى عليه السلام يحيي الأموات بيأحي يا قيوم وأحياناً عاذر ، وكان صديقاً له ، ودعوا سام بن نوح من قبره ، فخرج حياً ، ومر على ابن ميت لعجزه فدعا الله ، فنزل عن سريره حياً ، ورجع إلى أهله وولده ، وقوله (بإذن الله) رفع لتوهم من اعتقاد فيه الإلهية .

وأما النوع الخامس

من المعجزات إخباره عن الغيب فهو قوله تعالى حكاية عنه ﴿ وَأَنْبَثُكُمْ بِمَا تَأْكُلُوا وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في هذه الآية قولان (أحدهما) أنه عليه الصلاة والسلام كان من أول مرة يخبر عن الغيب ، روى السدي : أنه كان يلعب مع الصبيان ، ثم يخبرهم بأفعال

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا هُوَ لَكُمْ بَعْضٌ الَّذِي حُرِمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِعَايَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٢٠﴾
إِنَّ اللَّهَ رَبِّيْ وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢١﴾

آباءهم وأمهاتهم ، وكان يخبر الصبي بأن أملك قد خبأت لك كذا فيرجع الصبي إلى أهله ويبيكي إلى أن يأخذ ذلك الشيء ثم قالوا لصبيانهم : لا تلعبوا مع هذا الساحر ، وجمعوهم في بيت ، فجاء عيسى عليه السلام يطلبهم ، فقالوا له . ليسوا في البيت ، فقال : فمن في هذا البيت ، قالوا : خنازير قال عيسى عليه السلام كذلك يكونون فإذا هم خنازير .

﴿ والقول الثاني ﴾ إن الإِخْبَارُ عَنِ الْغَيْوَبِ إِنَّمَا ظَهَرَ وَقْتُ نَزْوَلِ الْمَائِدَةِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقَوْمَ نَهَا عَنِ الْإِدْخَارِ ، فَكَانُوا يَخْزُنُونَ وَيَدْخُرُونَ ، فَكَانَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَخْبِرُهُمْ بِذَلِكِ .

﴿ المَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ ﴾ الإِخْبَارُ عَنِ الْغَيْوَبِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مَعْجَزَةٌ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّجْمِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ اسْتِخْرَاجَ الْخَبْرِ لَا يَكْنِهُمْ ذَلِكَ إِلَّا عَنْ سُؤَالٍ يَتَقدِّمُ ثُمَّ يَسْتَعْيِنُونَ عَنْدَ ذَلِكَ بِآلَّةٍ وَيَتَوَصَّلُونَ بِهَا إِلَى مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْكَوَاكِبِ ، ثُمَّ يَعْرَفُونَ بِأَنَّهُمْ يَغْلِطُونَ كَثِيرًا ، فَأَمَّا الإِخْبَارُ عَنِ الْغَيْبِ مِنْ غَيْرِ اسْتِعْانَةِ بِآلَّةٍ ، وَلَا تَقْدِمُ مَسْأَلَةٌ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْوَحْيِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى .

ثم إنه عليه السلام ختم كلامه بقوله ﴿ إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

والمعنى إن في هذه الخمسة لمعجزة قاهرة قوية دالة على صدق المدعى لكل من آمن بدلائل المعجزة في الحمل على الصدق ، على من أنكر دلالته أصل العجز على صدق المدعى ، وهم البراهمة ، فإنه لا يكفيه ظهور هذه الآيات ، أما من آمن بدلالة العجز على الصدق لا يبقى له في هذه المعجزات كلام البتة .

قوله تعالى ﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا هُوَ لَكُمْ بَعْضٌ الَّذِي حُرِمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِعَايَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ .

اعلم أنه عليه السلام لما بين بهذه المعجزات الباهرة كونه رسولاً من عند الله تعالى ، بين

بعد ذلك إنه بماداً أرسلي وهو أمران (أحدهما) قوله (ومصدقاً لما بين يدي من التوراة) .

وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قد ذكرنا في قوله (ورسولاً إلىبني إسرائيل أبني قد جئتكم بآية) أن تقديره وأبعشه رسولاً إلىبني إسرائيل قائلاً (أني قد جئتكم بآية) فقوله (ومصدقاً) معطوف عليه والتقدير : وأبعشه رسولاً إلىبني إسرائيل قائلاً (أني قد جئتكم بآية) ، وإنني بعشت (مصدقاً لما بين يدي من التوراة) وإنما حسن حذف هذه الألفاظ لدلالة الكلام عليها .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنه يجب على كلنبي أن يكون مصدقاً لجميع الأنبياء عليهم السلام . لأن الطريق إلى ثبوت نبوتهم هو المعجزة ، فكل من حصل له المعجز ، وجب الاعتراف بنبوته ، فلهذا قلنا : بأن عيسى عليه السلام يجب أن يكون مصدقاً لموسى بالتوراة ، ولعل من جملة الأغراض فيبعثة عيسى عليه السلام إليهم تقرير التوراة وإزالة شبكات المنكرين وتحريفات الجاهلين .

﴿ وأما المقصود الثاني ﴾ منبعثة عيسى عليه السلام قوله (ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم)

﴿ وفيه سؤال ﴾ وهو أنه يقال : هذه الآية الأخيرة مناقضة لما قبلها لأن هذه الآية الأخيرة صريحة في أنه جاء ليحل بعض الذي كان محرماً عليه في التوراة ، وهذا يتضمن أن يكون حكمه بخلاف حكم التوراة ، وهذا ينافق قوله (ومصدقاً لما بين يدي من التوراة) .

(والجواب) إنه لا تناقض بين الكلام ، وذلك لأن التصديق بالتوراة لا معنى له إلا اعتقاد أن كل ما فيها فهو حق وصواب ، وإذا لم يكن الثاني مذكوراً في التوراة لم يكن حكم عيسى بتحليل ما كان محرماً فيها ، مناقضاً لكونه مصدقاً بالتوراة ، وأيضاً إذا كانت البشرة بعيسى عليه السلام موجودة في التوراة لم يكن مجبي عيسى عليه السلام وشرعه مناقضاً للتوراة ، ثم اختلفوا فقال بعضهم : إنه عليه السلام ما غير شيئاً من أحكام التوراة ، قال وهب بن منبه : إن عيسى عليه السلام كان على شريعة موسى عليه السلام كان يقرر السببتي ويستقبل بيت المقدس ، ثم إنه فسر قوله (ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم) بأمررين (أحدهما) إن الأخبار كانوا قد وضعوا من عند أنفسهم شرائع باطلة ونسبوها إلى موسى ، فجاء عيسى عليه السلام ورفعها وأبطلها وأعاد الأمر إلى ما كان في زمن موسى عليه السلام (والثاني) أن الله تعالى كان قد حرم بعض الأشياء على اليهود عقوبة لهم على بعض ما صدر عنهم من الجنسيات

فَلَمَّا أَحْسَنَ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفَّارَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ أَمَّا أَنَا بِاللَّهِ وَآشْهَدُ بِأَنَا مُسْلِمُونَ ﴿٢٩﴾ رَبَّنَا أَمَّا مَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَآتَيْنَا مَعَ الشَّهِيدِينَ ﴿٣٠﴾ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَنْكِرِينَ ﴿٣١﴾

كما قال الله تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) ثم بقي ذلك التحرير مستمراً على اليهود فجاء عيسى عليه السلام ورفع تلك التشديدات عنهم ، وقال آخرون : إن عيسى عليه السلام رفع كثيراً من أحكام التوراة ، ولم يكن ذلك قادحاً في كونه مصدقاً بالتوراة على ما بيناه ورفع السبت ووضع الأحد قائماً مقاماً وكان محقاً في كل ما عمل لما بيننا أن الناسخ والمنسوخ كلاهما حق وصدق.

ثم قال (وجئتم بآية من ربكم) وإنما أعاده لأن إخراج الإنسان عن المألوف المعتمد من قديم الزمان عشر فأعاد ذكر المعجزات ليصير كلامه ناجعاً في قلوبهم ومؤثراً في طباعهم ، ثم خوفهم فقال (فاقروا الله وأطیعون) لأن طاعة الرسول من لوازم تقوى الله تعالى فيبين إنه إذا لزمكم أن تتقووا الله لزمكم أن تطيعوني فيما أمركم به عن ربى ، ثم إنه ختم كلامه بقوله (إن الله ربى وربكم) ومقصوده إظهار الخضوع والاعتراف بالعبودية لكيلا يتقولوا عليه الباطل فيقولون : إنه إله وابن إله لأن إقراره لله بالعبودية يمنع مما تدعيه جهال النصارى عليه ، ثم قال (فاعبدوه) والمعنى : أنه تعالى لما كان رب الخلائق بأسرهم وجب على الكل أن يعبدوه ، ثم أكد ذلك ذلك بقوله (هذا صراط مستقيم) .

قوله تعالى ﴿ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وشهادنا مسلمون ، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتتبنا مع الشاهدين ، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما حكى بشارة مريم بولد مثل عيسى واستقصى في بيان صفاتيه وشرح معجزاته وترك هنا قصة ولادته ، وقد ذكرها في سورة مريم على الاستقصاء ، شرع في بيان أن عيسى لما شرح لهم تلك المعجزات ، وأظهر لهم تلك الدلائل فهم بماذا عاملوه فقال تعالى (فلما أحس عيسى منهم) وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الإحساس عبارة عن وجdan الشيء بالحاسة ومهنا وجهان (أحدهما) إن يجري اللفظ على ظاهره ، وهو إنهم تكلموا بالكفر ، فأحس ذلك باذنه (والثاني) أن نحمله على التأويل ، وهو أن المراد أنه عرف منهم إصرارهم على الكفر ، وعزمهم على قتله ، ولما كان ذلك العلم على لا شبّهة فيه ، مثل العلم الحاصل من الحواس ، لا جرم عبر عن ذلك العلم بالإحساس .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا في السبب الذي به ظهر كفرهم على وجوه (الأول) قال السدى : أنه تعالى لما بعثه رسولا إلىبني إسرائيل جاءهم ودعاهم إلى دين الله فتمردوا وعصوا خافهم واحتقى عنهم ، وكان أمر عيسى عليه السلام في قومه كأمر محمد ﷺ وهو بمكة فكان مستضعفًا ، وكان يختفي منبني إسرائيل كما احتفى النبي ﷺ في الغار ، وفي منازل من آمن به لما أرادوا قتله ، ثم إنه عليه الصلاة والسلام خرج مع أمه يسيحان في الأرض ، فاتفق أنه نزل في قرية على رجل فأحسن ذلك الرجل ضيافته وكان في تلك المدينة ملك جبار فجاء ذلك الرجل يوماً حزيناً ، فسأله عيسى عن السبب فقال : ملك هذه المدينة رجل جبار ومن عادته أنه جعل على كل رجل منا يوماً يطعمه ويستقيه هو وجنوده ، وهذا اليوم نوبتي والأمر متذر علي ، فلما سمعت مريم عليها السلام ذلك ، قالت : يابني ادع الله ليكفي ذلك ، فقال : يا أماه إن فعلت ذلك كان شر ، فقالت : قد أحسن وأكرم ولا بد من إكرامه فقال عيسى عليه السلام : إذا قرب مجيء الملك فاماً قدورك وخوابيك ماء ثم أعلمكني ، فلما فعل ذلك دعا الله تعالى فتحول ما في القدور طبيخاً ، وما في الخوابي خمراً ، فلما جاءه الملك أكل وشرب وسأله من أين هذا الخمر ؟ فتعلل الرجل في الجواب فلم يزل الملك يطالبه بذلك حتى أخبره بالواقعة فقال : إن من دعا الله حتى جعل الماء خمراً إذا دعا أن يحيى الله تعالى ولدي لا بد وأن يحاب ، وكان ابنه قد مات قبل ذلك بأيام ، فدعا عيسى عليه السلام وطلب منه ذلك ، فقال عيسى : لا نفعل ، فإنه إن عاش كان شراً ، فقال : ما أبالي ما كان إذا رأيته ، وإن أحسيته تركتك على ما تفعل ، فدعا الله عيسى ، فعاش الغلام ، فلما رأه أهل مملكته قد عاش تبادروا بالسلاح واقتلوها ، وصار أمر عيسى عليه السلام مشهوراً في الخلق ، وقصد اليهود قتله ، وأظهروا الطعن فيه والكفر به .

﴿ والقول الثاني ﴾ إن اليهود كانوا عارفين بأنه هو المسيح المبشر به في التوراة ، وأنه ينسخ دينهم فكانوا من أول الأمر طاعنين فيه ، طالبين قتله ، فلما أظهر الدعوة اشتد غضبهم ، وأخذوا في إيذائه وإيهابه وطلبو قتله .

﴿ والقول الثالث ﴾ أن عيسى عليه السلام ظن من قومه الذين دعاهم إلى الإيمان أنهم

لا يؤمنون به وأن دعوته لا تنفع فيهم فأحب أن يتحقق لهم ما ظنه بهم فقال لهم (من أنصاري إلى الله) فما أجابه إلا الحواريون ، فعند ذلك أحس بأن من سوى الحواريين كافرون مصرون على إنكار دينه وطلب قتله .

أما قوله تعالى (قال من أنصاري إلى الله) ففيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في الآية أقوال (الأول) أن عيسى عليه السلام لما دعا بني إسرائيل إلى الدين ، وترددوا عليه فر منهم وأخذ يسبح في الأرض فمر بجماعة من صيادي السمك ، وكان فيهم شمعون وبطروس ويوحنا ابنا زيدي وهي من جملة الحواريين الاثنتي عشرة فقال عيسى عليه السلام : الآن تصيد السمك ، فان تبعتنى صرت بحيث تصيد الناس لحياة الأبد ، فطلبوه منه المعجزة ، وكان شمعون قد رمى شبكته تلك الليلة في الماء فما اصطاد شيئاً فأمره عيسى بالقاء شبكته في الماء مرة أخرى ، فاجتمع في تلك الشبكة من السمك ما كادت تتمزق منه ، واستعاناً بآهل سفينة أخرى ، وملأوا السفينتين ، فعند ذلك آمنوا بعيسى عليه السلام .

﴿ والقول الثاني ﴾ أن قوله (من أنصاري إلى الله) إنما كان في آخر أمره حين اجتمع اليهود عليه طلباً لقتله . ثم هنا إحتفالات (الأول) أن اليهود لما طلبوا للقتل وكان هو في المهرب عنهم قال لأولئك الاثنتي عشرة من الحواريين : أيكم يحب أن يكون رفيقي في الجنة على أن يلقى عليه شبهي فيقتل مكانى .

فأجابه إلى ذلك بعضهم وفيها تذكره النصاري في إنجيلهم : أن اليهود لما أخذوا عيسى سل شمعون سيفه فضرب به عبداً كان فيهم لرجل من الأخبار عظيم فرمى بأذنه : فقال له عيسى : حسبك ثم أخذ أذن العبد فردها إلى موضعها ، فصارت كما كانت ، والحاصل أن الغرض من طلب النصرة إقدامهم على دفع الشر عنه .

﴿ والاحتلال الثاني ﴾ أنه دعاهم إلى القتال مع القوم لقوله تعالى في سورة أخرى (فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (إلى الله) فيه وجوه (الأول) التقدير : من أنصاري حال ذهابي إلى الله أو حال التجائي إلى الله (والثاني) التقدير : من أنصاري إلى أن أبين أمر الله تعالى ، وإلى أن أظهر دينه ويكون إلى هنا غاية كأنه أراد من يثبت على نصرتي إلى أن تتم دعوتي ، ويظهر أمر الله تعالى (الثالث) قال الأكثرون من أهل اللغة إلى هنا يعني مع قال تعالى (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) أي معها ، وقال عليه السلام « الذود إلى الذود إبل » أي مع

قال الزجاج : كلمة (إلى) ليست بمعنى مع فانك لو قلت ذهب زيد إلى عمر ولم يجز أن تقول : ذهب زيد مع عمر وأن (إلى) تفيد الغاية و(مع) تفيد ضم الشيء إلى الشيء ، بل المراد من قولنا أن (إلى) هنا بمعنى (مع) هو أنه يفيد فائتها من حيث أن المراد من يضيف نصرته إلى نصرة الله إباهي وكذلك المراد من قوله (ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم) أي لا تأكلوا أموالهم مضمومة إلى أموالكم ، وكذلك قوله عليه السلام « الذود إلى الذود إبل » معناه : الذود مضموماً إلى الذود إبل (الرابع) أن يكون المعنى من أنصاري فيما يكون قربة إلى الله ووسيلة إليه ، وفي الحديث أنه ﷺ كان يقول إذا صحي « اللهم منك وإليك » أي تقربا إليك ، ويقول الرجل لغيره عند دعائه إباه (إلى) أي انضم إلى ، فكذا هنا المعنى من أنصاري فيما يكون قربة إلى الله تعالى (الخامس) أن يكون (إلى) بمعنى اللام كأنه قال : من أنصاري الله نظيره قوله تعالى (قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق) (والسادس) تقدير الآية : من أنصاري في سبيل الله . و(إلى) بمعنى (في) جائز ، وهذا قول الحسن .

أما قوله تعالى (قال الحواريون نحن أنصار الله) ففيه مسائل .

﴿ المَسَأَةُ الْأُولَى ﴾ ذكروا في لفظ (الحواري) وجوهاً (الأول) أن الحواري اسم موضوع لخاصة الرجل ، وحالته ، ومنه يقال للدقيق حواري ، لأنه هو الحال منه ، وقال ﷺ للزبير « إنه ابن عمتي ، وحواري من أمتي » والحواريات من النساء النقيات الألوان والجلود ، فعلى هذا الحواريون هم صفوة الأنبياء الذين خلصوا وأخلصوا في التصديق بهم وفي نصرتهم .

﴿ القول الثاني ﴾ الحواري أصله من الحور ، وهو شدة البياض ، ومنه قيل للدقيق حواري ، ومنه الأحور ، والحور نقاء بياض العين ، وحورت الثياب : بيضتها ، وعلى هذا القول اختلفوا في أن أولئك لم سموا بهذا الاسم ؟ فقال سعيد بن جبير : لبياض ثيابهم ، وقيل كانوا قصارين ، يبيضون الثياب ، وقيل لأن قلوبهم كانت نقية طاهرة من كل نفاق وريبة فسموا بذلك مدحّا لهم ، وإشارة إلى نقاء قلوبهم ، كالثوب الأبيض ، وهذا كما يقال فلان نقى الحبيب ، طاهر الذيل ، إذا كان بعيداً عن الأفعال الذميمة ، وفلان دنس الثياب ، إذا كان مقدماً على ما لا ينبغي .

﴿ القول الثالث ﴾ قال الضحاك : مر عيسى عليه السلام بقوم من الذين كانوا يغسلون الثياب ، فدعاهم إلى الإيمان فآمنوا ، والذي يغسل الثياب يسمى بلغة النبط هواري ، وهو

القصار فعربت هذه اللفظة فصارت حواري ، وقال مقاتل بن سليمان : الحواريون : هم القصارون ، وإذا عرفت أصل هذا اللفظ فقد صار يعرف الاستعمال دليلاً على خواص الرجل وبطانته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا في أن هؤلاء الحواريين من كانوا؟ .

﴿ فالقول الأول ﴾ إنه عليه السلام مر بهم وهم يصطادون السمك فقال لهم « تعالوا نصطاد الناس » قالوا : من أنت؟ قال « أنا عيسى بن مريم ، عبد الله ورسوله » فطلبوها منه العجز على ما قال فلما أظهر المعجز آمنوا به ، فهم الحواريون .

﴿ القول الثاني ﴾ قالوا : سلمته أمه إلى صباغ ، فكان إذا أراد أن يعلمه شيئاً كان هو أعلم به منه وأراد الصباغ أن يغيب لبعض مهماته ، فقال له : ههنا ثياب مختلفة ، وقد علمت على كل واحد علامات معينة ، فاصبغها بتلك الألوان ، بحيث يتم المقصود عند رجوعي ، ثم غاب فطبخ عيسى عليه السلام جبأً واحداً ، وجعل الجميع فيه ، وقال « كوني باذن الله كما أريد » فرجم الصباغ فأخبره بما فعل فقال : قد أفسدت على الثياب ، قال « قم فانظر » فكان يخرج ثوباً أحمر ، وثوباً أخضر ، وثوباً أصفر كما كان يريد ، إلى أن أخرج الجميع على الألوان التي أرادها ، فتعجب الحاضرون منه ، وأمنوا به فهم الحواريون .

﴿ القول الثالث ﴾ كانوا الحواريون اثنى عشر رجلاً اتبعوا عيسى عليه السلام ، وكانوا إذا قالوا : يا روح الله جعنا ، فيضرب بيده إلى الأرض ، فيخرج لكل واحد رغيفان ، وإذا عطشوا قالوا يا روح الله : عطشنا ، فيضرب بيده إلى الأرض ، فيخرج الماء فيشربون ، فقالوا : من أفضل منا إذا شئنا أطعمنا ، وإذا شئنا سقيتنا ، وقد آمنا بك فقال « أفضل منكم من يعمل بيده ، ويأكل من كسبه » فصاروا يغسلون الثياب بالكراء ، فسموا حواريين .

﴿ القول الرابع ﴾ أنهم كانوا ملوكاً قالوا وذلك أن واحداً من الملوك صنع طعاماً ، وجمع الناس عليه ، وكان عيسى عليه السلام على قصعة منها ، فكانت القصعة لا تنقص ، فذكروا هذه الواقعة لملك ، فقال : تعرفونه ، قالوا : نعم ، فذهبوا بعيسى عليه السلام ، قال : من أنت؟ قال : أنا عيسى بن مريم ، قال فاني أترك ملكي وأتبعك فتبعد ذلك الملك مع أقاربه ، فأولئك هم الحواريون قال الفقال : ويجوز أن يكون بعض هؤلاء الحواريين الاثني عشر من الملوك ، وبعضهم من صيادي السمك ، وبعضهم من القصارين ، والكل سموا بالحواريين لأنهم كانوا أنصار عيسى عليه السلام ، وأعوانه ، والمخلصين في محنته ، وطاعته ، وخدمته .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المراد من قوله (نحن أنصار الله) أي نحن أنصار دين الله وأنصار أنبيائه ، لأن نصرة الله تعالى في الحقيقة محال ، فالمراد منه ما ذكرناه .

أما قوله (آمنا بالله) فهذا يجري بجري ذكر العلة ، والمعنى يجب علينا أن نكون من أنصار الله ، لأجل أنا آمنا بالله ، فإن الإيمان بالله يوجب نصرة دين الله ، والذب عن أوليائه ، والمحاربة مع أعدائه .

ثم قالوا (وأشهد بأننا مسلمون) وذلك لأن إشهادهم عيسى عليه السلام على أنفسهم ، إشهاد الله تعالى أيضاً ، ثم فيه قوله (الأول) المراد وأشهد أنا منقادون لما تريده منا في نصرتك ، والذب عنك ، مستسلمون لأمر الله تعالى فيه (الثاني) أن ذلك إقرار منهم بأن دينهم الإسلام ، وأنه دين كل الأنبياء صلوات الله عليهم .

واعلم أنهم لما أشهدوا عيسى عليه السلام على إيمانهم ، وعلى إسلامهم تضرعوا إلى الله تعالى ، وقالوا (ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتتبنا مع الشاهدين) وذلك لأن القوم آمنوا بالله حين قالوا : في الآية المتقدمة (آمنا بالله) ثم آمنوا بكتب الله تعالى حيث قالوا (آمنا بما أنزلت) وأمنوا برسول الله حيث ، قالوا (واتبعنا الرسول) فعند ذلك طلبوا الزلفة والثواب ، فقالوا (فاكتتبنا مع الشاهدين) وهذا يقتضي أن يكون للشاهدين فضل يزيد على فضل الحواريين ، ويفضل على درجته ، لأنهم هم المخصوصون بأداء الشهادة قال الله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداً على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) (والثاني) وهو منقول أيضاً عن ابن عباس (اكتتبنا مع الشاهدين) أي اكتتبنا في زمرة الأنبياء لأن كلنبي شاهد لقومه قال الله تعالى (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين) .

وقد أجاب الله تعالى دعاءهم وجعلهم أنبياء ورسلا ، فاحيوا الموتى ، وصنعوا كل ما صنع عيسى عليه السلام .

﴿ والقول الثالث ﴾ (اكتتبنا مع الشاهدين) أي اكتتبنا في جملة من شهد لك بالتوحيد ولأنبيائك بالتصديق ، والمقصود من هذا أنهم لما أشهدوا عيسى عليه السلام على إسلام أنفسهم ، حيث قالوا (وأشهد بأننا مسلمون) فقد أشهدوا الله تعالى على ذلك تأكيداً للأمر ، وتقوية له ، وأيضاً طلبوا من الله مثل ثواب كل مؤمن شهد الله بالتوحيد ولأنبيائه بالنبوة .

﴿ القول الرابع ﴾ إن قوله (فاكتتبنا مع الشاهدين) إشارة إلى إن كتاب الأبرار إنما يكون في السموات مع الملائكة قال الله تعالى (كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين) فإذا كتب الله ذكرهم مع الشاهدين المؤمنين كان ذكرهم مشهوراً في الملأ الأعلى وعند الملائكة المقربين .

﴿ القول الخامس ﴾ أنه تعالى قال (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم) فجعل أولو العلم من الشاهدين ، وقرن ذكرهم بذكر نفسه ، وذلك درجة عظيمة ، ومرتبة عالية ، فقالوا (فاكتبنا مع الشاهدين) أي اجعلنا من تلك الفرقة الذين قرنت ذكرهم بذكرك .

﴿ القول السادس ﴾ أن جبريل عليه السلام لما سأله محمد ﷺ عن الإحسان فقال « أن تعبد الله كأنك تراه » وهذا غاية درجة العبد في الاستغلال بالعبودية ، وهو أن يكون العبد في مقام الشهود ، لا في مقام الغيبة ، فهو لاء القوم لما صاروا كاملين في درجة الاستدلال أرادوا الترقى من مقام الاستدلال ، إلى مقام الشهود والمكاشفة ، فقالوا (فاكتبنا مع الشاهدين) .

﴿ القول السابع ﴾ إن كل من كان في مقام شهود الحق لم يبال بما يصل إليه من المشاق والآلام ، فلما قبلوا من عيسى عليه السلام أن يكونوا ناصرين له ، ذابين عنه ، قالوا (فاكتبنا مع الشاهدين) أي اجعلنا من يكون في شهود جلالك ، حتى نصير مستحقين لكل ما يصل إلينا من المشاق والمتاعب فحينئذ يسهل علينا الوفاء بماالتزمناه من نصرة رسولك ونبيك .

ثم قال تعالى (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ أصل المكر في اللغة ، السعي بالفساد في خفية ومداجاة ، قال الزجاج : يقال مكر الليل ، وأمكر إذا أظلم : وقال الله تعالى (وإذا يمكر بك الذين كفروا) وقال (وما كنت لدليهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) وقيل أصله من اجتماع الأمر وإحكامه ، ومنه امرأة ممكورة ، أي مجتمعة الخلق وإحکام الرأي يقال له الإجماع والجمع قال الله تعالى (فأجمعوا أمركم وشركاءكم) فلما كان المكر رأياً محكماً قوياً مصوناً عن جهات النقص والفتور ، لا جرم سمي مكرأً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أما مكرهم بعيسى عليه السلام ، فهو أنهم هموا بقتله ، وأما مكر الله تعالى بهم ، ففيه وجوه (الأول) مكر الله تعالى بهم هو أنه رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ، وذلك أن يهودا ملك اليهود ، أراد قتل عيسى عليه السلام ، وكان جبريل عليه السلام ، لا يفارقه ساعة ، وهو معنى قوله (وأيدناه بروح القدس). فلما أرادوا ذلك أمره جبريل عليه السلام أن يدخل بيته فيه روزنة ، فلما دخلوا البيت أخرجه جبريل عليه السلام من تلك الروزنة ، وكان قد ألقى شبهه على غيره ، فأخذ وصلب ففرق الحاضرون ثلاثة فرق ، فرقة قالت : كان الله فينا فذهب ، وأخرى قالت : كان ابن الله ، والأخرى قالت : كان عبد الله ورسوله ، فاكرمه بأن رفعه إلى السماء ، وصار لكل فرقة جم فظهرت الكافرتان

على الفرقة المؤمنة إلى أن بعث الله تعالى محمداً ﷺ ، وفي الجملة ، فالمراد من مكر الله بهم أن رفعه إلى السباء وما مكنته من إيصال الشر إليه .

﴿ الوجه الثاني ﴾ أن الحواريين كانوا اثني عشر ، وكانوا مجتمعين في بيت فنافق رجال منهم ، ودل اليهود عليه ، فألقى الله شبهه عليه ورفع عيسى ، فأخذوا ذلك المنافق الذي كان فيهم ، وقتلوه وصلبوه على ظن أنه عيسى عليه السلام ، فكان ذلك هو مكر الله بهم .

﴿ الوجه الثالث ﴾ ذكر محمد بن إسحق أن اليهود عذبوا الحواريين بعد أن رفع عيسى عليه السلام ، فشمسوهم وعدبوهم ، فلقوا منهم الجهد فبلغ ذلك ملك الروم ، وكان ملك اليهود من رعيته فقيل له إن رجلاً منبني إسرائيل من تحت أمرك كان يخبرهم أنه رسول الله ، وأراهم إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص فقتل ، فقال : لو علمت ذلك لحلت بيته وبينهم ، ثم بعث إلى الحواريين ، فانتزعهم من أيديهم وسائلهم عن عيسى عليه السلام ، فأخبروه فتابعهم على دينهم ، وأنزل المصلوب فغيبه ، وأخذ الحشبة فأكرمواها وصانها ، ثم غزابني إسرائيل وقتل منهم خلقاً عظيماً ومنه ظهر أصل النصرانية في الروم ، وكان اسم هذا الملك طباريس ، وهو صار نصراانياً ، إلا أنه ما أظهر ذلك ، ثم إنه جاء بعده ملك آخر ، يقال له : مطليس ، وغزا بيت المقدس بعد ارتفاع عيسى بنحو من أربعين سنة ، فقتل وسيبي ولم يترك في مدينة بيت المقدس حجراً على حجر فخرج عند ذلك قريطة والتضير إلى الحجاز فهذا كل ما جازاهم الله تعالى على تكذيب المسيح والهم بقتله .

﴿ القول الرابع ﴾ أن الله تعالى سلط عليهم ملك فارس حتى قتلهم ، وسباهم ، وهو قوله تعالى (ثم بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد) فهذا هو مكر الله تعالى بهم .

﴿ القول الخامس ﴾ يحتمل أن يكون المراد أنهم مكرروا في إخفاء أمره ، وإبطال دينه ومكر الله بهم حيث أعلى دينه وأظهر شريعته وقهر بالذل والدناءة أعداءه وهم اليهود والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المكر عبارة عن الإحتيال في إيصال الشر ، والاحتياط على الله تعالى محال فصار لفظ المكر في حقه من المشابهات وذكروا في تأويله وجوهاً (أحداً) أنه تعالى سمي جزاء المكر بالمكر ، كقوله (وجذاء سيئة مثلها) وسمى جذاء المخادعة بالمخادعة ، وجذاء الاستهزاء بالاستهزاء (والثاني) أن معاملة الله معهم كانت شبيهة بالمكر فسمى بذلك (الثالث) أن هذا اللفظ ليس من المشابهات ، لأنه عبارة عن التدبير المحكم الكامل ثم اختص في العرف بالتدبیر في إيصال الشر إلى الغير ، وذلك في حق الله تعالى غير ممتنع والله

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعِيسَى إِنِّي مُتَوْفِيقٌ وَرَافِعٌ إِلَيْكَ مَطْهَرٌ مِنَ الظَّنِّ كَفَرُوا وَجَاءُوكُمْ الَّذِينَ أَتَبَعُوكُمْ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَيْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيهَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦﴾

أعلم .

قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعِيسَى إِنِّي مُتَوْفِيقٌ وَرَافِعٌ إِلَيْكَ مَطْهَرٌ مِنَ الظَّنِّ كَفَرُوا وَجَاءُوكُمْ الَّذِينَ أَتَبَعُوكُمْ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَيْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيهَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ العامل في (إذ) قوله (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) أي وجد هذا المكر إذ قال الله هذا القول ، وقيل التقدير : ذاك إذ قال الله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعترفوا بأن الله تعالى شرف عيسى في هذه الآية بصفات :

﴿ الصفة الأولى ﴾ (إنني متوفيك) ونظيره قوله تعالى حكاية عنه (فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم) واختلف أهل التأويل في هاتين الآيتين على طريقتين (أحددهما) إجراء الآية على ظاهرها من غير تقديم ، ولا تأخير فيها (والثاني) فرض التقديم والتأخير فيها ، أما الطريق الأول في بيانه من وجوه (الأول) معنى قوله (إنني متوفيك) أي متمن عمرك ، فحيثند أتوفاك ، فلا أتركهم حتى يقتلوك ، بل أنا رافعك إلى سمائي ، ومقربك بملائكتي ، وأصونك عن أن يتمكنوا من قتلك وهذا تأويل حسن (والثاني) (متوفيك) أي ميتك ، وهو مروي عن ابن العباس ، ومحمد بن إسحاق قالوا : والمقصود أن لا يصل أعداؤه من اليهود إلى قتلها ثم إنه بعد ذلك أكرمه بأن رفعه إلى السماء ثم اختلفوا على ثلاثة أوجه (أحددها) قال وهب : توفي ثلاثة ساعات ، ثم رفع (وثانيها) قال محمد ابن إسحاق : توفي سبع ساعات ، ثم أحياه الله ورفعه (الثالث) قال الربيع بن أنس : أنه تعالى توفاه حين رفعه إلى السماء ، قال تعالى (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها) .

﴿ الوجه الرابع ﴾ في تأويل الآية أن الواو في قوله (متوفيك ورافعك إلى) تفيد الترتيب فالآية تدل على أنه تعالى يفعل بهذه الأفعال ، فأما كيف يفعل ، ومتى يفعل ، فالأمر فيه موقف على الدليل ، وقد ثبت الدليل أنه حي وورد الخبر عن النبي ﷺ « أنه سينزل ويقتل

الدجال » ثم إنَّه تعالى يتوفاه بعد ذلك .

﴿ الوجه الخامس ﴾ في التأویل ما قاله أبو بكر الواسطي ، وهو أنَّ المراد (إني متوفيك) عن شهواتك وحظوظ نفسك ، ثم قال (ورافعك إلَيْ) وذلك لأنَّ من لم يصر فانياً عنها سوى الله لا يكون له وصول إلى مقام معرفة الله ، وأيضاً فعيسى لما رفع إلى السماء صار حاله كحال الملائكة في زوال الشهوة ، والغضب والأخلاق الذميمة .

﴿ الوجه السادس ﴾ إن التوفى أخذ الشيء وافياً ، ولما علم الله إن من الناس من يخطر بياله أنَّ الذي رفعه الله هو روحه لا جسده ذكر هذا الكلام ليدل على أنه عليه الصلاة والسلام رفع بقابله إلى السماء بروحه وبجسده ويدل على صحة هذا التأویل قوله تعالى (وما يضرونك من شيء) .

﴿ الوجه السابع ﴾ (إني متوفيك) أي أجعلك كالمتوفى لأنَّه إذا رفع إلى السماء وانقطع خبره وأثره عن الأرض كان كالمتوفى ، وإطلاق اسم الشيء على ما يشابهه في أكثر خواصه وصفاته جائز حسن .

﴿ الوجه الثامن ﴾ إن التوفى هو القبض يقال : وفاني فلان دراهمي وأوفاني وتوفيتها منه ، كما يقال : سلم فلان دراهمي إلى وتسليمتها منه ، وقد يكون أيضاً توفي بمعنى استوفى وعلى كلا الاحتالين كان إخراجه من الأرض وإصعاده إلى السماء توفياً له .

فإن قيل : فعل هذا الوجه كان التوفى عين الرفع إليه فيصير قوله (ورافعك إلى) تكراراً .

قلنا : قوله (إني متوفيك) يدل على حصول التوفى وهو جنس تحته أنواع بعضها بالموت وبعضها بالإصعاد إلى السماء ، فلما قال بعده (ورافعك إلَيْ) كان هذا تعينا للنوع ولم يكن تكراراً .

﴿ الوجه التاسع ﴾ أن يقدر فيه حذف المضاف والتقدير : متوفى عملك بمعنى مستوفي عملك (ورافعك إلَيْ) أي ورافع عملك إلى ، وهو قوله (إليه يصعد الكلم الطيب) والمراد من هذه الآية أنَّه تعالى بشره بقبول طاعته وأعماله ، وعرفه أنَّ ما يصل إليه من المتاعب والمشاق في تمشية دينه وإظهار شريعته من الأعداء فهو لا يضيع أجره ولا يهدم ثوابه ، فهذه جملة الوجوه المذكورة على قول من يجري الآية على ظاهرها .

﴿ الطريق الثاني ﴾ وهو قول من قال لا بد في الآية من تقديم وتأخير من غير أن يحتاج

فيها إلى تقديم أو تأخير ، قالوا : إن قوله (ورافعك إلى) يقتضي إنه رفعه حياً ، والواو لا تقتضي الترتيب ، فلم يبق إلا أن يقول فيها تقديم وتأخير ، والمعنى : أنني رافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالك إليك في الدنيا ، ومثله من التقديم والتأخير كثير في القرآن .

واعلم أن الوجوه الكثيرة التي قدمناها تغنى عن التزام خالفة الظاهر والله أعلم .
والمشبهة يتمسكون بهذه الآية في إثبات المكان لله تعالى وأنه في السماء ، وقد دللتا في الموضع الكثيرة من هذا الكتاب بالدلائل القاطعة على أنه يمتنع كونه تعالى في المكان فوجب حمل اللفظ على التأويل ، وهو من وجوه :

﴿ الوجه الأول ﴾ أن المراد إلى محل كرامتي ، وجعل ذلك رفعا إليه للتخفيم والتعظيم ومثله قوله (إني ذاهب إلى ربِّي) وإنما ذهب إبراهيم عليه السلام إلى الشام وقد يقول السلطان : ارفعوا هذا الأمر إلى القاضي ، وقد يسمى الحجاج زوار الله ، ويسمى المجاورون جيران الله ، والمراد من كل ذلك التخفيم والتعظيم فكذا ه هنا .

﴿ الوجه الثاني ﴾ في التأويل أن يكون قوله (ورافعك إلى) معناه إنه يرفع إلى مكان لا يملك الحكم عليه فيه غير الله لأن في الأرض قد يتولى الخلق أنواع الأحكام فأما السموات فلا حاكم هناك في الحقيقة وفي الظاهر إلا الله .

﴿ الوجه الثالث ﴾ إن بتقدير القول بأن الله في مكان لم يكن ارتفاع عيسى إلى ذلك سبيلاً لانتفاعه وفرجه بل إنما يتتفق بذلك لو وجد هناك مطلوبة من الشواب والروح والراحة والريحان ، فعلى كلا القولين لا بد من حمل اللفظ على أن المراد : ورافعك إلى محل ثوابك ومجازاتك ، وإذا كان لا بد من إضمار ما ذكرناه لم يق في الآية دلالة على إثبات المكان لله تعالى .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ من صفات عيسى قوله تعالى (ومطهرك من الذين كفروا) والمعنى مخرجك من بينهم ومفرق بينك وبينهم ، وكما عظم شأنه بلفظ الرفع إليه أخبر عن معنى التخلص بلفظ التطهير وكل ذلك يدل على المبالغة في إعلاء شأنه وتعظيم منصبه عند الله تعالى .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ قوله (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيمة) وجهان (الأول) أن المعنى : الذين اتبعوا دين عيسى يكونون فوق الذين كفروا به ، وهم

اليهود بالقهر والسلطان والاستعلاء إلى يوم القيمة ، فيكون ذلك إخباراً عن ذل اليهود وإنهم يكونون مقهورين إلى يوم القيمة ، فأما الذين اتبعوا المسيح عليه السلام فهم الذين كانوا يؤمنون بأنه عبد الله ورسوله وأما بعد الإسلام فهم المسلمون ، وأما النصارى فهم وإن أظهروا من أنفسهم موافقتهم يخالفونه أشد المخالفه من حيث أن صريح العقل يشهد أنه عليه السلام ما كان يرضي بشيء مما يقوله هؤلاء الجهال ، ومع ذلك فانا نرى أن دولة النصارى في الدنيا أعظم وأقوى من أمر اليهود فلا نرى في طرف من أطراف الدنيا ملكاً يهودياً ولا بلدة مملوءة من اليهود بل يكونون أين كانوا بالذلة والمسكينة وأما النصارى فأمرهم بخلاف ذلك (الثاني) أن المراد من هذه الفوقيه الفوقية بالحججه والدليل .

واعلم أن هذه الآية تدل على أن رفعه في قوله (ورافعك إلي) هو الرفعه بالدرجة والمنقبه ، لا بالمكان والجهة ، كما أن الفوقيه في هذه ليست بالمكان بل بالدرجة والرفعه .

أما قوله (ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) فالمعنى أنه تعالى بشر عيسى عليه السلام بأنه يعطيه في الدنيا تلك الخواص الشريفة ، والدرجات الرفيعة العالية ، وأما في القيمة فإنه يحكم بين المؤمنين به ، وبين الجاحدين برسالته ، وكيفية ذلك الحكم ما ذكره في الآية التي بعد هذه الآية (وبقي من مباحثت هذه الآية موضع مشكل) وهو أن نص القرآن دل على أنه تعالى حين رفعه ألقى شبهه على غيره على ما قال (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) والأخبار أيضاً واردة بذلك إلا أن الروايات اختلفت ، فتارة يروى أن الله تعالى ألقى شبهه على بعض الأعداء الذين دلوا اليهود على مكانه حتى قتلوا وصلبوه ، وتارة يروى أنه عليه السلام رغب بعض خواص أصحابه في أن يلقي شبهه حتى يقتل مكانه ، وبالجملة فكيفما كان ففي إلقاء شبهه على الغير إشكالات :

﴿ الإشكال الأول ﴾ إنما جوزنا إلقاء شبهه على إنسان آخر لزم السفسطة ، فاني إذا رأيت ولدي ثم رأيته ثانياً فحيثئذ أجوز أن يكون هذا الذي رأيته ثانياً ليس بولي بل هو إنسان ألقى شبهه عليه وحيثئذ يرتفع الأمان على المحسوسات ، وأيضاً فالصحابة الذين رأوا محمداً ﷺ يأمرهم وينهاهم وجب أن لا يعرفوا أنه محمد لاحتمال أنه ألقى شبهه على غيره وذلك يقضي إلى سقوط الشرائع ، وأيضاً فمدار الأمر في الأخبار المتواترة على أن يكون الخبر الأول إنما أخبر عن المحسوس ، فإذا جاز وقوع الغلط في المبصرات كان سقوط خبر المتواتر أولى وبالجملة ففتح هذا آباب أوله سفسطة وآخره إبطال النبوت بالكلية .

﴿ الإشكال الثاني ﴾ وهو أن الله تعالى كان قد أمر جبريل عليه السلام بأن يكون معه

في أكثر الأحوال ، هكذا قاله المفسرون في تفسير قوله (إِذْ أَيْدَتْك بِرُوحِ الْقَدْسِ) ثم إن طرف جناح واحد من أجنحة جبريل عليه السلام كان يكفي العالم من البشر فكيف لم يكفي في منع أولئك اليهود عنه ؟ وأيضاً أنه عليه السلام لما كان قادرًا على إحياء الموتى ، وإبراء الأكمة والأبرص ، فكيف لم يقدر على إماتة أولئك اليهود الذين قصدوا بالسوء وعلى إسقامهم وإلقاء الزمانة والفلج عليهم حتى يصيروا عاجزين عن التعرض له ؟ .

﴿ والإشكال الثالث﴾ إنه تعالى كان قادرًا على تخلصه من أولئك الأعداء بأن يرفعه إلى السماء فيما الفائدة في إلقاء شبهه على غيره ، وهل فيه إلا إلقاء مسكين في القتل من غير فائدة إليه ؟ .

﴿ والإشكال الرابع﴾ أنه إذا ألقى شبهه على غيره ثم إن رفع بعد ذلك إلى السماء فالقوم اعتقدوا فيه أنه هو عيسى مع أنه ما كان عيسى ، فهذا كان إلقاء لهم في الجهل والتلبس ، وهذا لا يليق بحكمة الله تعالى .

﴿ والإشكال الخامس﴾ أن النصارى على كثريتهم في مشارق الأرض وغارتها وشدة محبتهم للمسيح عليه السلام ، وغلوهم في أمره أخبروا أنهم شاهدوه مقتولاً مصلوباً ، فلو أنكرنا ذلك كان طعناً فيها ثبت بالتواتر ، والطعن في التواتر يوجب الطعن في نبوة محمد ﷺ ، ونبيو عيسى ، بل في وجودهما ، وجود سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكل ذلك باطل .

﴿ والإشكال السادس﴾ أنه ثبت بالتواتر أن المصلوب بقي حياً زماناً طويلاً ، فلو لم يكن ذلك عيسى بل كان غيره لأظهر البزاع ، ولقال : إنني لست بعيسى بل إنما أنا غيره ، ولبالغ في تعريف هذا المعنى ، ولو ذكر ذلك لاشتهر عند الخلق هذا المعنى ، فلما لم يوجد شيء من هذا علمنا أن ليس الأمر على ما ذكرتكم ، فهذا جملة ما في الموضوع من السؤالات :

(والجواب عن الأول) أن كل من أثبت القادر المختار ، سلم أنه تعالى قادر على أن يخلق إنساناً آخر على صورة زيد مثلاً ، ثم إن هذا التصوير لا يوجب الشك المذكور ، فكذا القول فيما ذكرتم :

(والجواب عن الثاني) أن جبريل عليه السلام لو دفع الأعداء عنه أو أقدر الله تعالى عيسى عليه السلام على دفع الأعداء عن نفسه لبلغت معجزته إلى حد الإجلاء ، وذلك غير جائز .

فَإِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعْذِبْهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِنْ نَصِيرٍ ۝

(وهذا هو الجواب عن الإشكال الثالث) فإنه تعالى لو رفعه إلى السماء وما ألقى شبهه على الغير لبلغت تلك المعجزة إلى حد الإبلاء .

(والجواب عن الرابع) أن تلامذة عيسى كانوا حاضرين ، وكانوا عالمين بكيفية الواقع ، وهم كانوا يزيلون ذلك التلبيس .

(والجواب عن الخامس) أن الحاضرين في ذلك الوقت كانوا قليلين ودخول الشبهة على الجمع القليل جائز والتواتر إذا انتهى في آخر الأمر إلى الجمع القليل لم يكن مفيداً للعلم .

(والجواب عن السادس) إن بتقدير أن يكون الذي ألقى شبهة عيسى عليه السلام عليه كان مسلماً وقبل ذلك عن عيسى جائز أن يسكت عن تعريف حقيقة الحال في تلك الواقع ، وبالجملة فالأسئلة التي ذكروها أمور تتطرق الإحتفالات إليها من بعض الوجوه ، ولما ثبت بالعجز القاطع صدق محمد ﷺ في كل ما أخبر عنه امتنع صيروحة هذه الأسئلة المحتملة معارضة للنص القاطع ، والله ولي الهدية .

قوله تعالى ﴿ فَإِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعْذِبْهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِنْ نَصِيرٍ ۝

أعلم أنه تعالى لما ذكر (إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) بين بعد ذلك مفصلاً ما في ذلك الإختلاف ، أما الإختلاف فهو أن كفر قوم وأمن آخرون ، وأما الحكم فيمن كفر فهو أن يعذبه عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة ، وأما الحكم فيمن آمن وعمل الصالحات ، فهو أن يوفيهم أجورهم ، وفي الآية مسائل :

﴿ المَسْأَلَةُ الْأُولَى ﴾ أَمَاعْذَابُ الْكَافِرِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ مِنْ وِجْهِنَّمِ (أَحَدُهَا) القُتْلُ وَالسُّبْيُ وما شاكله ، حتى لو ترك الكفر لم يحسن بإيقاعه به ، فذلك داخل في عذاب الدنيا (والثاني) ما يلحق الكافر من الأمراض والمصائب ، وقد اختلفوا في أن ذلك هل هو عقاب أم لا ؟ قال بعضهم : إنه عقاب في حق الكافر ، وإذا وقع مثله للمؤمن فإنه لا يكون عقاباً بل يكون ابتلاء وامتحاناً ، ويكون جارياً مجرى الحدود التي تقام على النائب ، فإنها لا تكون عقاباً بل

وَمَا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوْفَقُهُمْ أَجُورُهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾

امتحانا ، والدليل عليه أنه تعالى يعد الكل بالصبر عليها والرضا بها والتسليم لها وما هذا حاله لا يكون عقابا .

فإن قيل : فقد سلمتم في الوجه الأول إنه عذاب الكافر على كفره ، وهذا على خلاف قوله تعالى (ولو يؤخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابه) وكلمة (لو) تفيد انتفاء الشيء لإنتفاء غيره ، فوجب أن لا توجد المؤاخذة في الدنيا ، وأيضاً قال تعالى (اليوم تحزى كل نفس مما كسبت) وذلك يقتضي حصول المجازاة في ذلك اليوم ، لا في الدنيا ، قلنا : الآية الدالة على حصول العقاب في الدنيا خاصة ، والآيات التي ذكرت موجهاً عامة ، والخاص مقدم على العام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لقائل أن يقول وصف العذاب بالشدة ، يقتضي أن يكون عقاب الكافر في الدنيا أشد ، ولسنا نجد الأمر كذلك ، فإن الأمر تارة يكون على الكفار وأخرى على المسلمين ، ولا نجد بين الناس تفاوتا .

قلنا ؛ بل التفاوت موجود في الدنيا ، لأن الآية في بيان أمر اليهود الذين كذبوا بعيسي عليه السلام ، ونرى الذلة والمسكينة لازمة لهم ، فزال الإشكال .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ وصف تعالى هذا العذاب بأنه ليس لهم من ينصرهم ويدفع ذلك العذاب عنهم .

فإن قيل : أليس قد يمتنع على الأئمة والمؤمنين قتل الكفار بسبب العهد وعقد ال dette .

قلنا : المانع هو العهد ، ولذلك إذا زال العهد حل قتله .

ثم قال تعالى ﴿ وَمَا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوْفَقُهُمْ أَجُورُهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وفي مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾قرأ حفص عن عاصم (فيوفيهم) بالياء ، يعني فيوفيهم الله ، والباقيون بالنون حملوا على ما تقدم من قوله (فأحکم ، فأعذبهم) وهو الأولى لأنه نسق الكلام .

ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْحَكِيمِ ﴿٨١﴾

تقديم من قوله (فأحكם ، فأعدبهم) وهو الأولى لأنه نسق الكلام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر الذين آمنوا ، ثم وصفهم بأنهم عملوا الصالحات ، وذلك يدل على أن العمل الصالح خارج عن مسمى الإيمان ، وقد تقدم ذكر هذه الدلالة مراراً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتاج من قال بأن العمل علة للجزاء بقوله (فتوفيهم أجورهم) فشبههم في عبادتهم لأجل طلب الثواب بالمستأجر ، والكلام فيه أيضاً قد تقدم والله أعلم .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ المعتزلة احتجوا بقوله (والله لا يحب الظالمين) على أنه تعالى لا يريد الكفر والمعاصي ، قالوا : لأن مرید الشيء لا بد وأن يكون حبا له ، إذا كان ذلك الشيء من الأفعال وإنما تختلف المحبة الإرادة إذا علقنا بالأشخاص ، فقد يقال : أحب زيدا ، ولا يقال : أريده ، وأما إذا علقنا بالأفعال : فمعناها واحد إذا استعملتا على حقيقة اللغة ، فصار قوله (والله لا يحب الظالمين) بمنزلة قوله (لا يريد ظلم الظالمين) هكذا قرره القاضي ، وعند أصحابنا أن المحبة عبارة عن إرادة إيصال الخير إليه فهو تعالى وإن أراد كفر الكافر إلا أنه لا يريد إيصال الثواب إليه ، وهذه المسألة قد ذكرناها مراراً وأطواراً .

ثم قال تعالى ﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (ذلك) إشارة إلى ما تقدم من نبأ عيسى وزكرياء وغيرهما ، وهو مبتدأ ، خبره (نتلوه) و (من الآيات) خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذف ، ويجوز أن يكون ذلك بمعنى الذي ، و (نتلوه) صلتة ، و (من الآيات) الخبر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ التلاوة والقصص واحد في المعنى ، فان كلا منها يرجع معناه إلى شيء يذكر بعضه على إثر بعض ، ثم إنه تعالى أضاف التلاوة إلى نفسه في هذه الآية ، وفي قوله (نتلو عليك من نبأ موسى) وأضاف القصص إلى نفسه فقال (نحن نقص عليك أحسن القصص) وكل ذلك يدل على إنه تعالى جعل تلاوة الملك جارية مجرى تلاوته سبحانه وتعالى ، وهذا تشريف عظيم للملك ، وإنما حسن ذلك لأن تلاوة جبريل عليه السلام لما كان بأمره من غير تفاوت أصلاً أضيف بذلك إليه سبحانه وتعالى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (من الآيات) يحتمل أن يكون المراد منه ، أن ذلك من آيات القرآن ويحتمل أن يكون المراد منه أنه من العلامات الدالة على ثبوت رسالتك ، لأنها أخبار لا

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ إِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلَ آدَمَ خَلْقَهُ، مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٩﴾

يعلمها إلا قارئ من كتاب أو من يوحى إليه ، فظاهر أنك لا تكتب ولا تقرأ فبقي أن ذلك من الوحي .

» المسألة الرابعة « (والذكر الحكيم) فيه قوله (الأول) المراد منه القرآن وفي وصف القرآن بكونه ذكرا حكما وجوه (الأول) إنه بمعنى الحاكم مثل القدير والعليم ، والقرآن حاكم يعني أن الأحكام تستفاد منه (والثاني) معناه ذو الحكمـة في تأليفه ونظمـه وكثرة علومـه (والثالث) أنه بمعنى المحـكم ، فـعـيل بـمعـنى مـفـعـل ، قال الأـزـهـري : وهو شـائـع فـي الـلـغـة ، لأن حـكـمـتـ يـجـريـ أحـكـمـتـ فـيـ المعـنىـ ، فـرـدـ إـلـىـ الأـصـلـ ، وـمـعـنىـ المـحـكـمـ فـيـ الـقـرـآنـ أـنـهـ أحـكـمـ عنـ تـطـرقـ وـجـوـهـ الـخـلـلـ إـلـيـهـ قـالـ تـعـالـىـ (أـحـكـمـ آـيـاتـهـ) (والرابع) أنـ يـقـالـ الـقـرـآنـ لـكـثـرـةـ حـكـمـهـ إـنـهـ يـنـطـقـ بـالـحـكـمـةـ ، فـوـصـفـ بـكـوـنـهـ حـكـيـماـ عـلـىـ هـذـاـ التـأـوـيلـ .

» القول الثاني « أن المراد بالذكر الحكيم هنا غير القرآن ، وهو اللوح المحفوظ الذي منه نقلت جميع الكتب المنزلة على الأنبياء عليهم السلام ، أخبر أنـهـ تـعـالـىـ أـنـزـلـ هـذـاـ القـصـصـ مـاـ كـتـبـ هـنـالـكـ ، وـالـلـهـ أـعـلـمـ بـالـصـوـابـ .

قوله تعالى » إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقـهـ منـ تـرـابـ ثـمـ قـالـ لـهـ كـنـ فـيـكـوـنـ « .

أجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت عند حضور وفد نجران على الرسول ﷺ ، وكان من جملة شبهـهمـ أـنـ قـالـواـ : يـاـ مـحـمـدـ ، لـمـ اـسـلـمـتـ أـنـهـ لـأـبـ لـهـ مـنـ الـبـشـرـ وـجـبـ أـنـ يـكـوـنـ أـبـوـهـ هوـ اللـهـ تـعـالـىـ ، فـقـالـ : إـنـ آـدـمـ مـاـ كـانـ لـهـ أـبـ وـلـأـمـ وـلـمـ يـلـزـمـ أـنـ يـكـوـنـ اـبـنـ اللـهـ تـعـالـىـ ، فـكـذـاـ القـوـلـ فـيـ عـيـسـىـ عـلـيـهـ السـلـامـ ، هـذـاـ حـاـصـلـ الـكـلـامـ ، وـأـيـضاـ إـذـاـ جـازـ أـنـ يـخـلـقـ اللـهـ تـعـالـىـ آـدـمـ مـنـ التـرـابـ فـلـمـ لـيـجـوزـ أـنـ يـخـلـقـ عـيـسـىـ مـنـ دـمـ مـرـيـمـ ؟ـ بـلـ هـذـاـ أـقـرـبـ إـلـىـ الـعـقـلـ ، فـاـنـ تـولـدـ الـحـيـوانـ مـنـ الدـمـ الـذـيـ يـجـتـمـعـ فـيـ رـحـمـ الـأـمـ أـقـرـبـ مـنـ تـولـدـهـ التـرـابـ الـيـابـسـ ، هـذـاـ تـلـخـيـصـ الـكـلـامـ .

ثم هنا مسائل :

» المسألة الأولى « (مثل عيسى عند الله كمثل آدم) أي صفتـهـ كـصـفـةـ آـدـمـ وـنظـيرـهـ قولـهـ تعالىـ (مـثـلـ الجـنـةـ الـتـيـ وـعـدـ الـمـقـوـنـ)ـ أيـ صـفـةـ الجـنـةـ .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (خلقه من تراب) ليس بصلة لأدم ولا صفة ولكنه خبر مستأنف على جهة التفسير بحال آدم ، قال الزجاج : هذا كما تقول في الكلام مثلك كمثل زيد ، تريد أن تشبهه به في أمر من الأمور ، ثم تخبر بقصة زيد فتقول فعل كذا وكذا .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اعلم أن العقل دل على أنه لا بد للناس من والد أول ، وإلا لزم أن يكون كل ولد مسبوق بوالد لا إلى أول وهو محال ، والقرآن دل على أن ذلك الوالد الأول هو آدم عليه السلام كما في هذه الآية ، وقال (يا أيها الناس انقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها) وقال (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها) ثم إنه تعالى ذكر في كيفية خلق آدم عليه السلام وجوها كثيرة (أحدها) أنه مخلوق من التراب كما في هذه الآية (والثاني) أنه مخلوق من الماء ، قال الله تعالى (وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً) (والثالث) أنه مخلوق من الطين قال الله تعالى (الذي أحسن كل شيء خلقه وببدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين) (والرابع) أنه مخلوق من سلاله من طين قال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين) (الخامس) أنه مخلوق من طين لازب قال تعالى (إنا خلقناهم من طين لازب) (السادس) إنه مخلوق من صلصال قال تعالى (إني خالق بشراً من صلصال من حماً مسنون) (السابع) أنه مخلوق من عجل ، قال تعالى (خلق الإنسان من عجل) (الثامن) قال تعالى (لقد خلقنا الإنسان في كبد) ، أما الحكماء فقالوا : إنما خلق آدم عليه السلام من تراب لوجهه : (الأول) ليكون متواضعاً (الثاني) ليكون ستاراً (الثالث) ليكون أشد التصاقاً بالأرض ، وذلك لأنه إنما خلق خلقة أهل الأرض ، قال تعالى (إني جاعل في الأرض خليفة) (الرابع) أراد إظهار القدرة فخلق الشياطين من النار التي هي أضوا الأجرام وأعطاهم كمال الشدة بظلمات الضلال ، وخلق الملائكة من الهواء الذي هو ألطاف الأجرام وأعطاهم كمال الشدة والقوة ، وخلق آدم عليه السلام من التراب الذي هو أكتاف الأجرام ، ثم أعطاه المحبة والمعرفة والنور والهدایة ، وخلق السموات من أمواج مياه البحار وأيقاها معلقة في الهواء حتى يكون خلقه هذه الأجرام برهاناً باهراً ودليلًا ظاهراً على أنه تعالى هو المدبّر بغير احتياج ، والخالق بلا مزاج وعلاج (الخامس) خلق الإنسان من تراب ليكون مطفئاً لنار الشهوة ، والغضب ، والحرص ، فان هذه النيران لا تطفأ إلا بالتراب وإنما خلقه من الماء ليكون صافياً تتجلّ في صور الأشياء ، ثم إنه تعالى مزج بين الأرض والماء ليتمزج الكثيف فيصير طيناً وهو قوله (إني خالق بشراً من طين) ثم إنه في المرتبة الرابعة قال (ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين) والسلالة بمعنى المفعولة لأنها هي التي تسل من ألطاف أجزاء الطين ، ثم إنه في المرتبة السادسة أثبت له من الصفات ثلاثة أنواع :

(أحدها) أنه من صلصال والصلصال : اليابس الذي إذا حرك تصلصل كالحذف الذي يسمع من داخله صوت . (والثاني) الحما وهو الذي استقر في الماء مدة ، وتغير لونه إلى السواد .

(الثالث) تغير رأسمته قال تعالى (فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسعه) أي لم يتغير .

فهذه جملة الكلام في التوفيق بين الآيات الواردة في خلق آدم عليه السلام .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ في الآية إشكال ، وهو أنه تعالى قال (خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) فهذا يقتضي أن يكون خلق آدم متقدما على قول الله له (كن) وذلك غير جائز .

وأجاب عنه من وجوه (الأول) قال أبو مسلم : قد بينا أن الخلق هو التقدير والتسوية ، ويرجع معناه إلى علم الله تعالى بكيفية وقوعه وإراداته لا يقع على الوجه المخصوص وكل ذلك متقدم على وجود آدم عليه السلام تقدما من الأزل إلى الأبد ، وأما قوله (كن) فهو عبارة عن إدخاله في الوجود فثبت أن خلق آدم متقدم على قوله (كن) .

﴿ والجواب الثاني ﴾ وهو الذي عول عليه القاضي أنه تعالى خلقه من الطين ثم قال له (كن) أي احياء كما قال (ثم أنشأه خلقا آخر) فان قيل الضمير في قوله خلقه راجع إلى آدم وحين كان تربا لم يكن آدم عليه السلام موجودا .

أجاب القاضي وقال : بل كان موجودا وإنما وجد بعد حياته ، وليست الحياة نفس آدم وهذا ضعيف لأن آدم عليه السلام ليس عبارة عن مجرد الأجسام المشكلة بالشكل المخصوص ، بل هو عبارة عن هوية أخرى مخصوصة وهي : إما المزاج المعطل ، أو النفس ، وينجز الكلام من هذا البحث إلى أن النفس ما هي ، ولا شك أنها من أغمض المسائل .

(الجواب) الصحيح أن يقال لما كان ذلك الهيكل بحيث سيصير آدم عن قريب سماه آدم عليه السلام قبل ذلك ، تسمية لما سيقع بالواقع .

﴿ والجواب الثالث ﴾ أن قوله (ثم قال له كن فيكون) يفيد تراخي هذا الخبر عن ذلك الخبر كما في قوله تعالى (ثم كان من الذين آمنوا) ويقول القائل : أعطيت زيدا اليوم ألفا ثم أعطيته ألفين ، ومراده : أعطيته اليوم ألفا ، ثم أنا أخبركم أنني أعطيته ألفين فكذا قوله (خلقه من تراب) أي صيره خلقا سويا ثم إنه يخبركم أنني إنما خلقته بأن قلت له (كن) .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ في الآية إشكال آخر وهو أنه كان ينبغي أن يقال : ثم قال له كن

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ

فكان فلم يقل كذلك بل قال (كن فيكون) .

(والجواب) تأويل الكلام ، ثم قال له (كن فيكون) فكان .

واعلم يا محمد أن ما قال له ربك (كن) فإنه يكون لا محالة .

قوله تعالى ﴿الحق من ربك فلا تكن من المترفين﴾ وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال الفراء ، والزجاج قوله (الحق) خبر مبتدأ محذوف ، والمعنى : الذي أنبأك من قصة عيسى عليه السلام ، أو ذلك النبأ في أمر عيسى عليه السلام (الحق) فمحذف لكونه معلوما ، وقال أبو عبيدة هو استئناف بعد انتفاء الكلام ، وخبره قوله (من ربك) وهذا كما تقول الحق من الله ، والباطل من الشيطان ، وقال آخرون : الحق ، رفع باضمار فعل أي جاءك الحق .

وقيل : أيضاً إنه مرفوع بالصفة وفيه تقديم وتأخير ، تقديره : من ربك الحق فلا تكن .

﴿المسألة الثانية﴾ الامتراء الشك ، قال ابن الأنباري : هو مأخذ من قول العرب مررت الناقة والشاة إذا حلبتها فكان الشك يجتذب بشكه مراء كاللين الذي يجتذب عند الحلب ، يقال قد مارى فلان فلانا إذا جادله ، كأنه يستخرج غضبه ، ومنه قيل الشكر يمثري المزيد أي يجلبه .

﴿المسألة الثالثة﴾ في الحق تأويلان (الأول) قال أبو مسلم المراد أن هذا الذي أنزلت عليك هو الحق من خبر عيسى عليه السلام لا ما قالت النصارى واليهود ، فالنصارى قالوا : إن مريم ولدت إلها ، واليهود رموا مريم عليها السلام بالإفك ونسبوها إلى يوسف النجار ، فالله تعالى بين أن هذا الذي أنزل في القرآن هو الحق ثم نهى عن الشك فيه ، ومعنى مترى مفتعل من المريء وهي الشك .

﴿والقول الثاني﴾ أن المراد أن الحق في بيان هذه المسألة ما ذكرناه من المثل وهو قصة آدم عليه السلام فإنه لا بيان لهذه المسألة ولا برهان أقوى من التمسك بهذه الواقعية والله أعلم .

﴿المسألة الرابعة﴾ قوله تعالى (فلا تكن من المترفين) خطاب في الظاهر مع النبي

، وهذا بظاهره يقتضي أنه كان شاكا في صحة ما أنزل عليه ، وذلك غير جائز ، واختلف الناس في الجواب عنه ، فمنهم من قال : الخطاب وإن كان ظاهره مع النبي عليه الصلاة والسلام إلا أنه في المعنى مع الأمة قال تعالى (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء) (والثاني) أنه خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام والمعنى : فدم على يقينك ، وعلى ما أنت عليه من ترك الأمداء .

قوله تعالى « فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ » .

أعلم أن الله تعالى بين في أول هذه السورة وجوها من الدلائل القاطعة على فساد قول النصارى بالزوجة والولد ، وأتبعها بذكر الجواب عن جميع شبھهم على سبيل الاستقصاء التام ، وختم الكلام بهذه النكتة القاطعة لفساد كلامهم ، وهو أنه لما لم يلزم من عدم الأب والأم البشريين لأدم عليه السلام أن يكون ابنا لله تعالى لم يلزم من عدم الأب البشري لعيسي عليه السلام أن يكون ابنا لله عن ذلك ولما لم يبعد إنخلاق آدم عليه السلام من التراب لم يبعد أيضاً إنخلاق عيسى عليه السلام من الدم الذي كان يجتمع في رحم أم عيسى عليه السلام ، ومن أنصف وطلب الحق ، علم أن البيان قد بلغ إلى الغاية القصوى ، فعند ذلك قال تعالى (فمن حجاجك) بعد هذه الدلائل الواضحة والجوابات اللاحقة فاقطع الكلام معهم وعاملهم بما يعامل به العابد ، وهو أن تدعوهم إلى الملاعنة فقال (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم) إلى آخر الآية ، ثم ه هنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اتفق أني حين كنت بخوارزم ، أخبرت أنه جاء نصراني يدعى التحقيق والتعقب في مذهبهم ، فذهبت إليه وشرعوا في الحديث وقال لي : ما الدليل على نبوة محمد ﷺ ، فقلت له كما نقل إلينا ظهور الخوارق على يد موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام ، نقل إلينا ظهور الخوارق على يد محمد ﷺ ، فان ردتنا التواتر ، أو قبلناه لكن

قلنا : إن المعجزة لا تدل على الصدق ، فحيثند بطلت نبوة سائر الأنبياء عليهم السلام ، وإن اعترفنا بصحة التواتر ، واعترفنا بدلالة المعجزة على الصدق ، ثم أنها حاصلان في حق محمد وجب الاعتراف قطعاً بنبوة محمد عليه السلام ضرورة أن عند الاستواء في الدليل لا بد من الاستواء في حصول المدلول ، فقال النصرياني : أنا لا أقول في عيسى عليه السلام إنه كاننبياً بل أقول إنه كان إلهاً ، فقلت له الكلام في النبوة لا بد وأن يكون مسبوقاً بمعرفة الإله وهذا الذي تقوله باطل ويدل عليه أن الإله عبارة عن موجود واجب الوجود لذاته ، يجب أن لا يكون جسماً ولا متحيزاً ولا عرضاً ويعنى عبارة عن هذا الشخص البشري الجساني الذي وجد بعد أن كان معذوماً وقتل بعد أن كان حياً على قولكم وكان طفلاً أولاً ، ثم صار متعرضاً ، ثم صار شاباً ، وكان يأكل ويشرب ويحدث وينام ويستيقظ ، وقد تقرر في بداعه العقول أن المحدث لا يكون قدرياً والمحاج لا يكون غنياً والممكناً لا يكون واجباً والمتغير لا يكون دائماً .

﴿ والوجه الثاني ﴾ في إبطال هذه المقالة أنكم تعرفون بأن اليهود أخذوه وصلبوه وتركوه حياً على الخشبة ، وقد مزقوا ضلعه ، وأنه كان يحتال في الهرب منهم ، وفي الإنففاء عنهم ، وحين عاملوه بتلك المعاملات أظهر الجزع الشديد ، فإن كان إلهاً أو كان الإله حالاً فيه أو كان جزءاً من الإله حاك فيه ، فلم لم يدفعهم عن نفسه ؟ ولم لم يملكون بالكلية ؟ وأي حاجة به إلى إظهار الجزع منهم والاحتلال في الفرار منهم ! وبالله أنتي لأنني لأتعجب جداً ! إن العاقل كيف يليق به أن يقول هذا القول ويعتقد صحته ، فتكاد أن تكون بديهة العقل شاهدة بفساده .

(والوجه الثالث) وهو أنه : إما أن يقال بأن الإله هو هذا الشخص الجساني المشاهد ، أو يقال حل الإله بكليته فيه ، أو حل بعض الإله وجزء منه فيه والأقسام الثلاثة باطلة (أما الأول) فلأن الإله العالم لو كان هو ذلك الجسم ، فحين قتله اليهود كان ذلك قوله بأن اليهود قتلوا الإله العالم ، فكيف بقي العالم بعد ذلك من غير الإله ! ثم إن أشد الناس ذلاً ودناءة اليهود ، فالإله الذي قتله اليهود الإله في غاية العجز ! (وأما الثاني) وهو أن الإله بكليته حل في هذا الجسم ، فهو أيضاً فاسد ، لأن الإله لم يكن جسماً ولا عرضاً امتنع حلوله في الجسم ، وإن كان جسماً ، فحيثند يكون حلوله في جسم آخر عبارة عن اختلاط أجزائه بأجزاء ذلك الجسم ، وذلك يوجب وقوع التفرق في أجزاء ذلك الإله ، وإن كان عرضاً كان محتاجاً إلى المحل ، وكان الإله محتاجاً إلى غيره ، وكل ذلك سخيف ، (وأما الثالث) وهو أنه حل فيه بعض من أبعاض الإله ، وجزء من أجزائه ، فذلك أيضاً حمال لأن ذلك الجزء إن كان معتبراً في الإلهية ، فعند انفصاله عن الإله ، وجب أن لا يبقى الإله إلهاً ، وإن لم يكن معتبر في

تحقق الإلهية ، لم يكن جزأً من الإله ، فثبتت فساد هذه الأقسام ، فكان قول النصارى باطلًا .

﴿ الوجه الرابع ﴾ في بطلان قول النصارى ما ثبت بالتواتر أن عيسى عليه السلام كان عظيم الرغبة في العبادة والطاعة لله تعالى ، ولو كان إلهًا لاستحال ذلك ، لأن الإله لا يعبد نفسه ، فهذه وجوه في غاية الجلاء والظهور ، دالة على فساد قوله ، ثم قلت للنصراني : وما الذي ذلك على كونه إلهًا ؟ فقال الذي دل عليه ظهور العجائب عليه من إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص ، وذلك لا يمكن حصوله إلا بقدرة الإله تعالى ، فقلت له هل تسلم إنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول أم لا ؟ فان لم تسلم لزムك من نفي العالم في الأزل نفي الصانع ، وإن سلمت أنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول ، فأقول : لما جوزت حلول الإله في بدن عيسى عليه السلام ، فكيف عرفت أن الإله ما حل في بدني وبدنك وفي بدن كل حيوان ونبات ومجاد ؟ فقال : الفرق ظاهر ، وذلك لأنني إنما حكمت بذلك الحلول ، لأنه ظهرت تلك الأفعال العجيبة عليه ، والأفعال العجيبة ما ظهرت على يدي ولا على يدك ، فعلمنا أن ذلك الحلول مفقود ه هنا . فقلت له : تبين الآن أنك ما عرفت معنى قوله إنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول ، وذلك لأن ظهور تلك الخوارق دالة على حلول الإله في بدن عيسى : فعدم ظهور تلك الخوارق مني ومنك ليس فيه إلا أنه لم يوجد ذلك الدليل ، فإذا ثبت أنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول لا يلزم من عدم ظهور تلك الخوارق مني ومنك عدم الحلول في حق وفي حرك ، وفي حق الكلب والسنور والفار ثم قلت : إن مذهبًا يؤدي القول به إلى تحويل حلول ذات الله في بدن الكلب والذباب لففي غاية الحسنة والركاكة .

﴿ الوجه الخامس ﴾ أن قلب العصا حية ، أبعد في العقل من إعادة الميت حيًا ، لأن المشاكلة بين بدن الحي وبدن الميت أكثر من المشاكلة بين الخشبة وبين بدن الشعبان ، فإذا لم يوجب قلب العصا حية كون موسى إلهًا ولا ابنًا للإله ، فإن لا يدل إحياء الموتى على الإلهية كان ذلك أولى ، وعند هذا انقطع النصراني ولم يبق له كلام والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ روي أنه عليه السلام لما أورد الدلائل على نصارى نجران ، ثم إنهم أصرروا على جهلهم ، فقال عليه السلام « إن الله أمرني إن لم تقبلوا الحجة أن أبا هلكم » فقالوا : يا أبا القاسم ، بل نرجع فننظر في أمر نائم نأريك فلما رجعوا قالوا للعاقب : وكان ذا رأيهم ، يا عبد المسيح ما ترى ، فقال : والله لقد عرفتم يا معاشر النصارى أن محمداًنبي مرسلاً ، ولقد جاءكم بالكلام الحق في أمر صاحبكم ، والله ما باهمل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ولئن فعلتم لكان الاستئصال فان أبيتم إلا الإصرار على دينكم والإقامة على ما أنتم عليه ، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم وكان رسول الله ﷺ خرج عليه مرط من

شعرأسود ، وكان قد احتضن الحسين وأخذ بيد الحسن ، وفاطمة تمشي خلفه ، وعلى رضي الله عنه خلفها ، وهو يقول ، إذا دعوت فأمنوا ، فقال أسقف نجران : يا معاشر النصارى ، إني لأرى وجوهاً لوسائل الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها ، فلا تباهلو فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراً إلى يوم القيمة ، ثم قالوا : يا أبا القاسم ، رأينا أن لا نباهلك وأن نقرك على دينك فقال صلوات الله عليه : فإذا أبىتم المباهلة فأسلموا ، يكن لكم ما للمسلمين ، وعليكم ما على المسلمين ، فأبوا ، فقال : فاني أناجزكم الفتال ، قالوا ما لنا بحرب العرب طاقة ، ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تردننا عن ديننا على أن نؤدي إليك في كل عام ألفي حلة : الفا في صفر ، وألفا في رجب ، وثلاثين درعاً عادية من حديد ، فصالحهم على ذلك ، وقال : والذي نفسي بيده ، إن الهاك قد تدلي على أهل نجران ، ولو لاعنا لمسخوا قردة وخنازير ، ولا ضرر عليهم الوادي ناراً ، ولا تستأصل الله نجران وأهله ، حتى الطير على رؤس الشجر ، وما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا ، وروى أنه عليه السلام لما خرج في المرط الأسود ، فجاء الحسن رضي الله عنه فأدخله ، ثم جاء الحسين رضي الله عنه فأدخله ثم فاطمة ، ثم على رضي الله عنها ثم قال (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويظهركم تطهيراً) واعلم أن هذه الرواية كالمتفق على صحتها بين أهل التفسير والحديث .

﴿المسألة الثالثة﴾ (فمن حاجك فيه) أي في عيسى عليه السلام ، وقيل : اهاء تعود إلى الحق ، في قوله (الحق من ربك - من بعد ما جاءك من العلم) بأن عيسى عبد الله ورسوله عليه السلام وليس المراد هنا بالعلم نفس العلم لأن العلم الذي في قلبه لا يؤثر في ذلك ، بل المراد بالعلم ما ذكره بالدلائل العقلية ، والدلائل الواصلة إليه بالوحي والتنزيل ، فقل تعالى : أصله تعالىوا ، لأنه تفاعلوا من العلو ، فاستثقلت الضمة على الياء ؛ فسكت ، ثم حذفت لاجتماع الساكنين ، وأصله العلو والارتفاع ، فمعنى تعالى ارفع ، إلا أنه كثري في الاستعمال حتى صار لكل مجيء ، وصار منزلة هلم .

﴿المسألة الرابعة﴾ هذه الآية دالة على أن الحسن والحسين عليهما السلام كانوا ابني رسول الله ﷺ ، وعد أن يدعوا أبناءه ، فدعا الحسن والحسين ، فوجب أن يكونا ابنيه ، وما يؤكّد هذا قوله تعالى في سورة الأنعام (ومن ذريته داود وسليمان) إلى قوله (وزكرييا ويعصى وعيسى) ومعلوم أن عيسى عليه السلام إنما انتسب إلى إبراهيم عليه السلام بالأم لا بالأب ، فثبت أن ابن البنت قد يسمى ابنًا والله أعلم .

﴿المسألة الخامسة﴾ كان في الري رجل يقال له : محمود بن الحسن الحمصي ، وكان معلم

الاثني عشرية ، وكان يزعم أن علياً رضي الله عنه أفضل من جميع الأنبياء سوى محمد عليه السلام ، قال : والذى يدل عليه قوله تعالى (وأنفسنا وأنفسكم) وليس المراد بقوله (وأنفسنا) نفس محمد ﷺ لأن الإنسان لا يدعون نفسه بل المراد به غيره ، وأجمعوا على أن ذلك الغير كان على بن أبي طالب رضي الله عنه ، فدللت الآية على أن نفس علي هي نفس محمد ، ولا يمكن أن يكون المراد منه ، أن هذه النفس هي عين تلك النفس ، فالمراد أن هذه النفس مثل تلك النفس ، وذلك يقتضي الاستواء في جميع الوجوه ، ترك العمل بهذا العموم في حق النبوة ، وفي حق الفضل لقيام الدلائل على أن محمداً عليه السلام كان نبياً وما كان على كذلك ، ولانعقاد الإجماع على أن محمداً عليه السلام كان أفضل من علي رضي الله عنه ، فيبقى فيما وراءه عمولاً به ، ثم الإجماع دل على أن محمداً عليه السلام كان أفضل من سائر الأنبياء عليهم السلام فيلزم أن يكون على أفضل من سائر الأنبياء ، فهذا وجه الاستدلال بظاهر هذه الآية ، ثم قال : و يؤيد الاستدلال بهذه الآية ، الحديث المقبول عند المواقف والمخالف ، وهو قوله عليه السلام « من أراد أن يرى آدم في علمه ، ونوحًا في طاعته ، وإبراهيم في خلته ، وموسى في هيبته ، وعيسى في صفوته ، فلينظر إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه » فالحديث دل على أنه اجتمع فيه ما كان متفرقاً فيهم ، وذلك يدل على أن علياً رضي الله عنه أفضل من جميع الأنبياء سوى محمد ﷺ ، وأما سائر الشيعة فقد كانوا قدّيماً وحديثاً يستدلون بهذه الآية على أن علياً رضي الله عنه مثل نفس محمد عليه السلام إلا فيما خصه الدليل ، وكان نفس محمد أفضل من الصحابة رضوان الله عليهم ، فوجب أن يكون نفس علي أفضل أيضاً من سائر الصحابة ، هذا تقدير كلام الشيعة ، والجواب : أنه كما انعقد الإجماع بين المسلمين على أن محمداً عليه السلام أفضل من علي ، فكذلك انعقد الإجماع بينهم قبل ظهور هذا الإنسان ، على أن النبي أفضل من ليس بنبي ، وأجمعوا على أن علياً رضي الله عنه ما كان نبياً ، فلزم القطع بأن ظاهر الآية كما أنه مخصوص في حق محمد ﷺ ، فكذلك مخصوص في حق سائر الأنبياء عليهم السلام .

﴿ المسألة السادسة﴾ قوله (ثم نتبهل) أي نتأهل ، كما يقال اقتل القوم وتقاتلوا واصطحبوا وتتصاحبوا ، والابتهال فيه وجهان (أحدهما) أن الابتهال هو الاجتهد في الدعاء ، وإن لم يكن باللعنة ، ولا يقال : ابتهل في الدعاء إلا إذا كان هناك اجتهداد (والثاني) أنه مأخوذ من قولهم عليه بهله الله ، أي لعنته وأصله مأخوذ مما يرجع إلى معنى اللعن ، لأن معنى اللعن هو الإبعاد والطرد وبهله الله ، أي لعنه وأبعده من رحمته من قولك أبهله إذا أهمله ونقاقة باهله لا صرار عليها ، بل هي مرسلة مخلاة ، كالرجل الطريد المنفي ، وتحقيق معنى الكلمة : أن البهله إذا كان هو الإرسال والتخلية فكان من بهله الله فقد خلاه الله ووكله إلى نفسه ومن

وكله إلى نفسه فهو هالك لا شك فيه فمن باهل إنساناً ، فقال : على بهلة الله إن كان كذا ، يقول : وكلني الله إلى نفسي ، وفرضني إلى حولي وقوتي ، أي من كلامه وحفظه ، كالنافقة الباهل التي لا حافظ لها في ضرعها ، فكل من شاء حلبها وأخذ لبنها لا قوة لها في الدفع عن نفسها ، ويقال أيضاً : رجل باهل ، إذا لم يكن معه عصاً ، وإنما معناه أنه ليس معه ما يدفع عن نفسه ، والقول الأول أولى ، لأنه يكون قوله (ثم نبتهل) أي ثم نجتهد في الدعاء ، ونجعل اللعنة على الكاذب وعلى القول الثاني يصير التقدير : ثم نبتهل ، أي ثم نلتعن (فنجعل لعنة الله على الكاذبين) وهي تكرار ، بقى في الآية سؤالات أربع .

﴿ السؤال الأول ﴾ الأول إذا كانوا صغاراً لم يجز نزول العذاب بهم وقد ورد في الخبر إنه صلوات الله عليه أدخل في المباهلة الحسن والحسين عليهما السلام فما الفائدة فيه؟ .

(والجواب) إن عادة الله تعالى جارية بأن عقوبة الاستئصال إذا نزلت بقوم هلكت معهم الأولاد والنساء ، فيكون ذلك في حق البالغين عقاباً ، وفي حق الصبيان لا يكون عقاباً ، بل يكون جارياً مجرى إماتتهم وإيصال الآلام والأسقام إليهم ومعلوم أن شفقة الإنسان على أولاده وأهله شديدة جداً فربما جعل الإنسان نفسه فداء لهم وجنة لهم ، وإذا كان كذلك فهو عليه السلام أحضر صبياته ونساءه مع نفسه وأمرهم بأن يفعلوا مثل ذلك ليكون ذلك أبلغ في الزجر وأقوى في تخويف الخصم وأدل على وثوقه صلوات الله عليه وعلى آله بأن الحق معه .

﴿ السؤال الثاني ﴾ هل دلت هذه الواقعة على صحة نبوة محمد ﷺ ؟ .

(الجواب) أنها دلت على صحة نبوته عليه السلام من وجهين (أحدهما) وهو إنه عليه السلام خوفهم بنزول العذاب عليهم ، ولو لم يكن واثقاً بذلك ، لكن ذلك منه سعيًا في إظهار كذب نفسه لأن بتقدير : أن يرغبو في مباهلته ، ثم لا ينزل العذاب ، فحينئذ كان يظهر كذبه فيما أخبر ومعلوم أن محمد ﷺ وعلى آله وسلم كان من أعقل الناس ، فلا يليق به أن يعمل عملاً يفضي إلى ظهور كذبه فلما أصر على ذلك علمنا أنه إنما أصر عليه لكونه واثقاً بنزول العذاب عليهم (وثانيهما) إن القوم لما تركوا مباهلته ، فلو لا أنهم عرفوا من التوراة والإنجيل ما يدل على نبوته ، وإلا لما أحجموا عن مباهلته .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يقال : إنهم كانوا شاكين ، فتبركوا مباهلته خوفاً من أن يكون صادقاً فينزل بهم ما ذكر من العذاب؟ .

قلنا هذا مدفوع من وجهين (الأول) أن القوم كانوا يبذلونه الفوس والأموال في

إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ۝ فَإِنَّ تَوَلُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ۝

المجازة مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولو كانوا شاكين لما فعلوا ذلك (الثاني) أنه قد نقل عن أولئك النصارى إنهم قالوا : إنه والله هو النبي المبشر به في التوراة والإنجيل ، وإنكم لو باهتموه لحصل الاستصال فكان ذلك تصرحاً منهم بأن الامتناع عن المباهلة كان لأجل علمهم بأنهنبي مرسلا من عند الله تعالى .

﴿ السؤال الثالث ﴾ أليس إن بعض الكفار اشتغلوا بالمباهلة مع محمد ﷺ ؟ حيث قالوا (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء) ثم إنه لم ينزل العذاب بهم البة ، فكذا هنا ، وأيضاً في تقدير نزول العذاب ، كان ذلك مناقضاً لقوله (وما كان الله ليغذبهم وأنت فيهم) .

(والجواب) الخاص مقدم على العام ، فلما أخبر عليه السلام بنزول العذاب في هذه السورة على التعين وجوب أن يعتقد أن الأمر كذلك .

﴿ السؤال الرابع ﴾ قوله (إن هذا هو القصص الحق) هل هو متصل بما قبله أم لا ؟

(والجواب) قال أبو مسلم : إنه متصل بما قبله ولا يجوز الوقوف على قوله (الكاذبين) وتقدير الآية (ف يجعل لعنة الله على الكاذبين) بأن هذا هو القصص الحق وعلى هذا التقدير كان حق (إن) أن تكون مفتوحة ، إلا أنها كسرت لدخول اللام في قوله (هو) كما في قوله (إن ربهم بهم يومئذ خير) وقال الباقيون : الكلام تم عند قوله (على الكاذبين) وما بعده جملة أخرى مستقلة غير متعلقة بما قبلها والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ إن هذا هو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله هو العزيز الحكيم ، فإن تولوا فإن الله عليم بالمسدين ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (إن هذا) إشارة إلى ما تقدم ذكره من الدلائل ، ومن الدعاء إلى المباهلة (هو القصص الحق) والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين ، ويرشد إلى الحق ويأمر بطلب النجاة فيبين تعالى إن الذي أنزله على نبيه هو القصص الحق ليكون على ثقة من أمره ، والخطاب وإن كان معه فالمراد به الكل .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (هو) في قوله (هو القصص الحق) فيه قوله (أحدهما) أن يكون فصلاً وعِيادةً ، ويكون خبر (إن) هو قوله (القصص الحق) .

فإن قيل : فكيف جاز دخول اللام على الفصل ؟ .

قلنا : إذا جاز دخولها على الخبر كان دخولها على الفصل أجود ، لأنه أقرب إلى المبتدأ منه ، وأصلها أن تدخل على المبتدأ .

﴿ والقول الثاني ﴾ إنه مبتدأ ، والقصص خبره ، والجملة خبر (إن) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (هو) بتحريره أهاء على الأصل ، وبالسكون لأن اللام ينزل من (هو) منزلة بعضه فخفف كما خفف عضد .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ يقال : قص فلان الحديث يقصه قصاً وقصصاً ، وأصله اتباع الأثر ، يقال : خرج فلان قصصاً ، في أثر فلان ، وقصاً ، وذلك إذا اقتضى أثره ، ومنه قوله تعالى (وقالت لأخته قصصيه) وقيل للقاصص إنه قاصص ، لاتبعاه خبراً بعد خبر ، وسوقه الكلام سوقاً ، فمعنى القصص الخبر المشتمل على المعاني المتتابعة .

ثم قال (وما من إله إلا الله) وهذا يفيد تأكيد النفي ، لأنك لو قلت عندي من الناس أحد ، أفاد أن عندك بعض الناس ، فإذا قلت ما عندي من الناس من أحد ، أفاد أنه ليس عندك بعضهم ، وإذا لم يكن عندك بعضهم ، فإن لا يكون عندك كلهم أولى فثبت أن قوله (وما من إله إلا الله) مبالغة في أنه لا إله إلا الله الواحد الحق سبحانه وتعالى .

ثم قال (وإن الله هو العزيز الحكيم) وفيه إشارة إلى الجواب عن شبّهات النصارى ، وذلك لأن اعتمادهم على أمررين (أحدهما) أنه قادر على إحياء الموتى وإبراء الأكماء والأبرص ، فكأنه تعالى قال : هذا القدر من القدرة لا يكفي في الإلهية ، بل لا بد وأن يكون عزيزاً غالباً لا يدفع ولا يمنع ، وأنتم قد اعترفتم بأن عيسى ما كان كذلك ، وكيف وأنتم تقولون إن اليهود قتلواه ؟ (والثاني) أنهم قالوا : إنه كان يخرب عن الغيب وغيرها ، فيكون لها ، فكأنه تعالى قال : هذا القدر من العلم لا يكفي في الإلهية ، بل لا بد وأن يكون حكماً ، أي عالماً بجميع المعلومات وبجميع عواقب الأمور ، فذكر (العزيز الحكيم) ههنا إشارة إلى الجواب عن هاتين الشبهتين ونظير هذه الآية ما ذكره تعالى في أول السورة من قوله (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم) .

ثم قال (فان تولوا فإن الله عليم بالفسدين) والمعنى : فان تولوا عما وصفت من أن الله هو الواحد ، وأنه يجب أن يكون عزيزاً غالباً قادراً على جميع المقدورات ، حكماً عالماً بالعواقب

قُلْ يَتَاهُلَ الْكِتَبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ، بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نُشْرِكَ
بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا
مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾

والنهايات مع أن عيسى عليه السلام ما كان عزيزاً غالباً ، وما كان حكياً عالماً بالعواقب والنهايات . فاعلم أن توليهم وإعراضهم ليس إلا على سبيل العناد فاقطع كلامك عنهم وفوض أمرهم إلى الله ، فإن الله علیم بفساد المفسدين ، مطلع على ما في قلوبهم من الأغراض الفاسدة ، قادر على مجازاتهم .

قوله تعالى ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأننا مسلمون ﴾ .

واعلم أن النبي ﷺ لما أورد على نصارى نجران أنواع الدلائل وانقطعوا ، ثم دعاهم إلى المباهلة فخافوا وما شرعوا فيها وقبلوا الصغار بأداء الجزية ، وقد كان عليه السلام حريراً على إيمانهم ، فكانه تعالى قال : يا محمد اترك ذلك المنهج من الكلام واعدل إلى منهج آخر يشهد كل عقل سليم وطبع مستقيم أنه كلام مبني على الإنصاف وترك الجدال ، و(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) أي هلموا إلى كلمة فيها إنصاف من بعضنا البعض ، ولا ميل فيه لأحد على صاحبه ، وهي (أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً) هذا هو المراد من الكلام ولنذكر الآن تفسير الألفاظ .

أما قوله تعالى (يا أهل الكتاب) ففيه ثلاثة أقوال (أحدها) المراد نصارى نجران (والثاني) المراد يهود المدينة (والثالث) أنها نزلت في الفريقين ، ويدل عليه وجهان (الأول) أن ظاهر اللفظ يتناولهما (والثاني) روی في سبب التزول ، أن اليهود قالوا للنبي عليه الصلاة والسلام ، ما تريده إلا أن تتخذك رباً كما اتخذت النصارى عيسى ! وقالت النصارى : يا محمد ما تريده إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عزبر ! فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وعندى أن الأقرب حمله على النصارى ، لما بينا أنه لما أورد الدلائل عليهم أولاً ، ثم باهلوهم ثانياً ، فعدل في هذا المقام إلى الكلام المبني على رعاية الإنصاف ، وترك المجادلة ، وطلب الإفحام والإلزم ، وما يدل عليه ، أنه خاطبهم هنا بقوله تعالى (يا أهل الكتاب) وهذا الاسم من أحسن الأسماء

وأكمل الألقاب حيث جعلهم أهلاً لكتاب الله ، ونظيره ، ما يقال لحافظ القرآن يا حامل كتاب الله ، وللمفسر يا مفسر كلام الله ، فان هذا اللقب يدل على أن قاتله أراد المبالغة في تعظيم المخاطب وفي تطيب قلبه ، وذلك إنما يقال عند عدول الإنسان مع خصمه عن طريقة اللجاج والنزاع إلى طريقة طلب الإنصاف.

أما قوله تعالى (تعالوا) فالمراد تعين ما دعوا إليه والتوجه إلى النظر فيه وإن لم يكن انتقالاً من مكان إلى مكان لأن أصل اللفظ مأخوذ من التعالي وهو الارتفاع من موضع هابط إلى مكان عال ، ثم كثر استعماله حتى صار دالاً على طلب التوجيه إلى حيث يدعى إليه .

أما قوله تعالى (إلى الكلمة سواء بيننا) فالمعنى هلموا إلى الكلمة فيها إنصاف من بعضنا البعض ، لا ميل فيه لأحد على صاحبه ، والسواء هو العدل والإنصاف ، وذلك لأن حقيقة الإنصاف إعطاء النصف ، فان الواجب في العقول ترك الظلم على النفس وعلى الغير ، وذلك لا يحصل إلا بعطاء النصف ، فإذا أتصف وترك ظلمه أعطاه النصف فقد سوى بين نفسه وبين غيره وحصل الاعتدال ، وإذا ظلم وأخذ أكثر مما أعطى زال الاعتدال فلما كان من لوازם العدل والإنصاف التسوية جعل لفظ التسوية عبارة عن العدل .

ثم قال الزجاج (سواء) نعت للكلمة يريد : ذات سواء ، فعل هذا قوله (كلمة سواء) أي الكلمة عادلة مستقيمة مستوية ، فإذا آمنا بها نحن وأنتم كناع على سواء والاستقامة ، ثم قال (أن لا نعبد إلا الله) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ محل (أن) في قوله أن لا نعبد ، فيه وجهان (الأول) إنه رفع باضمار ، هي : كان قائلاً قال : ما تلك الكلمة؟ فقيل هي أن لا نعبد إلا الله (والثاني) خفض على البدل من : الكلمة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنه تعالى ذكر ثلاثة أشياء (أولها) (أن لا نعبد إلا الله) (وثانيةها) أن (لا نشرك به شيئاً) (ثالثتها) أن (لا يتخذ بعضاً أرباباً من دون الله) وإنما ذكر هذه الثلاثة لأن النصارى جمعوا بين هذه الثلاثة فيعبدون غير الله وهو المسيح ، ويشركون به غيره وذلك لأنهم يقولون إنه ثلاثة : أب وابن وروح القدس ، فأثبتوا ذوات ثلاثة قدية سواء ، وإنما قلنا : إنهم أثبتوا ذوات ثلاثة قدية ، لأنهم قالوا : إن أقئوم الكلمة تدرعت بناسوت المسيح ، وأقئوم روح القدس تدرعت بناسوت مريم ، ولو لا كون هذين الأقئومين ذاتين مستقلتين وإلا لما جازت عليهما مفارقة ذات الأب والتدرع بنا سوت عيسى ومريم ، ولما أثبتوا ذوات ثلاثة مستقلة فقد أشركوا ، وأما إنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله فيدل

يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمُحَاجَوَنَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أَنْزَلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٤٧﴾

عليه وجوه :

(أحدها) إنهم كانوا يطعونهم في التحليل والتحريم (والثاني) إنهم كانوا يسجدون لأخبارهم (والثالث) قال أبو مسلم : من مذهبهم أن من صار كاملاً في الرياضة والمجاهدة يظهر فيه أثر حلول اللاهوت ، فيقدر على إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص ، فهم وإن لم يطلقوا عليه لفظ الرب إلا أنهم أثبتوا في حقه معنى الربوبية (والرابع) هو أنهم كانوا يطعون أخبارهم في المعاصي ، ولا معنى للربوبية إلا ذلك ، ونظيره قوله تعالى (أرأيت من اتخذ إلهه هواه) فثبت أن النصارى جمعوا بين هذه الأمور الثلاثة ، وكان القول ببطلان هذه الأمور الثلاثة كالأمر المتفق عليه بين جمهور العقلاة وذلك ، ولأن قبل المسيح ما كان المعبود إلا الله ، فوجب أن يبقى الأمر بعد ظهور المسيح على هذا الوجه ، وأيضاً القول بالشريعة باطل باتفاق الكل ، وأيضاً إذا كان الخالق والمنعم بجميع النعم هو الله ، وجب أن لا يرجع في التحليل والتحريم والانقياد والطاعة إلا إليه ، دون الأخبار والرهبان ، فهذا هو شرح هذه الأمور الثلاثة .

ثم قال تعالى (فَإِنْ تُولُوا فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) والمعنى إن أبويا إلا الإصرار ، فقولوا إننا مسلمون ، يعني أظهروا إنكم على هذا الدين ، ولا تكونوا في قيد أن تحملوا غيركم عليه .

قوله تعالى ﴿ يا أهل الكتاب لم تجاجون في إبراهيم وما نزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلًا تعلقون ﴾ .

اعلم أن اليهود كانوا يقولون : إن إبراهيم كان على ديننا ، والنصارى كانوا يقولون : كان إبراهيم على ديننا ، فأبطل الله عليهم ذلك بأن التوراة والإنجيل ما أنزل إلا من بعده فكيف يعقل أن يكون يهودياً أو نصراً ؟ .

فإن قيل : فهذا أيضاً لازم عليكم لأنكم تقولون : إن إبراهيم كان على دين الإسلام ، فالإسلام إنما أنزل بعده بزمان طويل ، فإن قلت إن المراد أن إبراهيم كان في أصول الدين على

هَتَّا نَتَمْ هَتَّوْلَاءَ حَجَجُكُمْ فِيَالَّكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تَحْاجُونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصَارَائِيًّا وَلَكِنْ كَانَ
حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧﴾ إِنَّ أُولَئِكَ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ
أَتَبْعَهُ وَهَذَا أَلَّتِي وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

المذهب الذي عليه المسلمون الآن ، فنقول : فلم لا يجوز أيضاً أن تقول اليهود إن إبراهيم كان يهودياً بمعنى إنه كان على الدين الذي عليه اليهود ، وتقول النصارى إن إبراهيم كان نصرياناً بمعنى إنه كان على الدين الذي عليه النصارى ، فكون التوراة والإنجيل نازلين بعد إبراهيم لا ينافي كونه يهودياً أو نصرياناً بهذا التفسير ، كما إن كون القرآن نازلاً بعده لا ينافي كونه مسلماً :

(والجواب) إن القرآن أخبر أن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً ، وليس في التوراة والإنجيل أن إبراهيم كان يهودياً أو نصريانياً ، فظهر الفرق ، ثم نقول : أما إن النصارى ليسوا على ملة إبراهيم ، فالأمر فيه ظاهر ، لأن المسيح ما كان موجوداً في زمن إبراهيم ، فما كانت عبادته مشروعة في زمن إبراهيم لا محالة ، فكان الاشتغال بعبادة المسيح مخالفة ملة إبراهيم لا محالة ، وأما إن اليهود ليسوا على ملة إبراهيم فذلك لأنه لا شك إنه كان لله سبحانه وتعالى تكاليف على الخلق قبل مجيء موسى عليه السلام ، ولا شك إن الموصى لتلك التكاليف إلى الخلق واحد من البشر ، ولا شك أن ذلك الإنسان قد كان مؤيداً بالمعجزات ، وإن لم يجب على الخلق قبول تلك التكاليف منه فاذن قد كان قبل مجيء موسى أنبياء ، وكانت لهم شرائع معينة ، فاذا جاء موسى فاما أن يقال إنه جاء بتقرير تلك الشرائع ، أو بغيرها فان جاء بتقريرها لم يكن موسى صاحب تلك الشريعة ، بل كان كالفقير المقرر لشرع من قبله ، واليهود لا يرضون بذلك ، وإن كان قد جاء بشرع آخر سوى شرع من تقدمه فقد قال بالنسخ ، فثبت إنه لا بد وأن يكون دين كل الأنبياء جواز القول بالنسخ واليهود ينكرون ذلك ، فثبت أن اليهود ليسوا على ملة إبراهيم ، فبطل قول اليهود والنصارى بأن إبراهيم كان يهودياً أو نصريانياً ، فهذا هو المراد من الآية والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ هَا أَنْتُمْ هُؤُلَاءِ حَاجِجُكُمْ فِيَالَّكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تَحْاجُونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ أَعْلَمَ ﴾

يعلم وأنتم لا تعلمون ، ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصراوياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من الشركين إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ».

وفي مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ عاصم ومحزه والكسائي (ها أنتم) بالمد والهمزة وقرآنافع وأبو عمرو وبغير همز ولا مد ، إلا بقدر خروج الألف الساكنة وقرأ ابن كثير بالهمز والقصر على وزن (صنعتم) وقرأ ابن عامر بالمد دون الهمز ، فمن حرق فعلى الأصل ، لأنهما حرفان (ها) و(أنتم) ومن لم يمد ولم يهز فلتخفيف من غير إخلال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا في أصل (ها أنتم) فقيل (ها) تنبية والأصل (أنتم) وقيل أصله (أأنتم) فقلبت الهمزة الأولى هاء كقوفهم هرقت الماء وأرقت (هؤلاء) مبني على الكسر وأصله أولاء دخلت عليه ها التنبية ، وفيه لغتان : القصر والمد ، فان قيل : أين خبر أنتم في قوله ها أنتم ؟ قلنا فيه ثلاثة أوجه (الأول) قال صاحب الكشاف (ها) للتنبية (أنتم) مبتدأ (هؤلاء) خبره (حاججتم) جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى بمعنى : أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم وإن جادلتم فيما لكم به علم فلم ت الحاجون فيما ليس لكم به علم ؟ (والثاني) أن يكون (أنتم) مبتدأ ، وخبر (هؤلاء) بمعنى أولاء على معنى الذي وما بعده صلة له (الثالث) أن يكون (أنتم) مبتدأ (وهو هؤلاء) عطف بيان (حاججتم) خبره وتقديره : أنتم يا هؤلاء حاججتم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المراد من قوله (حاججتم فيما لكم به علم) هو أنهم زعموا أن شريعة التوراة والإنجيل مخالفة لشريعة القرآن فكيف ت الحاجون فيما لا علم لكم به وهو ادعاؤكم أن شريعة إبراهيم كانت مخالفة لشريعة محمد عليه السلام ؟ .

ثم يحتمل في قوله (ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم) أنه لم يصفهم في العلم حقيقة وإنما أراد إنكم تستجيزون محتاجته فيما تدعون علمه ، فكيف ت الحاجونه فيما لا علم لكم به البتة ؟ .

وَدَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضْلُونَكُمْ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَسْعُرُونَ ﴿٩٩﴾

ثم حق ذلك بقوله (والله يعلم) كيف كانت حال هذه الشرائع في المخالفه والموافقة (وأنتم لا تعلمون) كيفية تلك الأحوال .

ثم بين تعالى ذلك مفصلا فقال (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصريانياً) فكذبهم فيما ادعوه من موافقة لها .

ثم قال (ولكن كان حنيفاً مسلماً) وقد سبق تفسير الحنيف في سورة البقرة .

ثم قال (وما كان من المشركين) وهو تعریض بكون النصارى مشركين في قوله بإلهية المسيح وبكون اليهود مشركين في قوله بالتشبيه .

فإن قيل : قولكم إبراهيم على دين الإسلام أتریدون به الموافقة في الأصول أو في الفروع ؟ فان كان الأول لم يكن مختصاً بدين الإسلام بل نقطع بأن إبراهيم أيضاً على دين اليهود ، أعني ذلك الدين الذي جاء به موسى ، فكان أيضاً على دين النصارى ، أعني تلك الصرانية التي جاء بها عيسى فان أديان الأنبياء لا يجوز أن تكون مختلفة في الأصول ، وإن أردتم به الموافقة في الفروع ، فلزم أن لا يكون محمد عليه السلام صاحب الشرع البتة ، بل كان كالمقرر لدين غيره وأيضاً من المعلوم بالضرورة أن التعبد بالقرآن ما كان موجوداً في زمان إبراهيم عليه السلام فتلاؤه القرآن مشروعة في صلاتنا وغير مشروعة في صلاتهم . قلنا : جاز أن يكون المراد به الموافقة في الأصول والغرض منه بيان إنه ما كان موافقاً في أصول الدين لذهب هؤلاء الذين هم اليهود والنصارى في زماننا هذا ، وجاز أيضاً أن يقال المراد به الفروع وذلك لأن الله نسخ تلك الفروع بشرع موسى ، ثم في زمن محمد ﷺ نسخ شرع موسى عليه السلام الشريعة التي كانت ثابتة في زمن إبراهيم عليه السلام وعلى هذا التقدير يكون محمد عليه السلام صاحب الشريعة ثم لما كان غالب شرع محمد عليه السلام موافقاً لشرع إبراهيم عليه السلام ، فلو وقعت المخالفه في القليل لم يقدح ذلك في حصول الموافقة .

ثم ذكر تعالى (إن أولى الناس بإبراهيم) فريقان (أحدهما) من اتبعه من تقدم (والأخر) النبي وسائر المؤمنين .

ثم قال (والله ولي المؤمنين) بالنصرة والمعونة والتوفيق والإعظام والإكرام .

قوله تعالى ﴿ وَدَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضْلُونَكُمْ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا

يَأْمُلَ الْكِتَابِ لَمْ تَكُفُّرُونَ بِعَايَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشَهُّدُونَ ﴿٧﴾

بشعرون ». ﴿٧﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن من طريقة أهل الكتاب العدول عن الحق ، والإعراض عن نبول الحجة بين أنهم لا يقتصرؤن على هذا القدر ، بل يجتهدون في إضلال من آمن بالرسول عليه السلام بإلقاء الشبهات كقولهم : إن محمداً عليه السلام مقر بموسى وعيسى ويدعى لنفسه النبوة ، وأيضاً إن موسى عليه السلام أخبر في التوراة بأن شرعه لا يزول ، وأيضاً القول بالنسخ يفضي إلى البداء ، والغرض منه تنبية المؤمنين على أن لا يغتروا بكلام اليهود ، ونظير قوله تعالى في سورة البقرة (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد أيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم) قوله (ودوا لوتكفرون كما كفروا ف تكونون سواه) .

واعلم أن (من) هنا للتبعيض وإنما ذكر بعضهم ولم يعمهم لأن منهم من آمن وأثنى الله عليهم بقوله (منهم أمة مقتدية) (ومن أهل الكتاب أمة قائمة) وقيل نزلت هذه الآية في معاذ وعمار بن ياسر وحذيفة دعاهم اليهود إلى دينهم ، وإنما قال (لو يضلوكم) ولم يقل أن يضلوكم ، لأن (لو) للتنبيه فان قوله لو كان كذا يفيد التمني ونظيره قوله تعالى (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) .

ثم قال تعالى (وما يضلون إلا أنفسهم) وهو يتحمل وجوهها منها إهلاكهم أنفسهم باستحقاق العقاب على قصدهم إضلال الغير وهو كقوله (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) وقوله (وليحملن أثقالهم وأنثالاً مع أثقالهم) (وليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيمة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون) ومنها إخراجهم أنفسهم عن معرفة المهدى والحق لأن الذاهب عن الاهتداء يوصف بأنه ضال ومنها إنهم لما اجتهدوا في إضلال المؤمنين ثم إن المؤمنين لم يلتفتوا إليهم فهم قد صاروا خائبين خاسرين ، حيث اعتقادوا شيئاً ولا ح لهم أن الأمر بخلاف ما تصوروه .

ثم قال تعالى (وما يشعرون) أي وما يعلمون أن هذا يضرهم ولا يضر المؤمنين .

قوله تعالى « يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون » .

اعلم أنه تعالى لما بين حال الطائفة التي لا تشعر بما في التوراة من دلالة نبوة محمد ﷺ ،
بين أيضاً حال الطائفة العارفة بذلك من أخبارهم .

فقال (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (لم) أصلها لما ، لأنها : ما ، التي للاستفهام ، دخلت عليها
اللام فحذفت الألف لطلب الخفة ، وأن حرف الجر صار كالعوض عنها ولأنها وقعت طرفاً
ويدل عليها الفتحة وعلى هذا قوله (عم يتساءلون) و(فبم تبشرون) والوقف على هذه الحروف
يكون بالهاء نحو : فبمه ، وله .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في قوله (بآيات الله) وجوه (الأول) أن المراد منها الآيات الواردة في
التوراة والإنجيل ، وعلى هذا القول فيه وجوه (أحدها) ما في هذين الكتابين من البشرة
بمحمد عليه السلام ، ومنها ما في هذين الكتابين ، أن إبراهيم عليه السلام كان حنيفاً مسلماً ،
ومنها أن فيهما أن الدين هو الإسلام .

واعلم أن على هذا القول المحتمل لهذه الوجوه نقول : إن الكفر بالأيات يتحمل
وجهين : (أحدهما) أنهم ما كانوا كافرين بالتوراة بل كانوا كافرين بما يدل عليه التوراة
فأطلق اسم الدليل على المدلول على سبيل المجاز (والثاني) أنهم كانوا كافرين بنفس التوراة
لأنهم كانوا يحرفوها و كانوا ينكرون وجود تلك الآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ .

فأما قوله تعالى (وأنتم تشهدون) فالمعنى على هذا القول أنهم عند حضور المسلمين ،
وعند حضور عوامهم ، كانوا ينكرون اشتغال التوراة والإنجيل على الآيات الدالة على نبوة
محمد ﷺ ، ثم إذا خلا بعضهم مع بعض شهدوا بصحتها ، ومثله قوله تعالى (تبغونها عوجاً
وأنتم شهداً) .

واعلم أن تفسير الآية بهذا القول ، يدل على اشتغال هذه الآية على الإخبار عن الغيب
لأنه عليه الصلاة والسلام أخبرهم بما يكتمنه في أنفسهم ، ويظهرون غيره ، ولا شك أن
الإخبار عن الغيب معجز .

﴿ القول الثاني ﴾ في تفسير آيات الله أنها هي القرآن قوله (وأنتم تشهدون) يعني
أنكم تنكرن عند العوام كون القرآن معجزاً ثم تشهدون بقلوبكم وعقولكم كونه معجزاً .

﴿ القول الثالث ﴾ أن المراد بآيات الله جملة المعجزات التي ظهرت على يد النبي ﷺ وعلى
هذا القول قوله تعالى (وأنتم تشهدون) معناه أنكم إنما اعترفتم بدلالة المعجزات التي

يَأْمَلُ الْكِتَبِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾

ظهرت على سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الدالة على صدقهم ، من حيث أن المعجز قائم مقام التصديق من الله تعالى فإذا شهدتم بأن المعجز إنما دل على صدق سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من هذا الوجه ، وأنتم تشهدون حصول هذا الوجه في حق محمد ﷺ كان إصراركم على إنكار نبوته ورسالته مناقضاً لما شهدتم بحقيته من دلالة معجزات سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على صدقهم .

قوله تعالى ﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسو الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾ .

اعلم أن علماء اليهود والنصارى كانت لهم حرفة (إحداها) أنهم كانوا يكفرون بمحمد ﷺ مع إنهم كانوا يعلمون بقلوبهم أنه رسول حق من عند الله والله تعالى نهاهم عن هذه الحرفة في الآية الأولى (وثانيتها) إنهم كانوا يجتهدون في إلقاء الشبهات ، وفي إخفاء الدلائل والبيانات والله تعالى نهاهم عن هذه الحرفة في هذه الآية الثانية ، فالمقام الأول مقام الغواية والضلال والمقام الثاني مقام الإغواء والإضلal ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرئ (تلبسون) بالتشديد ، وقرأ يحيى بن وثاب (تلبسون) بفتح الباء ، أي تلبسون الحق مع الباطل ، كقوله عليه السلام « كلام ثوبي زور » قوله .

إذا هو بالمجد ارتدى وتأزرا

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن الساعي في إخفاء الحق لا سبيل له إلى ذلك إلا من أحد وجهين : إما بإلقاء شبهة تدل على الباطل ، وإما بإخفاء الدليل الذي يدل على الحق ، فقوله (لم تلبسون الحق بالباطل) إشارة إلى المقام الأول وقوله (وتكتمون الحق) إشارة إلى المقام الثاني أما لبس الحق بالباطل فإنه يتحمل ه هنا وجوهاً (أحدها) تحريف التوراة ، فيخلطون المنزل بالحرف ، عن الحسن وابن زيد (وثانيها) إنهم تواضعوا على إظهار الإسلام أول النهار ، ثم الرجوع عنه في آخر النهار ، تشكيكاً للناس ، عن ابن عباس وقتادة (وثالثها) أن يكون في التوراة ما يدل على نبوته ﷺ من البشرة والنعت والصفة ويكون في التوراة أيضاً ما

**وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِذَا مَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ
وَأَكْفَرُوا أَخْرَهُ لَعْلَهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾**

يوهم خلاف ذلك ، فيكون كالمحكم والتشابه فيلبسون على الضعفاء أحد الأمراء بالآخر كما يفعله كثير من المشبهة ، وهذا قول القاضي (ورابعها) أنهم كانوا يقولون محمداً معترض بأن موسى عليه السلام حق ، ثم إن التوراة دالة على إن شرع موسى عليه السلام لا ينسخ وكل ذلك إلقاء للشبهات .

أما قوله تعالى (وتكتمون الحق) فالمراد أن الآيات الموجودة في التوراة الدالة على نبوة محمد ﷺ كان الإستدلال بها مفتقرًا إلى التفكير والتأمل ، والقوم كانوا يجهدون في إخفاء تلك الألفاظ التي كان يجمعوها يتم هذا الاستدلال مثل ما أن أهل البدعة في زماننا يسعون في أن لا يصل إلى عوامهم دلائل المحققين .

أما قوله (وأنتم تعلمون) فيه وجوه (أحدها) إنكم تعلمون أنكم إنما تفعلون ذلك عناداً وحسداً (وثانيها) (وأنتم تعلمون) أي أنتم أرباب العلم والمعرفة لا أرباب الجهل والخرافة (وثالثها) (وأنتم تعلمون) أن عقاب من يفعل مثل هذه الأفعال عظيم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال القاضي : قوله تعالى (لم تكرون) و (لم تلبسون الحق بالباطل) دال على أن ذلك فعلهم ، لأنه لا يجوز أن يخلقه فيهم ، ثم يقول : لم فعلتم ؟ وجوابه : أن الفعل يتوقف على الداعية فتلك الداعية إن حدثت لا لحدث لزم نفي الصانع ، وإن كان محدثها هو العبد افتقر إلى إرادة أخرى وإن كان محدثها هو الله تعالى لزمكم ما ألمتموه علينا والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النار وأكفروا أخره لعلهم يرجعون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم يلبسون الحق بالباطل أردف ذلك بأن حكى عنهم نوعاً واحداً من أنواع تلبيساتهم ، وهو المذكور في هذه الآية وهنها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قول بعضهم بعض (آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار) ويحتمل أن يكون المراد كل ما أنزل وأن يكون المراد بعض ما أنزل .

﴿ أما الإِحْتَالُ الْأَوَّلُ ﴾ ففيه وجوه (الأول) أن اليهود والنصارى استخروا حيلة في تشكيك ضعفه المسلمين في صحة الإسلام ، وهو أن يظهروا تصديق ما ينزل على محمد ﷺ من الشرائع في بعض الأوقات ، ثم يظهروا بعد ذلك تكذيبه ، فان الناس متى شاهدوا هذا التكذيب ، قالوا : هذا التكذيب ليس لأجل الحسد والعناد ، وإنما آمنوا به في أول الأمر وإذا لم يكن هذا التكذيب لأجل الحسد والعناد وجب أن يكون ذلك لأجل أنهم أهل الكتاب وقد تفكروا في أمره واستقصوا في البحث عن دلائل نبوته فلاح لهم بعد التأمل التام ، والبحث الباقي أنه كذاب ، فيصير هذا الطريق شبه لضعفه المسلمين في صحة نبوته ، وقيل : توافطاً اثنا عشر رجلاً من أighbors يهود خبر على هذا الطريق .

وقوله (لعلهم يرجعون) معناه أنا متى ألقينا هذه الشبهة فلعل أصحابه يرجعون عن دينه .

﴿ الوجه الثاني ﴾ يحتمل أن يكون معنى الآية أن رؤساء اليهود والنصارى قال بعضهم لبعض نافقوا وأظهروا الوفاق للمؤمنين ، ولكن بشرط أن تثبتوا على دينكم إذا خلوتكم بإخوانكم من أهل الكتاب ، فان أمر هؤلاء المؤمنين في أضطراب فزجو الأ أيام معهم بالتفاق فربما ضعف أمرهم وأضمر حل دينهم ويرجعوا إلى دينكم ، وهذا قول أبي مسلم الأصفهاني ويدل عليه وجهان (الأول) أنه تعالى لما قال (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا) أتبعه بقوله (بشر المناقين) وهو منزلة قوله (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذاخلوا إلى شياطينهم قالوا إنما معكم إنما نحن مستهزئون) (والثاني) أنه تعالى أتبع هذه الآية بقوله (ولا تؤمنوا إلا من تبع دينكم) فهذا يدل على أنهم نهوا عن غير دينهم الذي كانوا عليه فكان قوله (آمنوا وجه النهار) أمر بالتفاق .

﴿ الوجه الثالث ﴾ قال الأصم : قال بعضهم لبعض إن كذبتموه في جميع ما جاء به فان عوامكم يعلمون كذبكم ، لأن كثيراً مما جاء به حق ولكن صدقوه في بعض وكذبوا في بعض حتى يحمل الناس تكذيبكم له على الإنفاق لا على العناد فيقبلوا قولكم .

﴿ الإِحْتَالُ الثَّالِثُ ﴾ أن يكون قوله (آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار وأكفروا آخره) بعض ما أنزل الله والقائلون بهذا القول حملوه على أمر القبلة وذكروا فيه وجهين (الأول) قال ابن عباس : وجه النهار أوله ، وهو صلاة الصبح وأكفروا آخره : يعني صلاة الظهر وتقريره أنه ﷺ كان يصلى إلى بيت المقدس بعد أن قدم المدينة ففرح اليهود بذلك وطمعوا أن يكون منهم ، فلما حوله الله إلى الكعبة كان ذلك عند صلاة الظهر قال كعب بن الأشرف وغيره (آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار) يعني آمنوا بالقبلة التي صلى

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدًا مِثْلَ مَا أُوتِيَتُمْ أَوْ يُحَاجِجُوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٦﴾ يَخْتَصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧﴾

إليها صلاة الصبح فهي الحق ، وأكفروا بالقبلة التي صلى إليها صلاة الظهر ، وهي آخر النهار ، وهي الكفر (الثاني) أنه لما حولت القبلة إلى الكعبة شق ذلك عليهم ، فقال بعضهم لبعض صلوا إلى الكعبة في أول النهار ، ثم أكفروا بهذه القبلة في آخر النهار وصلوا إلى الصخرة لعلهم يقولون إن أهل الكتاب أصحاب العلم فلو لا أنهم عرفوا بطلان هذه القبلة لما تركوها فحينئذ يرجعون عن هذه القبلة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الفائدة في إخبار الله تعالى عن تواضعهم على هذه الحيلة من وجوه (الأول) أن هذه الحيلة كانت مخفية فيما بينهم ، وما أطمعوا عليها أحداً من الأجانب ، فلما أخبر الرسول عنها كان ذلك إخباراً عن الغيب ، فيكون معجزاً (الثاني) أنه تعالى لما أطلع المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة لم يحصل لهذه الحيلة أثر في قلوب المؤمنين ، ولو لا هذا الإعلان لكان ربما أثرت هذه الحيلة في قلب بعض من كان في إيمانه ضعف (الثالث) أن القوم لما افتصحوا في هذه الحيلة صار ذلك رادعاً لهم عن الإقدام على أمثالها من الخيل والتلبيس .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ وجه النهار هو أوله ، والوجه في اللغة هو مستقبل كل شيء ، لأنه أول ما يواجه منه ، كما يقال لأول الثوب وجه الثوب ، روى ثعلب عن ابن الأعرابي : أتيته بوجه نهار ، وصدر نهار وشباب نهار ، أي أول النهار ، وأنشد الربيع بن زياد فقال :

من كان مسؤولاً بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار

ثم قال تعالى ﴿ ولا تؤمنوا إلا من اتبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يؤتني أحد مثل ما أوتitem أو يجاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتنيه من يشاء والله واسع عليم ، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

اتفق المفسرون على أن هذا بقية كلام اليهود ، وفيه وجهان (الأول) المعنى : ولا

تصدقوا إلا نبياً يقرر شرائع التوراة ، فأما من جاء بتغيير شيء من أحكام التوراة فلا تصدقه ، وهذا هو مذهب اليهود إلى اليوم ، وعلى هذا التفسير تكون (اللام) في قوله (إلا من تبع) صلة زائدة فإنه يقال صدقت فلاناً ، ولا يقال صدقت لفلان ، وكون هذه اللام صلة زائدة جائز ، كقوله تعالى (ردد لكم) والمراد ردكم (والثاني) أنه ذكر قبل هذه الآية قوله (آمنوا وجه النهار وأكفروا آخره) .

ثم قال في هذه الآية (ولا تؤمنوا إلا من تبع دينكم) أي لا تأتوا بذلك الإيمان إلا لأجل من تبع دينكم ، لأنهم قالوا : ليس الغرض من الإتيان بذلك التلبيس إلا بقاء أتباعكم على دينكم ، فالمعنى ولا تأتوا بذلك الإيمان إلا لأجل من تبع دينكم ، فإن مقصود كل واحد حفظ أتباعه وأشياعه على متابعته .

ثم قال تعالى (قل إن المدى هدى الله) قال ابن عباس رضي الله عنهم . معناه : الدين دين الله ومثله في سورة البقرة (قل إن هدى الله هو المدى) .

وأعلم أنه لا بد من بيان أنه كيف صار هذا الكلام جواباً عنها حكاها عنهم ؟ فنقول : أما على الوجه الأول وهو قوله لا دين إلا ما هم عليه ، فهذا الكلام إنما صلح جواباً عنه من حيث أن الذي هم عليه إنما ثبت دينًا من جهة الله ، لأنه تعالى أمر به وأرشد إليه وأوجب الانقياد له وإذا كان كذلك ، فمتى أمر بعد ذلك بغيره ، وأرشد إلى غيره ، وأوجب الانقياد إلى غيره كاننبياً يجب أن يتبع ، وإن كان مخالفًا لما تقدم ، لأن الدين إنما صار ديناً بحكمه وهدايته ، فحيثما كان حكمه وجبت متابعته ، ونظيره قوله تعالى جواباً لهم عن قوله (ما ولهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب) يعني الجهات كلها لله ، فله أن يحول القبلة إلى أي جهة شاء ، وأما على الوجه الثاني فالمعنى أن المدى هدى الله ، وقد جئتكم به فلن ينفعكم في دفعه هذا الكيد الضعيف .

ثم قال تعالى (أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يجاجوكم عند ربكم) .

وأعلم أن هذه الآية من المشكلات الصعبة ، فنقول هذا إما أن يكون من جملة كلام الله تعالى أو يكون من جملة كلام اليهود ، ومن تتمة قوله لا تؤمنوا إلا من تبع دينكم ، وقد ذهب إلى كل واحد من هذين الإحتمالين قوم من المفسرين .

﴿ أما الإِحْتَالُ الْأَوَّلُ ﴾ فيه وجوه (الأول)قرأ ابن كثير أن يؤتى بمد الألف على الاستفهام والباقيون بفتح الألف من غير مد ولا استفهام ، فإن أخذنا بقراءة ابن كثير ، فالوجه ظاهر وذلك لأن هذه اللفظة موضوعة للتوجيه كقوله تعالى (أن كان ذاماً وبينما إذا تلت عليه

آياتنا قال أسطير الأولين) والمعنى أمن أجل أن يؤتي أحد شرائع مثل ما أتيتم من الشرائع ينكرون أتباعه ؟ ثم حذف الجواب للاختصار ، وهذا الحذف كثير يقول الرجل بعد طول العتاب لصاحبه ، وتعديلده عليه ذنبه بعد كثرة إحسانه إليه أمن قلة إحساني إليك أمن إهانتي لك ؟ والمعنى أمن أجل هذا فعلت ما فعلت ؟ ونظيره قوله تعالى (أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربها) وهذا الوجه مروي عن مجاهد وعيسى بن عمر أما قراءة من قرأ بقصر الألف من (أمن) فقد يمكن أيضاً حملها على معنى الاستفهام كما قرئ (سواء عليهم آنذرتهم أم لم تنذرهم) بالمد والقصر ، وكذا قوله (أمن كان ذا مال وبنين) قرئ بالمد والقصر ، وقال امرؤ القيس :

تروح من الحي أَم تبتكر ؟
أراد أروح من الحي ؟ فحذف ألف الاستفهام ، وإذا ثبت أن هذه القراءة محتملة لمعنى الاستفهام كان التقدير ما شرحناه في القراءة الأولى .

﴿ الوجه الثاني ﴾ أَن أَوْلَئِكَ لَمَا قَالُوا لِأَتَبْعَاهُمْ : لَا تَؤْمِنُوا إِلَّا مَن تَبَعَ دِينَكُمْ أَمْرُ اللهِ تَعَالَى نَبِيَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَن يَقُولَ لَهُمْ (إِنَّ الْهَدِيَ هُدِيُّ اللهِ) فَلَا تَنْكِرُوا (أَن يُؤْتَى أَحَدٌ) سُوَاكُمْ مِنَ الْهَدِي (مِثْلُ مَا أَتَيْتُمْ) (أَوْ يَحْاجِجُوكُمْ) يَعْنِي هُؤُلَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِذَلِكَ (عِنْدَ رَبِّكُمْ) إِن لَمْ تَقْبِلُوا ذَلِكَ مِنْهُمْ ، أَقْصَى مَا فِي الْبَابِ إِنَّهُ يَفْتَرُ فِي هَذَا التَّأْوِيلَ إِلَيْ إِضْمَارِ قَوْلِهِ فَلَا تَنْكِرُوا لَاَنَّ عَلَيْهِ دَلِيلًا وَهُوَ قَوْلُهُ (إِنَّ الْهَدِيَ هُدِيُّ اللهِ) فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ الْهَدِيُّ هُدِيُّ اللهِ كَانَ لَهُ تَعَالَى أَن يُؤْتِيهِ مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَتَى كَانَ كَذَلِكَ لَزِمَّ تَرْكُ الْإِنْكَارِ .

﴿ الوجه الثالث ﴾ إِنَّ الْهَدِيَ اسْمُ الْبَيَانِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَمَا ثَمُودُهُدِينَاهُمْ فَاسْتَحْبِبُوا الْعُمَى عَلَى الْهَدِيِّ) قَوْلُهُ (إِنَّ الْهَدِيَ) مُبْتَدَأٌ وَقَوْلُهُ (هُدِيُّ اللهِ) بَدْلُ مِنْهُ وَقَوْلُهُ (أَن يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلُ مَا أَتَيْتُمْ) خَبْرٌ بِإِضْمَارِ حَرْفِ لَا ، والتقدير : قَلْ يَا مُحَمَّدُ لَا شَكَ أَنْ بَيَانَ اللهِ هُوَ أَنْ لَا يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلُ مَا أَتَيْتُمْ ، وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ أَفْضَلُ الْأَدِيَانِ وَأَنْ لَا يَحْاجِجُوكُمْ يَعْنِي هُؤُلَاءِ الْيَهُودِ عِنْدَ رَبِّكُمْ فِي الْآخِرَةِ لَاَنَّهُ يَظْهِرُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَنَّكُمْ مَحْقُونُ وَأَنَّهُمْ مَضْلُونُ ، وَهَذَا التَّأْوِيلُ لَيْسُ فِيهِ إِلَّا أَنَّهُ لَا بدَ مِنْ إِضْمَارِ حَرْفِ لَا (لَا) وَهُوَ جَائزٌ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (أَنْ تَضْلُلُوا) أَيْ أَنْ لَا تَضْلُلُوا .

﴿ الوجه الرابع ﴾ (الْهَدِيُّ) اسْمُ وَ (هُدِيُّ اللهِ) بَدْلُ مِنْهُ وَ (أَن يُؤْتَى أَحَدٌ) خَبْرُهُ والتقدير : إِنَّهُدِيُّ اللهِ هُوَ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلُ مَا أَتَيْتُمْ ، وَعَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ فَقَوْلُهُ (أَوْ يَحْاجِجُوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ) لَا بدَ فِيهِ مِنْ إِضْمَارِ ، والتقدير : أَوْ يَحْاجِجُوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ فَيَقْضِي لَكُمْ

عليهم ، والمعنى : أن الهدى هو ما هديتكم به من دين الإسلام الذي من حجاجكم به عندي قضيت لكم عليه ، وفي قوله (عند ربكم) ما يدل على هذا الإضمار لأن حكمه بكونه رباً لهم يدل على كونه راضياً عنهم وذلك مشعر بأنه يحكم لهم ولا يحكم عليهم .

﴿ والإِحْتَالُ الثَّانِي ﴾ أن يكون قوله (أن يؤتى أحد مثل ما أُوتِيتُمْ) من تتمة كلام اليهود ، وفيه تقديم وتأخير ، والتقدير : ولا تؤمنوا إلَّا مَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلُ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجِجُوكُمْ عَنْ رَبِّكُمْ ، قُلْ إِنَّ الْهَدِيَّ هُدِيُّ اللَّهِ ، وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ، قَالُوا . والمعنى لا تظہرو إيمانکم بأن يؤتى أحد مثل ما أُوتِيتُمْ إلَّا لِأَهْلِ دِينِكُمْ ، وأسروا تصديقکم ، بأن المسلمين قد أُوتوا من كتب الله مثل ما أُوتِيتُمْ ، ولا تفشو إلَى أَشْيَاكُمْ وَحْدَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ لَشَّا يُزِيدُهُمْ ثِبَاتًا وَدُونَ الْمُشْرِكِينَ لَثَّا يَدْعُوهُمْ ذَلِكَ إِلَى الْإِسْلَامِ .

أما قوله (أَوْ يُحاجِجُوكُمْ عَنْ رَبِّكُمْ) فهو عطف على أن يؤتى ، والضمير في يحاجوكم لأحد ، لأنه في معنى الجمع يعني ولا تؤمنوا لغير أتباعكم ، إن المسلمين يحاجونكم يوم القيمة بالحق ويغالبونكم عند الله بالحججة ، عندي أن هذا التفسير ضعيف ، وبيانه من وجوه (الأول) إن جد القوم في حفظ أتباعهم عن قبول دين محمد عليه السلام كان أعظم من جدهم في حفظ غير أتباعهم وأشياعهم عنه ، فكيف يليق أن يوصي بعضهم بعضاً بالإقرار بما يدل على صحة دين محمد ﷺ عند أتباعهم وأشياعهم ، وأن ينتعنوا من ذلك عند الأجانب ؟ هذا في غاية البعد (الثاني) أن على هذا التقدير يختزل النظم ويقع فيه تقديم وتأخير لا يليق بكلام الفصحاء (الثالث) إن على هذا التقدير لا بد من الحذف فان التقدير : قُلْ إِنَّ الْهَدِيَّ هُدِيُّ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ ، وَلَا بَدْ مِنْ حَذْفِ (قُلْ) فِي قُولِهِ (قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ) (الرابع) إنه كيف وقع قوله (قُلْ إِنَّ الْهَدِيَّ هُدِيُّ اللَّهِ) فيما بين جزأى كلام واحد ؟ فان هذا في غاية البعد عن الكلام المستقيم ، قال القفال : يحتمل أن يكون قوله (قُلْ إِنَّ الْهَدِيَّ هُدِيُّ اللَّهِ) كلام أمر الله نبيه أن يقوله عند انتهاء الحكاية عن اليهود إلى هذا الموضع لأن لما حكى عنهم في هذا الموضع قولًا باطلًا لا جرم أدب رسوله ﷺ بأن يقابلة بقول حق ، ثم يعود إلى حكاية تمام كلامهم كما إذا حكى المسلم عن بعض الكفار قولًا فيه كفر ، فيقول : عند بلوغه إلى تلك الكلمة آمنت بالله ، أو يقول لا إله إلا الله ، أو يقول تعالى الله ثم يعود إلى تمام الحكاية فيكون قوله تعالى (قُلْ إِنَّ الْهَدِيَّ هُدِيُّ اللَّهِ) من هذا الباب ، ثم أتى بعده ب تمام قول اليهود إلى قوله (أَوْ يُحاجِجُوكُمْ عَنْ ربِّکُمْ) ثم أمر النبي ﷺ بمحاجتهم في هذا وتنبيههم على بطلان قولهم ، فقيل له (قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ) إلى آخر الآية .

﴿ الإِشْكَالُ الْخَامِسُ ﴾ في هذه الوجوه : أن الإيمان إذا كان يعني التصديق لا يتعدى إلى

المصدق بحرف اللام لا يقال صدقت لزید بل يقال : صدقت زیداً ، فكان ينبغي أن يقال : ولا تؤمنوا إلا من تبع دينكم ، وعلى هذا التقدير يحتاج إلى حذف اللام في قوله (من تبع دينكم) ويحتاج إلى إضمار الباء أو ما يجري مجراه في قوله (أن يؤتى) لأن التقدير : ولا تصدقو إلا من تبع دينكم ، بأن يؤتى أحد مثل ما أتيتم ، فقد اجتمع في هذا التفسير الحذف والإضمار وسوء النظم وفساد المعنى ، قال أبو علي الفارسي : لا يبعد أن يحمل الإيمان على الإقرار فيكون المعنى : ولا تقرروا بأن يؤتى أحد مثل ما أتيتم إلا من تبع دينكم ، وعلى هذا التقدير لا تكون اللام زائدة ، لكن لا بد من إضمار حرف الباء أو ما يجري مجراه على كل حال ، فهذا محصل ما قيل في تفسير هذه الآية والله أعلم بمراده .

ثم قال تعالى (قل إن الفضل بيد الله يؤتىه من يشاء والله واسع عليم) .

وأعلم أنه تعالى حكى عن اليهود أمرتين (أحدهما) أن يؤمنوا وجه النهار ، ويُكفروا آخره ، ليصير ذلك شبهة للمسلمين في صحة الإسلام .

فأجاب عنه بقوله (قل إن الهدى هدى الله) والمعنى : أن مع كمال هداية الله وقوه بيانه لا يكون بهذه الشبهة الركيكة قوة ولا أثر (والثاني) أنه حكى عنهم أنهم استنكروا أن يؤتى أحد مثل ما أتوا من الكتاب والحكم والنبوة .

فأجاب عنه بقوله (قل إن الفضل بيد الله يؤتىه من يشاء) والمراد بالفضل الرسالة ، وهو في اللغة عبارة عن الزيادة ، وأكثر ما يستعمل في زيادة الإحسان ، والفضل الزائد على غيره في خصال الخير ، ثم كثر استعمال الفضل لكل نفع قصد به فاعله الإحسان إلى الغير وقوله (بيد الله) أي إنه مالك له قادر عليه ، وقوله (يؤتىه من يشاء) أي هو تفضل موقوف على مشيئته ، وهذا يدل على أن النبوة تحصل بالتفضل لا بالاستحقاق ، لأنه تعالى جعلها من باب الفضل الذي لفاعله أن يفعله وأن لا يفعله ، ولا يصح ذلك في المستحق إلا على وجه المجاز وقوله (والله واسع عليم) مؤكداً لهذا المعنى ، لأن كونه واسعاً ، يدل على كمال القدرة ، وكونه عليهما على كمال العلم ، فيصبح منه لمكان القدرة أن يتفضل على أي عبد شاء بأي تفضل شاء ، ويصبح منه لمكان كمال العلم أن لا يكون شيء من أفعاله إلا على وجه الحكمة والصواب .

ثم قال (يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) وهذا كالتأكيد لما تقدم ، والفرق بين هذه الآية وبين ما قبلها أن الفضل عبارة عن الزيادة ، ثم إن الزيادة من جنس المزيد عليه ، فيبين بقوله (إن الفضل بيد الله) إنه قادر على أن يؤتى بعض عباده مثل ما آتاهם من المناصب العالية ويزيد عليها من جنسها ، ثم قال (يختص برحمته من يشاء) والرحمة المضافة

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ يُقْنَطِرِيُؤْدِهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ يُدِينَارِ لَا
يُؤْدِهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَادْمَتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأَمْرِ شَيْءٌ
سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ بَلَّ مَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ وَأَتَقَى
فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٨﴾

إلى الله سبحانه أمر أعلى من ذلك الفضل ، فإن هذه الرحمة ربما بلغت في الشرف وعلو الرتبة إلى أن لا تكون من جنس ما آتاهم ، بل تكون أعلى وأجل من أن تقاس إلى ما آتاهم ، ويحصل من مجموع الآيتين إنه لا نهاية لراتب إعزاز الله وإكرامه لعباده ، وأن قصر إنعامه وإكرامه على راتب معينة ، وعلى أشخاص معينين جهل بكمال الله في القدرة والحكمة .

قوله تعالى ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ يُقْنَطِرِيُؤْدِهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ يُدِينَارِ لَا
يُؤْدِهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دَمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأَمْرِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ
الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ، بَلَّ مَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

اعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها من وجهين (الأول) أنه تعالى حکى عنهم في الآية المقدمة أنهم ادعوا أنهم أتوا من المناصب الدينية ، ما لم يؤت أحد غيرهم مثله ، ثم إنه تعالى بين أن الخيانة مستقبحة عند جميع أرباب الأديان ، وهم مصرون عليها ، فدل هذا على كذبهم (والثاني) أنه تعالى لما حکى عنهم في الآية المقدمة قبائح أحواهم فيما يتعلق بالأديان وهو أنهم قالوا (لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) حکى في هذه الآية بعض قبائح أحواهم فيما يتعلق بمعاملة الناس ، وهو إصرارهم على الخيانة والظلم وأخذ أموال الناس في القليل والكثير وه هنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الآية دالة على انقسامهم إلى قسمين : بعضهم أهل الأمانة ، وبعضهم أهل الخيانة وفيه أقوال (الأول) أن أهل الأمانة منهم هم الذين أسلموا ، أما الذين بقوا على اليهودية فهم مصرون على الخيانة لأن مذهبهم أنه يحل لهم قتل كل من خالفهم في الدين وأخذ أحواهم ونظير هذه الآية قوله تعالى (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) مع قوله (منهم المؤمنون وأكثراهم الفاسقون) (الثاني) أن أهل الأمانة هم النصارى ، وأهل الخيانة هم اليهود ، والدليل عليه ما ذكرنا ،

أن مذهب اليهود أنه يحل قتل المخالف ويحل أخذ ماله بأي طريق كان (الثالث) قال ابن عباس : أودع رجل عبد الله بن سلام ألفاً ومائتي أوقية من ذهب فأدى إليه ، وأودع آخر فتحاصن بن عازوراء ديناراً فخانه فنزلت الآية .

﴿ المسألة الثانية ﴾ يقال أمنت به كذا وعلى كذا ، كما يقال مررت به وعليه ، فمعنى الباء الصاق الأمانة ، ومعنى : على استعلاء الأمانة ، فمن أؤتمن على شيء فقد صار ذلك الشيء في معنى المتصل به لقربه منه ، واتصاله بحفظه وحياته ، وأيضاً صار الموعظ كالمستعلي على تلك الأمانة والمستولي عليها ، فلهذا حسن التعبير عن هذا المعنى بكلتا العبارتين ، وقيل إن معنى قوله أمنتكم بدينار أي ثقتك بك فيه ، وقولك أمنتكم عليه ، أي جعلتكم أميناً عليه وحافظاً له .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المراد من ذكر القنطر والدينار ه هنا العدد الكبير والعدد القليل ، يعني إن فيهم من هو في غاية الأمانة حتى لوأتمن على الأموال الكثيرة أدى الأمانة فيها ، ومنهم من هو في غاية الخيانة حتى لوأتمن على الشيء القليل ، فإنه يجوز فيه الخيانة ، ونظيره قوله تعالى (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتتكم إحداهن قنطراراً فلا تأخذوا منه شيئاً) وعلى هذا الوجه ، فلا حاجة بنا إلى ذكر مقدار القنطر وذكرها فيه وجوهاً (الأول) إن القنطر ألف وماشياً أوقية قالوا : لأن الآية نزلت في عبد الله بن سلام حين استودعه رجل من قريش ألفاً وماشياً أوقية من الذهب فرده ولم يخن فيه ، فهذا يدل على القنطر هو ذلك المقدار (الثاني) روى عن ابن عباس إنه ملء جلد ثور من المال (الثالث) قيل القنطر هو ألف ألف دينار أو ألف ألف درهم ، وقد تقدم القول في تفسير القنطر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر (يؤده) بسكون الهاء ، وروى ذلك عن أبي عمرو ، وقال الزجاج : هذا غلط من الراوي عن أبي عمرو كما غلط في (بارئكم) بإسكان المهمزة وإنما كان أبو عمرو يختلس الحركة ، واحتج الزجاج على فساد هذه القراءة بأن قال : الجزء ليس في الهاء وإنما هو فيما قبل الهاء والهاء اسم المكنى والأسماء لا تجزم في الوصل ، وقال الفراء : من العرب من يجزم الهاء إذا تحرك ما قبلها . فيقول : ضرباً شديداً كما يسكنون (ميم) أنتم وقمتم وأصلها الرفع ، وأنشد :

لما رأى أن لا دعه ولا شبع

وقرى أيضاً باختلاص حركة الهاء اكتفاء بالكسرة من الياء ، وقرى باشباع الكسرة في

الماء وهو الأصل .

ثم قال تعالى (ومنهم من إن تأمهن بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائمًا) وفيه مسائلتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في لفظ (القائم) وجهان : منهم من حمله على حقيقته ، قال السدى : يعني إلا ما دمت قائماً على رأسه بالإجماع معه والملازمة له ، والمعنى : أنه إنما يكون معترفاً بما دفعت إليه ما دمت قائماً على رأسه ، فان أنظرت وأخرت أنكر ، ومنهم من حمل لفظ (القائم) على مجازه ثم ذكر وا فيه وجوهاً (الأول) قال ابن عباس المراد من هذا القيام الإلحاد والخصوصة والهضي والمطالبة ، قال ابن قتيبة : أصله أن المطالب للشيء يقوم فيه والتارك له يقعد عنه ، دليل قوله تعالى (أمّة قائمة) أي عاملة بأمر الله غير تاركة ، ثم قيل : لكل من واظب على مطالبة أمر أنه قام به وإن لم يكن ثم قيام (الثاني) قال أبو علي الفارسي : القيام في اللغة يعني الدوام والثبات ، وذكرنا ذلك في قوله تعالى (يقيمون الصلاة) ومنه قوله (دينا قيماً) أي دائماً ثابتاً لا ينسخ فمعنى قوله (إلا ما دمت عليه قائمًا) أي دائماً ثابتاً في مطالبتك إياه بذلك المال .

﴿ المسألة الثانية ﴾ يدخل تحت قوله (من إن تأمنه بقسطار) و(بدينار) العين والدين ، لأن الإنسان قد يأمن غيره على الوديعة وعلى المبايعة وعلى المقارضة وليس في الآية ما يدل على التعين والمقول عن ابن عباس إنه حمله على المبايعة ، فقال منهم من تباعه بشمن القسطار فيؤده إليك ومنهم من تباعه بشمن الدينار فلا يؤده إليك ونقلنا أيضاً أن الآية نزلت في أن رجلاً أودع مالاً كثيراً عند عبد الله بن سلام ، وما قليلاً عند فتحاوس بن عازوراء ، فخان هذا اليهودي في القليل ، وعبد الله بن سلام أدي الأمانة ، فثبت أن اللفظ محتمل لكل الأقسام .

ثم قال تعالى (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل) والمعنى إن ذلك الإستحلال والخيانة هو بسبب أنهم يقولون ليس علينا فيما أصبنا من أموال العرب سبيل . وهنها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ ذكروا في السبب الذي لأجله اعتقاد اليهود هذا الإستحلال وجوهاً (الأول) أنهم مبالغون في التعلق لدينهم ، فلا جرم يقولون : يحمل قتل المخالف ويحمل أخذ ماله بأي طريق كان وروى في الخبر أنه لما نزلت هذه الآية قال عليه السلام « كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي ، إلا الأمانة فانها مؤداة إلى البر والفارجر » (الثاني) أن اليهود قالوا (نحن أبناء الله وأحباؤه) والخلق لنا عبيد فلا سبيل لأحد علينا إذا

أكلنا أموال عبيدهنا (الثالث) أن اليهود إنما ذكروا هذا الكلام لا مطلقاً لكل من خالفهم ، بل للعرب الذين آمنوا بالرسول ﷺ ، روى أن اليهود بایعوا رجالاً في الجاهلية فلما أسلموا طالبهم بالأموال فقالوا : ليس لكم علينا حق لأنكم تركتم دينكم ، وأقول : من المحتمل أنه كان من مذهب اليهود أن من انتقل من دين باطل إلى دين آخر باطل كان في حكم المرتد ، فهم وإن اعتنقوا أن العرب كفار إلا أنهم لما اعتنقوا في الإسلام أنه كفر حكمو على العرب الذين أسلموا بالردة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ نفي السبيل المراد منه نفي القدرة على المطالبة والإلزم ، قال تعالى (ما على المحسنين من سبيل) وقال (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً) وقال (ولن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (الأمي) منسوب إلى الأم ، وسمي النبي ﷺ أمياً قيل لأنه كان لا يكتب وذلك لأن الأم أصل الشيء فمن لا يكتب فقد بقي على أصله في أن لا يكتب ، وقيل : نسب إلى مكة وهي أم القرى .

ثم قال تعالى (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) وفيه وجوه (الأول) أنهم قالوا : إن جواز الخيانة مع المخالف مذكور في التوراة وكانت كاذبين في ذلك وعالمين بكونهم كاذبين فيه ومن كان كذلك كانت خيانته أعظم وجرمه أفحش (الثاني) أنهم يعلمون كون الخيانة محمرة (الثالث) أنهم يعلمون ما على الخائن من الإثم .

ثم قال تعالى (بلى من أوف بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين) .

اعلم أن في (بلى) وجهين (أحدهما) أنه مجرد نفي ما قبله ، وهو قوله (ليس علينا في الأميين سبيل) فقال الله تعالى راداً عليهم (بلى) عليهم سبيل في ذلك وهذا اختيار الزجاج ، قال : وعندى وقف التمام على (بلى) وبعده استئناف (والثاني) أن كلمة (بلى) كلمة تذكر ابتداء لكلام آخر يذكر بعده ، وذلك لأن قوله : ليس علينا فيما نفعل جناح قائم قوله : نحن أحباء الله تعالى ، فذكر الله تعالى أن أهل الوفاء بالعهد والتقي هم الذين يحبهم الله تعالى لا غيرهم ، وعلى هذا الوجه فإنه لا يحسن الوقف على (بلى) قوله (من أوف بعهده) مضى الكلام في معنى الوفاء بالعهد والضمير في (بعهده) يجوز أن يعمد على اسم (الله) في قوله (ويقولون على الله الكذب) ويجوز أن يعود على (من) لأن العهد مصدر فيضاف إلى المفعول وإلى الفاعل وه هنا سؤالان :

إِنَّ الَّذِينَ يَشْرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثُمَّ نَأَلَّا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا
يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧﴾

﴿ السؤال الأول ﴾ بتقدير (أن) يكون الضمير عائداً إلى الفاعل وهو (من) فانه يحتمل أنه لو وفي أهل الكتاب بعهودهم وتركوا الخيانة ، فانهم يكتسبون محبة الله تعالى .

(الجواب) الأمر كذلك ، فانهم إذا أوفوا بالعهود أوفوا أول كل شيء بالعهد الأعظم ، وهو ما أخذ الله عليهم في كتابهم من الإيمان بـ محمد ﷺ ، ولو اتقوا الله في ترك الخيانة ، لاتقوه في ترك الكذب على الله ، وفي ترك تحريف التوراة .

﴿ السؤال الثاني ﴾ أين الضمير الراجع من الجزاء إلى (من) ؟ .
(الجواب) عموم المتقين قام مقام رجوع الضمير .

واعلم أن هذه الآية دالة على تعظيم أمر الوفاء بالعهد ، وذلك لأن الطاعات مخصوصة في أمرین التعظیم لأمر الله ، والشفقة على خلق الله ، فالوفاء بالعهد مشتمل عليهما معاً ، لأن ذلك سبب لنفعة الخلق ، فهو شفقة على خلق الله ، ولما أمر الله به ، كان الوفاء به تعظیماً لأمر الله ، فثبتت أن العبارة مشتملة على جميع أنواع الطاعات والوفاء بالعهد ، كما يمكن في حق الغير يمكن أيضاً في حق النفس لأن الوفي بعهد النفس هو الآتي بالطاعات والتارك للمحرمات ، لأن عند ذلك تفوز النفس بالثواب وتبعده عن العقاب .

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثُمَّ نَأَلَّا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا
يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

اعلم أن في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوهاً (الأول) أنه تعالى لما وصف اليهود بالخيانة في أموال الناس ، ثم من المعلوم أن الخيانة في أموال الناس لا تتمشى إلا بالأيمان الكاذبة لا جرم ذكر عقيب تلك الآية هذه الآية المشتملة على وعيد من يقدم على الأيمان الكاذبة (الثاني) أنه تعالى لما حکى عنهم أنهم (يقولون على الله الكذب وهم يعلمون) ولا شك أن عهد الله على كل مكلف أن لا يكذب على الله ولا يخون في دينه ، لا جرم ذكر هذا الوعيد عقيب ذلك (الثالث) أنه تعالى ذكر في الآية السابقة خياتهم في أموال الناس ، ثم ذكر في هذه الآية خياتهم في عهد الله

وخيانتهم في تعظيم أسمائه حين يحلفون بها كذباً ، ومن الناس من قال : هذه الآية ابتداء كلام مستقل بنفسه في المنع عن الأيمان الكاذبة ، وذلك لأن اللفظ عام والروايات الكثيرة دلت على أنها إنما نزلت في أقوام أقدموا على الأيمان الكاذبة ، وإذا كان كذلك وجب اعتقاد كون هذا الوعيد عاماً في حق كل من يفعل هذا الفعل وإنه غير مخصوص باليهود ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختللت الروايات في سبب النزول ، فمنهم من خصها باليهود الذين شرح الله أحوالهم في الآيات المتقدمة ، ومنهم من خصها بغيرهم .

أما الأول ففيه وجهان (الأول) قال عكرمة إنها نزلت في أخبار اليهود ، كتموا ما عهد الله إليهم في التوراة من أمر محمد ﷺ وكتبوا بأيديهم غيره وحلفوا بأنه من عند الله لئلا يغلوتهم الرشا ، واحتج هؤلاء بقوله تعالى في سورة البقرة (وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم) (الثاني) أنها نزلت في ادعائهم أنه (ليس علينا في الأميين سبيل) كتبوا بأيديهم كتاباً في ذلك وحلفوا أنه من عند الله وهو قول الحسن .

﴿ وأما الاحتال الثاني ﴾ فيه وجوه (الأول) أنها نزلت في الأشعث بن قيس ، وخصص له في أرض ، اختصا إلى رسول الله ﷺ ، فقال للرجل « أقم بيتك » فقال الرجل : ليس لي بيضة فقال للأشعث « فعليك اليمين » فهم الأشعث باليمين فأنزل الله تعالى هذه الآية فنكل الأشعث عن اليمين ورد الأرض إلى الشخص واعترف بالحق ، وهو قول ابن جريج (الثاني) قال مجاهد : نزلت في رجل حلف مبيناً فاجرة في تنفيق سلطته (الثالث) نزلت في عبدان وامرئ القيس اختصا إلى الرسول ﷺ في أرض ، فتوجه اليمين على امرئ القيس ، فقال : أنظرني إلى الغد ، ثم جاء من الغد وأفرله بالأرض ، والأقرب الحمل على الكل .

فقوله (إن الذين يشترون بعهد الله) يدخل فيه جميع ما أمر الله به ويدخل فيه ما نصب عليه الأدلة ويدخل فيه الموثيق المأمور من جهة الرسول ، ويدخل فيه ما يلزم الرجل نفسه ، لأن كل ذلك من عهد الله الذي يلزم الوفاء به .

قال تعالى (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن) الآية وقال (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً) وقال (يوفون بالنذر) وقال (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) وقد ذكرنا في سورة البقرة معنى الشراء ، وذلك لأن المشتري يأخذ شيئاً ويعطي شيئاً فكل واحد من المعطى والمأمور ثمن لآخر ، وأما الأيمان فحالها معلوم وهي الحلف التي يؤكدها الإنسان خبره من وعد ، أو وعيد ، أو إنكار ، أو إثبات .

ثم قال تعالى (أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيمة ولا يزكيهم وهم عذاب أليم) واعلم أنه تعالى فرع على ذلك الشرط وهو الشراء بعهد الله والأيمان ثمناً قليلاً ، خمسة أنواع من الجزاء أربعة منها في بيان صيرورتهم محرومين عن الثواب (والخامس) في بيان وقوعهم في أشد العذاب ، أما المنع من الثواب فاعلم أن الثواب عبارة عن المنفعة الخالصة المقرونة بالتعظيم .

﴿ فالأول ﴾ وهو قوله (أولئك لا خلاق لهم في الآخرة) إشارة إلى حرمانهم عن منافع الآخرة

﴿ وأما الثلاثة الباقية ﴾ وهي قوله (ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم) فهو إشارة إلى حرمانهم عن التعظيم والإعزاز .

﴿ وأما الخامس ﴾ وهو قوله (وهم عذاب أليم) فهو إشارة إلى العقاب ، ولما نبهت لهذا الترتيب فلتتكلم في شرح كل واحد من هذه الخمسة :

(أما الأول) وهو قوله (لا خلاق لهم في الآخرة) فالمعني لا نصيب لهم في خير الآخرة ونعيدها واعلم أن هذا العموم مشروع بإجماع الأمة بعدم التوبة ، فإنه إن تاب عنها سقط الوعيد بالإجماع وعلى مذهبنا مشروع أيضاً بعدم العفو فإنه تعالى قال (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) .

(وأما الثاني) وهو قوله (ولا يكلمهم الله) فيه سؤال ، وهو أنه تعالى قال (فوربك لنسائلهم أجمعين بما كانوا يعملون) وقال (فلنسائل الذين أرسل إليهم ولنسائل المسلمين) فكيف الجمع بين هاتين الآيتين ، وبين تلك الآية؟ قال القفال في الجواب : المقصود من كل هذه الكلمات بيان شدة سخط الله عليهم ، لأن من منع غيره كلامه في الدنيا ، فاما ذلك بسخط الله عليه وإذا سخط إنسان على آخر ، قال له لا أكلمك ، وقد يأمر بمحبه عنه ويقول لا أرى وجه فلان ، وإذا جرى ذكره لم يذكره بالجملة فثبت أن هذه الكلمات كنایات عن شدة الغضب نعوذ بالله منه . وهذا هو الجواب الصحيح ، ومنهم من قال : لا يبعد أن يكون إسماع الله جل جلاله أولياءه كلامه بغير سفير تشريفاً عالياً يختص به أولياءه ، ولا يكلم هؤلاء الكفرا والفساق ، وتكون المحاسبة معهم بكلام الملائكة و منهم من قال . معنى هذه الآية أنه تعالى لا يكلمهم بكلام يسرهم وينفعهم والمعتد هو الجواب الأول .

(وأما الثالث) وهو قوله تعالى (ولا ينظر إليهم) فالمراد إنه لا ينظر إليهم بالإحسان ، يقال فلان لا ينظر إلى فلان ، والمراد به نفي الاعتداد به وترك الإحسان إليه ، والسبب لهذا

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ السِّنَّتِهِمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسِبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ
وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ (١١٧)

المجاز أن من اعتدى بالإنسان التفت إليه وأعاد نظره إليه مرة بعد أخرى ، فلهذا السبب صار نظر الله عبارة عن الاعتداد والإحسان ، وإن لم يكن ثم نظر ، ولا يجوز أن يكون المراد من هذا النظر الرؤية ، لأنه تعالى يراهم كما يرى غيرهم ، ولا يجوز أن يكون المراد من النظر تقليل الحدقة إلى جانب المرئي التاسع للرؤيته لأن هذا من صفات الأجسام ، وتعالى إلهنا عن أن يكون جسماً ، وقد احتاج المخالف بهذه الآية على أن النظر المقربون بحرف (إلى) ليس للرؤية إلا لزم في هذه الآية أن لا يكون الله تعالى رائياً لهم وذلك باطل .

(وأما الرابع) وهو قوله (ولا يزكيهم) فيه وجه (الأول) أن لا يظهرهم من دنس ذنبهم بالغفرة بل يعاقبهم عليها (والثاني) لا يزكيهم أي لا يشفي عليهم كما يشفي على أوليائه الأزكياء والتزكية من المزكي للشاهد مدح منه له .

واعلم أن تزكية الله عباده قد تكون على السنة الملائكة كما قال (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقيبي الدار) وقال (وتتقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة) وقد تكون بغير واسطة ، أما في الدنيا فقوله (التائبون العابدون) وأما في الآخرة فقوله (سلام قولوا من رب رحيم) .

(وأما الخامس) وهو قوله (ولهم عذاب أليم) فاعلم أنه تعالى لما بين حرماتهم من الثواب بين كونهم في العقاب الشديد المؤلم .

قوله تعالى « وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ السِّنَّتِهِمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسِبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ
وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ».

اعلم أن هذه الآية تدل على أن الآية المتقدمة نازلة في اليهود بلا شك لأن هذه الآية نازلة في حق اليهود وهي معطوفة على ما قبلها فهذا يقتضي كون تلك الآية المتقدمة نازلة في اليهود أيضاً . واعلم أن (اللي) عبارة عن عطف الشيء ورده عن الإستفامة إلى الاعوجاج ، يقال :

لويت يده ، والتوى الشيء إذا انحرف والتوى فلان على إذا غير أخلاقه عن الاستواء إلى ضلبه ، ولوى لسانه عن كذا إذا غيره ، ولوى فلاناً عن رأيه إذا أماله عنه ، وفي الحديث « لي الواجد ظلم » وقال تعالى (وراغنا ليأً بأسنتهم وطعننا في الدين) .

إذا عرفت هذا الأصل فسي تأويل الآية وجوه (الأول) قال القفال رحمه الله قوله (يلوون ألسنتهم) معناه وأن يعمدوا إلى اللفظة فيحرفونها في حركات الإعراب تحريفاً يتغير به المعنى ، وهذا كثير في لسان العرب فلا يبعد مثله في العبرانية ، فلما فعلوا مثل ذلك في الآيات الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام من التوراة كان ذلك هو المراد من قوله تعالى (يلوون ألسنتهم) وهذا تأويل في غاية الحسن (الثاني) نقل عن ابن عباس رضي الله عنهم أنه قال : إن النفر الذين لا يكلمهم الله القيامة ولا ينظر إليهم كتبوا كتاباً شوشوا فيه نعت محمد ﷺ وخلطوه بالكتاب الذي كان فيه نعت محمد ﷺ ثم قالوا (هذا من عند الله) .

إذا عرفت هذا فنقول : إن لي اللسان ثنية بالتشدق والتنطع والتتكلف وذلك مذموم فعبر الله تعالى عن قراءتهم لذلك الكتاب الباطل بلي اللسان ذماً لهم وعيباً ولم يعبر عنها بالقراءة ، والعرب تفرق بين ألفاظ المدح والذم في الشيء الواحد ، فيقولون في المدح : خطيب مصقع ، وفي الذم : مكثار ثثار .

قوله (وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب) المراد قراءة ذلك الكتاب الباطل ، وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله) ثم قال (وما هو من الكتاب) أي وما هو الكتاب الحق المنزول من عند الله ، بقى ههنا سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ إلى ما يرجع الضمير في قوله (لتسبيوه) ؟ .

(الجواب) إلى ما دل عليه قوله (يلوون ألسنتهم) وهو المحرف .

﴿ السؤال الثاني ﴾ كيف يمكن إدخال التحريف في التوراة مع شهرتها العظيمة بين الناس ؟ :

(الجواب) لعله صدر هذا العمل عن نفر قليل ، يجوز عليهم التواطؤ على التحريف ، ثم إنهم عرضوا ذلك المحرف على بعض العوام وعلى هذا التقدير يكون هذا التحريف ممكناً ، والأصوب عندي في تفسير الآية وجه آخر وهو أن الآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ كان يحتاج فيها إلى تدقيق النظر وتأمل القلب ، والقوم كانوا يوردون عليها الأسئلة المشوهة والاعتراضات

المظلمة فكانت تصير تلك الدلائل مشتبهة على السامعين ، واليهود كانوا يقولون : مراد الله من هذه الآيات ما ذكرناه لا ماذكرتم ، فكان هذا هو المراد بالتحريف وبلي الألسنة وهذا مثل ما أن الحق في زماننا إذا استدل بأية من كتاب الله تعالى ، فالبطل يورد عليه الأسئلة والشبهات ويقول : ليس مراد الله ما ذكرت ، فكذا في هذه الصورة .

ثم قال تعالى (ويقولون هو من عند الله) واعلم أن من الناس من قال : إنه لا فرق بين قوله (لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب) وبين قوله (ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله) وكرر هذا الكلام بلفظين مختلفين لأجل التأكيد ، أما المحققون فقالوا : المغایرة حاصلة ، وذلك لأنه ليس كل مالم يكن في الكتاب لم يكن من عند الله ، فان الحكم الشرعي قد ثبت تارة بالكتاب ، وتارة بالسنة ، وتارة بالإجماع ، وتارة بالقياس والكل من عند الله .

فقوله (لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب) هذا نفي خاص ، ثم عطف عليه النفي العام فقال (ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله) وأيضاً يجوز أن يكون المراد من الكتاب التوراة ، ويكون المراد من قوله : هو من عند الله ، أنه موجود في كتب سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مثل أشعيا ، وأرميا ، وحقيق ، وذلك لأن القوم في نسبة ذلك التحريف إلى الله كانوا متزيرين ، فان وجدوا قوماً من الأغمار والبله الجاهلين بالتوراة نسبوا ذلك المحرف إلى أنه من التوراة ، وإن وجدوا قوماً عقلاً ذكياء زعموا أنه موجود في كتب سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين جاؤا بعد موسى عليه السلام ، واحتاج الجنائي والكعبي به على أن فعل العبد غير مخلوق لله تعالى فقلالا : لو كان لي اللسان بالتحريف والكذب خلقا الله تعالى لصدق اليهود في قوله : إنه من عند الله ولزم الكذب في قوله تعالى : إنه ليس من عند الله ، وذلك لأنهم أضافوا إلى الله ما هو من عنده ، والله ينفي عن نفسه ما هو من عنده ، ثم قال : وكفى خزيا لقوم يجعلون اليهود أولى بالصدق من الله قال : ليس لأحد أن يقول المراد من قوله (لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب) وبين قوله (ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله) فرق ، وإذا لم يبق الفرق لم يحسن العطف ، وأجاب الكعبي عن هذا السؤال أيضاً من وجهين (الأول) أن كون المخلوق من عند الخالق أو كد من كون المأمور به من عند الأمر به ، وحمل الكلام على الوجه الأقوى أولى (والثاني) أن قوله (وما هو من عند الله) نفي مطلق لكونه من عند الله وهذا ينفي كونه من عند الله بوجه من الوجوه ، فوجب أن لا يكون من عنده لا بالخلق ولا بالحكم .

(والجواب) أما قول الجنائي لو حملنا قوله تعالى (ويقولون هو من عند الله) على أنه كلام الله لزم التكرار ، فجوابه ما ذكرنا أن قوله (وما هو من الكتاب) معناه أنه غير موجود في

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيهِ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّنِينَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا أَيَّامَ رُؤُسُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذَا أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

الكتاب وهذا لا يمنع من كونه حكمًا لله تعالى ثابتًا بقول الرسول أو بطريق آخر فلما قال (وما هو من عند الله) ثبت نفي كونه حكمًا لله تعالى وعلى هذا الوجه زال التكرار .

﴿ وَأَمَّا الْوَجْهُ الْأُولُ ﴾ مِنَ الوجهين اللذين ذكرهما الكعبي فجوابه ، أن الجواب لا بد وأن يكون منطبقاً على السؤال ، وال القوم ما كانوا في ادعاء أن ما ذكروه و فعلوه خلق الله تعالى ، بل كانوا يدعون أنه حكم الله ونازل في كتابه .

فوجب أن يكون قوله (وما هو من عند الله) عائداً إلى هذا المعنى لا إلى غيره ، وبهذا الطريق يظهر فساد ما ذكره في الوجه الثاني والله أعلم .

ثم قال تعالى (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) والمعنى أنهم يتعمدون ذلك الكذب مع العلم .

واعلم أنه إن كان المراد من التحرير تغيير ألفاظ التوراة ، وإعراب ألفاظها ، فالمقدمون عليه يجب أن يكونوا طائفه يسيرة يجوز التواطؤ منهم على الكذب وإن كان المراد منه تشويش دلالة تلك الآيات على نبوة محمد ﷺ بسبب إلقاء الشكوك والشبهات في وجوده الاستدللات لم يبعد إبطاق الخلق الكثير عليه والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيهِ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِينَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ، وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا أَيَّامَ رُؤُسُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذَا أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين أن عادة علماء أهل الكتاب التحرير والتبديل أتبعه بما يدل على أن من جملة ما حرفوه ما زعموا أن عيسى عليه السلام كان يدعى الإلهية ، وأنه كان يأمر قومه بعبادته فلهذا قال (ما كان لبشر) الآية ، وه هنا مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في سبب نزول هذه الآية وجوه (الأول) قال ابن عباس : لما قالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله نزلت هذه الآية (الثاني) قيل إن أبا رافع القرظي من اليهود ورئيس وفد نجران من النصارى قالا لرسول الله ﷺ : أتريد أن نعبدك ونتخذك ربّا ، فقال عليه الصلاة والسلام « معاذ الله أن نعبد غير الله أو أن نأمر بغير عبادة الله فما بذلك بعثني ؟ ولا بذلك أمرني » فنزلت هذه الآية (الثالث) قال رجل يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضا على بعض ، أفلا نسجد لك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام « لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد من دون الله ، ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله » (الرابع) أن اليهود لما ادعوا أن أحدا لا ينال من درجات الفضل والمنزلة ما نالوه ، فالله تعالى قال لهم : إن كان الأمر كما قلتم ، وجب أن لا تشتبهوا باستعباد الناس واستخدامهم ولكن يجب أن تأمروا الناس بالطاعة والله والانقياد لتكاليفه وحينئذ يلزمكم أن تخشو الناس على الإقرار بنبوة محمد ﷺ ، لأن ظهور العجازات عليه يوجب ذلك ، وهذا الوجه يحتمله لفظ الآية فإن قوله (ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله) مثل قوله (اتخذوا أحبارهم ورہبانهم أرباباً من دون الله) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا في المراد بقوله (ما كان ليشر أن يؤتى به الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله) على وجوه (الأول) قال الأصم : معناه ، أنهم لو أرادوا أن يقولوا ذلك لمنعهم الدليل عليه قوله تعالى (ولو تقول علينا بعض الأقوال لأنخذنا منه باليمين) قال (لقد كدت ترکن إليهم شيئاً قليلاً إذاً لأن ذننك ضعف الحياة وضعف الممات) (الثاني) أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام موصوفون بصفات لا يحسن مع تلك الصفات ادعاء الألهية والربوبية منها أن الله تعالى آتاهم الكتاب والوحى وهذا لا يكون إلا في النفوس الطاهرة والأرواح الطيبة ، كما قال الله تعالى (الله أعلم حيث يجعل رسالته) وقال (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) وقال الله تعالى (الله يصطفى من الملائكة رسلًا ومن الناس) والنفس الطاهرة يمتنع أن يصدر عنها هذه الدعوى ، ومنها أن إيتاء النبوة لا يكون إلا بعد كمال العلم وذلك لا يمنع من هذه الدعوى ، وبالجملة فللإنسان قوتان : نظرية وعملية ، وما لم تكن القوة النظرية كاملة بالعلوم والمعارف الحقيقة ولم تكن القوة العملية مطهرة عن الأخلاق الذميمة لا تكون النفس مستعدة لقبول الوحي والنبوة ، وحصول الكمالات في القوة النظرية والعملية يمنع من مثل هذا القول والاعتقاد ، (الثالث) أن الله تعالى لا يشرف عبده بالنبوة والرسالة إلا إذا علم منه أنه لا يقول مثل هذا الكلام (الرابع) أن الرسول أدعى أنه يبلغ الأحكام عن الله تعالى ، واحتج على صدقه في هذه الدعوى ولو أمرهم بعبادة نفسه فحينئذ

تبطل دلالة المعجزة على كونه صادقاً ، وذلك غير جائز ، واعلم أنه ليس المراد من قوله (ما كان ليشر) ذلك أنه يحرم عليه هذا الكلام لأن ذلك محرم على كل الخلق ، وظاهر الآية يدل على أنه إنما يكتفى بذلك لأجل أن الله آتاه الكتاب والحكم والنبوة ، وأيضاً لو كان المراد منه التحرير لما كان ذلك تكذيباً للنصارى في ادعائهم ذلك على المسيح عليه السلام لأن من ادعى على رجل فعلاً فقيل له إن فلان لا يحمل له أن يفعل ذلك لم يكن تكذيباً له فيما ادعى عليه وإنما أراد في ادعائهم أن عيسى عليه السلام قال لهم : اخذوني إلهاً من دون الله فالمراد إذن ما قدمناه ، ونظيره قوله تعالى (ما كان الله أن يتخذ من ولد) على سبيل النفي لذلك عن نفسه ، لا على وجه التحرير والخطر ، وكذا قوله تعالى (ما كان لنبي أن يغل) والمراد النفي لا النهي والله أعلم .

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله (أن يؤتى الله الكتاب والحكم والنبوة) إشارة إلى ثلاثة أشياء ذكرها على ترتيب في غاية الحسن ، وذلك لأن الكتاب السماوي ينزل أولاً ثم إنه يحصل في عقل النبي فهم ذلك الكتاب وإليه الإشارة بالحكم ، فإن أهل اللغة والتفسير اتفقوا على أن هذا الحكم هو العلم ، قال تعالى (وَاتَّيْنَاهُ الْحِكْمَةَ صَبِيًّا) يعني العلم والفهم ، ثم إذا حصل فهم الكتاب ، فحيثئذ يبلغ ذلك إلى الخلق وهو النبوة فما أحسن هذا الترتيب .

ثم قال تعالى (ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله) وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ القراءة الظاهرة ، ثم يقول بحسب اللام ، وروى عن أبي عمرو برفعها ، أما النصب فعلى تقدير : لا تجتمع النبوة وهذا القول ، والعامل فيه (أن) وهو معطوف عليه بمعنى ثم أن يقول وأما الرفع فعل الاستئناف .

﴿المسألة الثانية﴾ حكى الواحدى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال في قوله تعالى (كونوا عباداً لي) إنه لغة مزينة يقولون للعبد عباداً .

ثم قال (ولكن كونوا ربانين) وفيه مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ في هذه الآية إضمار ، والتقدير : ولكن يقول لهم كونوا ربانين فأضمر القول على حسب مذهب العرب في جواز الإضمار إذا كان في الكلام ما يدل عليه ، ونظيره قوله تعالى (وأما الذين أسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم) أي فيقال لهم ذلك .

﴿المسألة الثانية﴾ ذكرها في تفسير (الربانى) أقوالاً (الأول) قال سيبويه : الربانى المنسوب إلى الرب ، بمعنى كونه عالماً به ، ومواطباً على طاعته ، كما يقال : رجل إلهي إذا كان

مقبلاً على معرفة الإله وطاعته وزيادة الألف والنون فيه للدلالة على كمال هذه الصفة ، كما قالوا : شعراني ولحياني ورقباني إذا وصف بكثرة الشعر وطول اللحية وغلظ الرقبة ، فإذا نسبوا إلى الشعر قالوا : شعري وإلى الرقبة رقيبي وإلى اللحية لحي (والثاني) قال المبرد (الربانيون) أرباب العلم وأحدهم رباني ، وهو الذي يرب العلم ويرب الناس أي : يعلمهم ويصلحهم ويقوم بأمرهم ، فالآلاف والنون للمبالغة كما قالوا : ريان وعطشان وشيعان وعريان ، ثم ضمت إليه ياء النسبة كما قيل : لحياني ورقباني قال الواهي : فعل قول سيبويه الرباني : منسوب إلى الرب على معنى التخصيص بمعرفة الرب وبطاعته ، وعلى قول المبرد (الرباني) مأخوذه من التربية (الثالث) قال ابن زيد : الرباني . هو الذي يرب الناس ، فالربانيون هم ولادة الأمة والعلماء ، ذكر هذا أيضاً في قوله تعالى (لولا ينهاهم الربانيون والأخبار) أي الولادة والعلماء وهما الفريقان اللذان يطاعان ومعنى الآية على هذا التقدير : لا أدعوكم إلى أن تكونوا عباداً لي ، ولكن أدعوكم إلى أن تكونوا ملوكاً وعلماء باستعمالكم أمر الله تعالى ومواظبتكم على طاعته ، قال القفال رحمه الله : ويحتمل أن يكون الواي سمي ربانياً ، لأنه يطاع كالرب تعالى ، فنسب إليه (الرابع) قال أبو عبيدة أحسب أن هذه الكلمة ليست بعربية إنما هي عبرانية ، أو سريانية ، وسواء كانت عربية أو عبرانية ، فهي تدل على الإنسان الذي علم وعمل بما علم ، واستغل بتعليم طرق الخير .

ثم قال تعالى (بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) وفيه مسائل :

﴿المَسْأَلَةُ الْأُولَى﴾ في قوله (بما كنتم تعلمون الكتاب) قراءتان (إحداهما) (تعلمون) من العلم ، وهي قراءة عبد الله بن كثير ، وأبي عمرو ، ونافع (والثانية) (تعلمون) من التعليم وهي قراءة الباقيين من السبعة وكلاهما صواب ، لأنهم كانوا يعلمونه في أنفسهم ويعلمونه غيرهم ، واحتج أبو عمرو على أن قراءته أرجح بوجهين (الأول) أنه قال (تدرسون) ولم يقل (تدرسون) بالتشديد (الثاني) أن التشديد يقتضي مفعولين والمفعول هنا واحد ، وأما الذين قرؤا بالتشديد فزعموا أن المفعول الثاني ممحوف تقديره : بما كنتم تعلمون الناس الكتاب ، أو غيركم الكتاب وحذف ، لأن المفعول به قد يحذف من الكلام كثيراً ، ثم احتجوا على أن التشديد أولى بوجهين (الأول) أن التعليم يشتمل على العلم ولا ينعكس فكان التعليم أولى (الثاني) أن الربانيين لا يكتفون بالعلم حتى يضموا إليه التعليم الله تعالى ألا ترى أنه تعالى أمر محمدًا ﷺ بذلك فقال : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) ويدل عليه قول مرة بن شراحيل : كان علقة من الربانيين الذين يعلمون الناس القرآن .

﴿ المسألة الثانية ﴾ نقل ابن جنی في المحتسب ، عن أبي حیوہ أنه قرأ (تدرسون) بضم التاء ساکنة الدال مكسورة الراء ، قال ابن جنی : ينبغي أن يكون هذا منقولاً من درس هو ، أو درس غيره ، وكذلك قرأ وأقرأ غيره ، وأكثر العرب على درس ودرس ، وعليه جاء المصدر على التدریس .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ (ما) في القراءتين ، هي التي بمعنى المصدر مع الفعل ، والتقدير : كونوا ربانيين بسبب كونكم عالمين ومعلمين وبسبب دراستكم الكتاب ، ومثل هذا من كون (ما) مع الفعل بمعنى المصدر قوله تعالى (فالیوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) وحاصل الكلام أن العلم والتعليم والدراسة توجب على صاحبها كونه ربانياً والسبب لا محالة مغایر للسبب ، فهذا يتضمن أن يكون كونه ربانياً ، أمراً مغايراً لكونه عالماً ، ومعلماً ، ومواظباً على الدراسة ، وما ذاك إلا أن يكون بحيث يكون تعلمه لله ، وتعليمه ودراسته لله ، وبالجملة أن يكون الداعي له إلى جميع الأفعال طلب مرضاة الله ، والصارف له عن كل الأفعال المحرّب عن عقاب الله ، وإذا ثبت أن الرسول يأمر جميع الخلق بهذا المعنى ثبت إنه يمتنع منه أن يأمر الخلق بعبادته ، وحاصل الحرف شيء واحد ، وهو أن الرسول هو الذي يكون متنهى جهده وجده صرف الأرواح والقلوب عن الخلق إلى الحق ، فمثل هذا الإنسان كيف يمكن أن يصرف عقول الخلق عن طاعة الحق إلى طاعة نفسه . وعند هذا يظهر أنه يمتنع في أحد من الأنبياء صلوات الله عليهم أن يأمر غيره بعبادته .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ دلت الآية على أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانياً ، فمن اشتغل بالتعلم والتعليم لا لهذا المقصود ضاع سعيه وخاب عمله وكان مثله مثل من غرس شجرة حسنة موئنة لمنظرها ولا منفعة بشرها وهذا قال عليه الصلاة والسلام « نعوذ بالله من علم لا ينفع وقلب لا يخشى » .

ثم قال تعالى (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ عاصم وحمزة وابن عامر (ولا يأمركم) بمنصب الراء ، والباقيون بالرفع أما النصب فوجهه أن يكون عطفاً على (ثم يقول) وفيه وجهان (أحدهما) أن تجعل (لا) مزيدة والمعنى : ما كان لبشر أن يؤتیه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ويأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، كما تقول : ما كان لزيد أن أكرمه ثم يهينني ويستخف بي (والثاني) أن تجعل (لا) غير مزيدة ، والمعنى أن النبي ﷺ كان ينهى قريشاً عن عبادة الملائكة ، واليهود والنصارى عن عبادة عزير والمسيح ، فلما قالوا : أترید أن تأخذك رباً ؟ قيل لهم : ما كان لبشر أن يجعله الله نبياً ثم يأمر الناس بعبادة

وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّنَ لَمَّا آتَيْتُكُم مِّنِ كِتَابٍ وَحِكْمَةً ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتُنَصِّرُنَّهُ قَالَ إِنَّا أَفْرَرْتُمْ وَأَخْذَتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ أَصْرِي

نفسه وينهاهم عن عبادة الملائكة والأنبياء ، وأما القراءة بالرفع على سبيل الاستئناف فظاهر لأنه بعد انتهاء الآية و تمام الكلام ، وما يدل على الانقطاع عن الأول ما روى عن ابن مسعود أنهقرأ (ولن يأمركم) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الزجاج : لا يأمركم الله ، وقال ابن جريج : لا يأمركم محمد ، وقيل : لا يأمركم الأنبياء بأن تتخذوا الملائكة أربابا كما فعلته قريش .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إنما خص الملائكة والنبيين بالذكر لأن الذين وصفوا من أهل الكتاب بعبادة غير الله لم يحك عنهم إلا عبادة الملائكة وعبادة المسيح وعزيز ، فلهذا المعنى خصهما بالذكر .

ثم قال تعالى (أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الهمزة في (أيأمركم) استفهام بمعنى الإنكار ، أي لا يفعل ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال صاحب الكشاف قوله (بعد إذ أنتم مسلمون) دليل على أن المخاطبين كانوا مسلمين وهم الذين استأذنوا الرسول ﷺ في أن يسجدوا له .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الجبائي : الآية دالة على فساد قول من يقول : الكفر بالله هو الجهل به والإيمان بالله هو المعرفة به ، وذلك لأن الله تعالى حكم بكفر هؤلاء ، وهو قوله تعالى (أيأمركم بالكفر) ثم إن هؤلاء كانوا عارفين بالله تعالى بدليل قول (ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله) وظاهر هذا يدل على معرفتهم بالله فلما حصل الكفر هنا مع المعرفة بالله دل ذلك على أن الإيمان به ليس هو المعرفة والكفر به تعالى ليس هو الجهل به .

(والجواب) أن قولنا الكفر بالله هو الجهل به لا يعني به مجرد الجهل بكونه موجوداً بل يعني به الجهل بذاته وبصفاته السلبية وصفاته الإضافية أنه لا شريك له في العبودية ، فلما جهل هذا فقد جهل بعض صفاتيه .

قوله تعالى (وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول

قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَأَشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨﴾ فَمَنْ تَوَلَّ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٩﴾

مصدق لما معكم لؤمن به ولنصرته قال أقررتكم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ، فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ۚ .

اعلم أن المقصود من هذه الآيات تعديل تقرير الأشياء المعروفة عند أهل الكتاب مما يدل على نبوة محمد ﷺ قطعاً لعدتهم وإظهاراً لعنادهم ومن جملتها ما ذكره الله تعالى في هذه الآية وهو أنه تعالى أخذ الميثاق من الأنبياء الذين آتاهم الكتاب والحكمة بأنهم كلما جاءهم رسول مصدق لما معهم أمنوا به ونصروه ، وأخبر أنهم قبلوا ذلك وحكم تعالى بأن من رجع عن ذلك كان من الفاسقين ، فهذا هو المقصود من الآية فحصل الكلام أنه تعالى أوجب على جميع الأنبياء الإيمان بكل رسول جاء مصدقاً لما معهم إلا أن هذه المقدمة الواحدة لا تكفي في إثبات نبوة محمد ﷺ ما لم يضم إليها مقدمة أخرى ، وهي أن محمداً رسول الله جاء مصدقاً لما معهم ، وعند هذا لقائل أن يقول : هذا إثبات للشيء نفسه ، لأنه إثبات لكونه رسولاً بكونه رسولاً .

(والجواب) أن المراد من كونه رسولاً ظهور المعجز عليه ؛ وحينئذ يسقط هذا السؤال والله أعلم ، ولنرجع إلى تفسير الألفاظ :

أما قوله (وإذا أخذ الله) فقال ابن جرير الطبرى : معناه واذكروا يا أهل الكتاب إذ أخذ الله ميثاق النبيين ، وقال الزجاج : واذكر يا محمد في القرآن (إذ أخذ الله ميثاق النبيين) .

أما قوله (ميثاق النبيين) فاعلم أن المصدر يجوز إضافته إلى الفاعل وإلى المفعول ، فيحتمل أن يكون الميثاق مأخوذاً منهم ، ويحتمل أن يكون مأخوذاً لهم من غيرهم ، فلهذا السبب اختلفوا في تفسير هذه الآية على هذين الوجهين .

﴿ أما الاحتمال الأول ﴾ وهو أنه تعالى أخذ الميثاق منهم في أن يصدق بعضهم بعضاً ، وهذا قول سعيد بن جبير والحسن وطاوس رحمهم الله ، وقيل : إن الميثاق هذا مختص بمحمد ﷺ ، وهو مروى عن علي وابن عباس وقتادة والسدي رضوان الله عليهم ، واحتج أصحاب هذا القول على صحته من وجوه (الأول) أن قوله تعالى (وإذا أخذ الله ميثاق النبيين) يشعر

بأن آخذ الميثاق هو الله تعالى ؛ والماخوذ منهم هم النبيون ، فليس في الآية ذكر الأمة ، فلم يحسن صرف الميثاق إلى الأمة ، ويمكن أن يجاب عنه من وجوه (الأول) أن على الوجوه الذي قلتم يكون الميثاق مضافاً إلى الموثق عليه ، وعلى الوجه الذي قلنا يكون إضافته إليهم اضافة الفعل إلى الفاعل ، وهو الموثق له ، ولا شك أن إضافته الفعل إلى الفاعل أقوى من إضافته إلى المفعول ، فإن لم يكن فلا أقل من المساواة ، وهو كما يقال ميثاق الله وعهده ، فيكون التقدير : وإذا أخذ الله الميثاق الذي وثقه الله للأنبياء على أنفسهم (الثاني) أن يراد ميثاق أولاد النبيين ، وهم بنو إسرائيل على حذف المضاف وهو كما يقال : فعل بكر بن وائل كذا ، فعل معد بن عدنان كذا ، والمراد أولادهم وقومهم ، فكذا هنا (الثالث) أن يكون المراد من لفظ (النبيين) أهل الكتاب وأطلق هذا اللفظ عليهم تهكمًا بهم على زعمهم لأنهم كانوا يقولون نحن أولى بالنبوة من محمد عليه الصلاة والسلام لأننا أهل الكتاب ومنا كان النبيون (الرابع) أنه كثيراً ورد في القرآن لفظ النبي والمراد منه أمته قال تعالى (يا أيها النبي إذا طلقت النساء) .

﴿ الحجة الثانية ﴾ لأصحاب هذا القول : ما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال « لقد جئتكم بها بيضاء نقية أما والله لو كان موسى بن عمران حياً لما وسعه إلا أتباعي » .

﴿ الحجة الثالثة ﴾ ما نقل عن علي رضي الله عنه أنه قال : إن الله تعالى ما بعث آدم عليه السلام ومن بعده من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلا أخذ عليهم العهد لئن بعث محمد عليه الصلاة والسلام وهو حي ليؤمن به ولينصرنه ، فهذا يمكن نصرة هذا القول به والله أعلم .

﴿ الاحتمال الثاني ﴾ إن المراد من الآية أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يأخذون الميثاق من أنفسهم بأنه إذا بعث محمد ﷺ فإنه يجب عليهم أن يؤمنوا به وأن ينصروه ، وهذا قول كثير من العلماء ، وقد بينا أن اللفظ محتمل له وقد احتجوا على صحته بوجوه (الأول) ما ذكره أبو مسلم الأصفهاني فقال : ظاهر الآية يدل على أن الذين آخذ الله الميثاق منهم يجب عليهم الإيمان بمحمد ﷺ عند بعثه ، وكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يكونون عند بعث محمد ﷺ من زمرة الأموات ، والميت لا يكون مكلفاً فلما كان الذين آخذ الميثاق عليهم يجب عليهم الإيمان بمحمد عليه السلام عند بعثه ولا يمكن إيجاب الإيمان على الأنبياء عند بعث محمد عليه السلام ، علمنا أن الذين آخذ الميثاق عليهم ليسوا هم النبيين بل هم أمم النبيين قال : ومنما يؤكد هذا أنه تعالى حكم على الذين آخذ عليهم الميثاق إنهم لو تولوا لكانوا فاسقين وهذا الوصف لا يليق بالأنبياء عليهم السلام وإنما يليق بالأمم ، أجاب القفال رحمة الله فقال لم لا يجوز أن يكون المراد من الآية أن الأنبياء لو كانوا في الحياة لوجب عليهم الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام ، ونظيره قوله تعالى (لئن أشركت ليحيطن عملك) وقد علم الله تعالى أنه لا

يشرك قط ولكن خرج هذا الكلام على سبيل التقدير والفرض فكذا ه هنا ، وقال (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الورتين) وقال في صفة الملائكة (ومن يقل منهم إني إلى الله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمن) مع أنه تعالى أخبر عنهم بأنهم لا يسبقونه بالقول وبأنهم يخافون ربهم من فوقهم ، فكل ذلك خرج على سبيل الفرض والتقدير فكذا ه هنا ، ونقول إنه ساهم فاسقين على تقدير التولي فإن اسم الفسق ليس أقبح من اسم الشرك ، وقد ذكر تعالى ذلك على سبيل الفرض والتقدير في قوله (لئن أشركت ليجبن عملك) فكذا ه هنا .

﴿ الحجة الثانية ﴾ أن المقصود من هذه الآية أن يؤمن الذين كانوا في زمان الرسول ﷺ ، وإذا كان الميثاق مأخوذًا عليهم كان ذلك أبلغ في تحصيل هذا المقصود من أن يكون مأخوذًا على الأنبياء عليهم السلام ، وقد أجيب عن ذلك بأن درجات الأنبياء عليهم السلام ، أعلى وأشرف من درجات الأمم ، فإذا دلت هذه الآية على أن الله تعالى أوجب على جميع الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد عليه السلام لو كانوا في الأحياء ، وأنهم لو تركوا ذلك لصاروا من زمرة الفاسقين فلأن يكون الإيمان بمحمد ﷺ واجبًا على أعمهم لو كان ذلك أولى ، فكان صرف هذا الميثاق إلى الأنبياء أقوى في تحصيل المطلوب من هذا الوجه .

﴿ الحجة الثالثة ﴾ ما روى عن ابن عباس أنه قيل له إن أصحاب عبد الله يقرؤن (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب) ونحن نقرأ (وإذا أخذ الله ميثاق النبيين) فقال ابن عباس رضي الله عنهما : إنما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم .

﴿ الحجة الرابعة ﴾ أن هذا الاحتمال متأكد بقوله تعالى (يا بني إسرائيل اذكريوا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدهم) وبقوله تعالى (وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيينه للناس ولا تكتمنه) فهذا جملة ما قيل في هذا الموضوع والله أعلم بمراده .

وأما قوله تعالى (لما آتتكم من كتاب وحكمة) فيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ الجمهور (لما) بفتح اللام وقرأ حمزة بكسر اللام وقرأ سعيد بن جبير (لما) مشددة ، أما القراءة بالفتح فلها وجهان (الأول) أن (ما) اسم موصول والذي بعده صلة له وخبره قوله (لتومن به) والتقدير : للذي آتتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتومن به ، وعلى هذا التقدير (ما) رفع بالابتداء والراجح إلى لفظة (ما) وصلتها ممحض التقدير : لما آتتكموه فحذف الراجح كما حذف من قوله (أهذا

الذي بعث الله رسولا) وعليه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ إذا كانت (ما) موصولة لزم أن يرجع من الجملة المعطوفة على الصلة ذكر إلى الموصول وإلا لم يجز ، ألا ترى أنك لو قلت : الذي قام أبوه ثم انطلق زيد لم يجز .

وقوله (ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم) ليس فيه راجع إلى الموصول . قلنا : يجوز إقامة المظہر مقام الضمر عند الأخفش والدليل عليه قوله تعالى (إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) ولم يقل : فإن الله لا يضيع أجره ، وقال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) ولم يقل : إنا لا نضيع أجرهم وذلك لأن المظہر المذكور قائم مقام الضمر فكذا هنا .

﴿ السؤال الثاني ﴾ ما فائدة اللام في قوله (لما) قلنا : هذه اللام هي لام الابتداء بمنزلة قولك : لزيد أفضـل من عمـرو ، ويحسن إدخـالـها عـلـى ما يـجـري مـجـرـي المـقـسـمـ عـلـيـه لأنـ قـوـلـهـ (ـ وإـذـ أـخـذـ اللهـ مـيـثـاقـ النـبـيـنـ)ـ بـمـنـزـلـةـ الـقـسـمـ وـالـعـنـىـ اـسـتـحـلـفـهـمـ ،ـ وـهـذـهـ الـلامـ الـمـتـلـقـيـةـ لـلـقـسـمـ ،ـ فـهـذـاـ تـقـرـيرـ هـذـاـ الـكـلـامـ .ـ

﴿ الوجه الثاني ﴾ وهو اختيار سيبويه والمازني والزجاج أن (ما) هنا هي المتضمنة لمعنى الشرط والتقدير ما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتومن به ، فاللام في قوله (لتومن به) هي المتنافية للقسم ، أما اللام في (لما) هي لام تحذف تارة ، وتذكر أخرى ، ولا يتفاوت المعنى ونظيره قولك : والله لو أن فعلت ، فعلت . فلفظة (أن) لا يتفاوت الحال بين ذكرها وحذفها فكذا هنا ، وعلى هذا التقدير كانت (ما) في موضع نصب بآتيتكم (وجاءكم) جزم بالعطف على (آتيتكم) و (لتومن به) هو الجزاء ، وإنما لم يرض سيبويه بالقول الأول لأنه لا يرى إقامة المظہر مقام الضمر ، وأما الوجه في قراءة (لما) بكسر اللام فهو أن هذا لام التعلييل كأنه قيل : أخذ ميثاقهم لهذا لأن من يؤتى الكتاب والحكمة فان اختصاصه بهذه الفضيلة يوجب عليه تصديق سائر الأنبياء والرسل (وما) على هذه القراءة تكون موصولة وقام البحث فيه ما قدمناه في الوجه الأول ، وأما قراءة (لما) بالتشديد فذكر صاحب الكشاف فيه وجهين (الأول) أن المعنى : حين آتيتكم بعض الكتاب والحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق له ، وجب عليكم الإيمان به ونصرته (والثاني) أن أصل (لما) لمن ما فاستقلوا لجتماع ثلاث مهات ، وهي الميـانـ والنـونـ المتـلـقـيـةـ مـيـاـ بـإـدـغـامـهـاـ فـعـدـلـهـاـ فـصـارـتـ (ـ لـماـ)ـ وـمـعـنـاهـ :ـ لـمـ أـجـلـ مـاـ آـتـيـتـكـمـ لـتـوـمـنـ بـهـ ،ـ وـهـذـاـ قـرـيـبـ مـنـ قـرـاءـةـ حـمـزةـ فـيـ الـمـعـنـىـ .ـ

﴿ المسألة الثانية ﴾ قرأ نافع (آتيناكم) بالنون على التفخيم ، والباقيون بالباء على التوحيد ، حجة نافع قوله (وآتينا داود زبوراً) (وآتيناه الحكم صبياً) (وآتيناهما الكتاب المستبين) لأن هذا أدل على العظمة فكان أكثر هيبة في قلب السامع ، وهذا الموضع يليق به هذا المعنى ، وحجة الجمهور قوله (هو الذي ينزل على عبده آيات بينات) (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب) وأيضاً هذه القراءةأشبه بما قبل هذه الآية وبما بعدها لأنه تعالى قال قبل هذه الآية (وإذا أخذ الله) وقال بعدها (إسرى) وأجاب نافع عنه بأن أحد أبواب الفصاحة تغيير العبارة من الواحد إلى الجمع ومن الجمع إلى الواحد قال تعالى (وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني) ولم يقل من دوننا كما قال (وجعلناه) والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنه تعالى ذكر النبيين على سبيل المغایبة ثم قال (آتيتكم) وهو مخاطبة إضمار والتقدير : وإذا أخذ الله ميثاق النبيين فقال مخاطبا لهم لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، والإضمار باب واسع في القرآن ، ومن العلماء من التزم في هذه الآية إضمارا آخر وأراح نفسه عن تلك التكفلات التي حكيناها عن النحوين فقال تقدير الآية : وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لتبلغن الناس ما آتيتكم من كتاب وحكمة ، قال إلا أنه حذف لتبلغن لدلة الكلام عليه لأن لام القسم إنما يقع على الفعل فلما دلت هذه اللام على هذا الفعل لا جرم حذفه اختصاراً ثم قال تعالى بعده (ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم) وهو محمد ﷺ (لتؤمنن به ولتنصرنه) وعلى هذا التقدير يستقيم النظم ولا يحتاج إلى تكليف تلك التعسفات ، وإذا كان لا بد من التزام الإضمار فهذا الإضمار الذي به ينتظم الكلام نظماً بينما جلياً أولى من تلك التكفلات .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ في قوله (لما آتيتكم من كتاب) إشكال ، وهو أن هذا الخطاب إما أن يكون مع الأنبياء أو مع الأمم ، فإن كان مع الأنبياء فجميع الأنبياء ما أوتوا الكتاب ، وإنما أوتي بعضهم وإن كان مع الأمم ، فالإشكال أظهر ، والجواب عنه من وجهين (الأول) أن جميع الأنبياء عليهم السلام أوتوا الكتاب ، بمعنى كونه مهتمياً به داعياً إلى العمل به ، وإن لم ينزل عليه (والثاني) أن أشرف الأنبياء عليهم السلام هم الذين أوتوا الكتاب ، فوصف الكل بوصف أشرف الأنواع .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الكتاب هو المنزل المقرء والحكمة هي الوحي الوارد بالتكاليف المفصلة التي لم يشتمل الكتاب عليها .

﴿ المسألة السادسة ﴾ كلمة (من) في قوله (من كتاب) دخلت تبييناً لما كقولك : ما عندي من الورق دانقان .

أما قوله تعالى (ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم) ففيه سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ ما ووجه قوله (ثم جاءكم) والرسول لا يحييء إلى النبيين وإنما يحييء إلى الأمم ؟ .

(والجواب) إن حملنا قوله (وإذا أخذ الله ميثاق النبيين) علىأخذ ميثاق أنفسهم فقد زال السؤال وإن حملناه علىأخذ ميثاق النبيين أنفسهم كان قوله (ثم جاءكم) أي جاء في زمانكم .

﴿ السؤال الثاني ﴾ كيف يكون محمد ﷺ مصدقاً لما معهم مع مخالفة شرعه لشرعهم ، قلنا : المراد به حصول الموافقة في التوحيد ، والنبوات ، وأصول الشرائع ، فأما تفاصيلها وإن وقع الخلاف فيها ؛ فذلك في الحقيقة ليس بخلاف ، لأن جميع الأنبياء عليهم السلام متتفقون على أن الحق في زمان موسى عليه السلام ليس إلا شرعه وأن الحق في زمان محمد ﷺ ليس إلا شرعه ، فهذا وإن كان يوهم الخلاف ، إلا أنه في الحقيقة وافق ، وأيضاً فالمراد من قوله (ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم) هو محمد ﷺ ، والمراد بكونه مصدقاً لما معهم هو أن وصفه وكيفية أحواله مذكورة في التوراة والإنجيل ، فلما ظهر على أحوال مطابقة لما كان مذكوراً في تلك الكتب ، كان نفس مجئه تصديقاً لما كان معهم ، فهذا هو المراد بكونه مصدقاً لما معهم .

﴿ السؤال الثالث ﴾ حاصل الكلام أن الله تعالى أخذ الميثاق على جميع الأنبياء بأن يؤمنوا بكل رسول يحييء مصدقاً لما معهم فما معنى ذلك الميثاق .

(والجواب) يحتمل أن يكون هذا الميثاق ما قرر في عقوتهم من الدلائل الدالة على أن الانقياد لأمر الله واجب ، فإذا جاء الرسول فهو إنما يكون رسولاً عند ظهور المعجزات الدالة على صدقه فإذا أخبرهم بعد ذلك أن الله أمر الخلق بالإيمان به عرفوا عند ذلك وجوبه ، فتقدير هذا الدليل في عقوتهم هو المراد منأخذ الميثاق ، ويحتمل أن يكون المراد منأخذ الميثاق أنه تعالى شرح صفاتيه في كتب الأنبياء المتقدمين ، فإذا صارت أحواله مطابقة لما جاء في الكتب الإلهية المتقدمة وجب الانقياد له ، فقوله تعالى (ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم) يدل على هذين الوجهين ، أما على الوجه الأول ، فقوله (رسول) وأما على الوجه الثاني ، فقوله (مصدق لما معكم) .

أما قوله (لؤمن به ولتنصرنـه) فالمعنى ظاهر ، وذلك لأنه تعالى أوجب الإيمان به أولاً ، ثم الاستغلال بنصرته ثانياً ، واللام في (لؤمن به) لام القسم ، كأنه قيل : والله لؤمن به .

ثم قال تعالى (قال أقررتم وأخذتم على ذلکم إصرى) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إن فسرنا قوله تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبین) بأنه تعالى أخذ المواثيق على الأنبياء كان قوله تعالى (أقررتم) معناه : قال الله تعالى للنبيين أقررتكم بالإنعام به والنصرة له وإن فسرنا أخذ الميثاق بأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أخذوا المواثيق على الأمم كان معنى قوله (قال أقررتم) أي قال كلنبي لأمته أقررتهم، وذلك لأنه تعالى أضاف أخذ الميثاق إلى نفسه ، وإن كانت النبيون أخذوه على الأمم ، فكذلك طلب هذا الإقرار أضافه إلى نفسه وإن وقع من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والمقصود أن الأنبياء بالغوا في إثبات هذا المعنى وتأكيده ، فلم يقتصروا على أخذ الميثاق على الأمم ، بل طالبوهم بالإقرار بالقول ، وأكروا ذلك بالشهاد .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الإقرار في اللغة منقول بالألف من قر الشيء يقر ، إذا ثبت ولزم مكانه وأقره غيره والمقر بالشيء يقره على نفسه أي يثبته .

أما قوله تعالى (وأخذتم على ذلکم إصرى) أي قبلتم عهدي ، والأخذ بمعنى القبول كثير في الكلام قال تعالى (ولا يؤخذ منها عدل) أي يقبل منها فدية وقال (ويأخذ الصدقات) أي يقبلها والإصر هو الذي يلحق الإنسان لأجل ما يلزمها من عمل قال تعالى (ولا تحمل علينا إصرًا) فسمى العهد إصرًا لهذا المعنى ، قال صاحب الكشاف : سمي العهد إصرًا لأنه مما يؤصر أي يشد ويعقد ، ومنه الإصار الذي يعقد به وقرئ (إصرى) ويجوز أن يكون لغة في إصر .

ثم قال تعالى (قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) وفي تفسير قوله (فاشهدوا) وجوه (الأول) فليشهد بعضكم على بعض بالإقرار ، وأنا على إقراركم وإشهاد بعضكم بعضاً (من الشاهدين) وهذا توكيدهم وتحذير من الرجوع إذا علموا شهادة الله وشهادتهم بعضهم على بعض (الثاني) أن قوله (فاشهدوا) خطاب للملائكة (الثالث) أن قوله (فاشهدوا) أي ليجعل كل أحد نفسه شاهداً على نفسه ونظيره قوله (وأشهدهم على أنفسهم ألسنت بريكم قالوا بلى شهدنا) على أنفسنا وهذا من باب المبالغة (الرابع) (فاشهدوا) أي بينوا هذا الميثاق للخاص والعام ، لكي لا يبقى لأحد عذر في الجهل به ، وأصله أن الشاهد هو الذي يبين صدق الدعوى (الخامس) (فاشهدوا) أي فاستيقنوا ما قررته عليكم من هذا الميثاق ، وكونوا فيه كالمشاهد للشيء المعاين له (السادس) إذا قلنا إن أخذ الميثاق كان من الأمم قوله (فاشهدوا) خطاب للأنبياء عليهم السلام بأن يكونوا شاهدين عليهم .

وأما قوله تعالى (وأنا معكم من الشاهدين) فهو للتاكيد وتقوية الإلزام ، وفيهفائدة

أَفَغَيْرِ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ وَأَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٢٨)

أخرى وهي أنه تعالى وإن أشهد غيره ، فليس محتاجاً إلى ذلك الإشهاد ، لأنه تعالى لا يخفي عليه خافية لكن لضرب من المصلحة لأنه سبحانه وتعالى يعلم السر وأخفى ، ثم أنه تعالى ضم إليه تأكيداً آخر فقال (فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) يعني من أعرض عن الإيمان بهذا الرسول وبنصرته بعد ما تقدم من هذه الدلائل كان من الفاسقين ووعيد الفاسق معلوم ، وقوله (فمن تولى بعد ذلك) هذا شرط ، والفعل الماضي ينقلب مستقبلاً في الشرط والجزاء ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ أَفَغَيْرِ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أن الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام شرع شرعاً الله وأوجبه على جميع من مضى من الأنبياء والأمم ، لزم أن كل من كره ذلك فانه يكون طالباً ديناً غير دين الله ، فلهذا قال بعده (أَفَغَيْرِ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ) وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حفص عن عاصم (يبغون) و(يرجعون) بالياء المنقطة من تحتها ، لوجهين (أحدهما) ردأً لهذا إلى قوله (وأولئك هم الفاسقون) (والثاني) أنه تعالى إنما ذكر حكاية أخذ الميثاق حتى يبين أن اليهود والنصارى يلزمهم الإيمان بمحمد ﷺ ، فلما أصرروا على كفرهم قال على جهة الاستنكار (أَفَغَيْرِ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ) وقرأ أبو عمرو (تبغون) بالباء خطاياً لليهود وغيرهم من الكفار و(يرجعون) بالياء ليرجع إلى جميع المكلفين المذكورين في قوله (وله أسلم من في السموات والأرض) وقرأ الباقيون فيهما بالباء على الخطاب ، لأن ما قبله خطاب كقوله (أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخْذَتُمْ) وأيضاً فلا يبعد أن يقال للمسلم والكافر ولكل أحد : أَفَغَيْرِ دِينِ اللَّهِ تَبْغُونَ مع علمكم بأنه أسلم له من في السموات والأرض ، وأن مرجعكم إليه وهو كقوله (وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الهمزة للاستفهام والمراد استنكار أن يفعلوا ذلك أو تقرير أنهم يفعلونه ، وموضع الهمزة هو لفظة (يبغون) تقديره : أيبغون غير دين الله ؟ لأن الاستفهام إنما يكون عن الأفعال والحوادث ، إلا أنه تعالى قدم المفعول الذي هو (غير دين الله) على فعله ،

لأنه أهم من حيث أن الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبد الباطل وأما الفاء فلعله جملة على جملة وفيه وجهاً (أحد هماً) التقدير : فأولئك هم الفاسقون ، فغير دين الله يبغون .

واعلم أنه لو قيل أو غير دين الله يبغون جاز إلا أن في الفاء فائدة زائدة كأنه قيل : أبعد أخذ هذا الميثاق المؤكد بهذه التأكيدات البليغة تبعون؟ .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ روى أن فريقين من أهل الكتاب اختلفوا إلى الرسول ﷺ فيما اختلفوا فيه من دين إبراهيم عليه السلام ، وكل واحد من الفريقين ادعى أنه أولى به ، فقال عليه الصلاة والسلام : كلا الفريقين بريء من دين إبراهيم عليه السلام ، فقالوا : ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك فنزلت هذه الآية ، ويبعد عندي حمل هذه الآية على هذا السبب لأن على هذا التقدير تكون هذه الآية منقطعة عنها قبلها ، والاستفهام على سبيل الإنكار يقتضي تعلقها بما قبلها ، فالوجه في الآية أن هذا الميثاق لما كان مذكوراً في كتبهم وهم كانوا عارفين بذلك فقد كانوا عالمين بصدق محمد ﷺ في النبوة فلم يبق لکفرهم سبب إلا مجرد العداوة والحسد فصاروا كأبليس الذي دعا الحسد إلى الكفر ، فاعلمهم الله تعالى أنهم متى كانوا طالبين ديناً غير دين الله ، ومعبدًا سوى الله سبحانه ، ثم بين أن التمرد على الله تعالى والإعراض عن حكمه مما لا يليق بالعقلاء فقال (وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكراهاً وإليه ترجعون) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ الإسلام ، هو الاستسلام والانقياد والخضوع .

إذا عرفت هذا ففي خضوع كل من في السموات والأرض لله وجوه (الأول) وهو الأصح عندي أن كل ما سوى الله سبحانه ممكن لذاته وكل ممكن لذاته فإنه لا يوجد إلا بإيجاده ولا ي عدم إلا باعداده فإذاً كل ما سوى الله فهو منقاد خاضع لجلال الله في طرفي وجوده وعدمه ، وهذا هو نهاية الانقياد والخضوع ، ثم إن في هذا الوجه لطيفة أخرى وهي أن قوله (وله أسلم) يفيد الحصر أي له أسلم كل من في السموات والأرض لا لغيره ، فهذه الآية تفيد أن واجب الوجود واحد وأن كل ما سواه فإنه لا يوجد إلا بتكونيه ولا يفني إلا بإفنائه سواء كان عقلاً أو نفساً أو روحًا أو جسماً أو جوهراً أو عرضاً أو فاعلاً أو فعلاً ، ونظير هذه الآية في الدلالة على هذا المعنى قوله تعالى (ولله يسجد من في السموات والأرض) وقوله (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) .

﴿ الوجه الثاني ﴾ في تفسير هذه الآية أنه لا سبيل لأحد إلى الامتناع عليه في مراده ،

قُلْ إِنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٤﴾
 قُلْ إِنَّا مُسْلِمُونَ وَمَا أُنزَلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزَلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِحْمَانَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ

وإذاً أن يتزلا على طوعاً أو كره ، فالملعون الصالحون ينقادون لله طوعاً فيما يتعلق بالدين ، وينقادون له كره فيما يخالف طباعهم من المرض والفقير والموت وأشباه ذلك ، وأما الكافرون فهم ينقادون لله تعالى على كل حال كره لأنهم لا ينقادون فيما يتعلق بالدين ، وفي غير ذلك مستسلمون له سبحانه كره ، لأنه لا يمكنهم دفع قضائه وقدره (الثالث) أسلم المسلمون طوعاً ، والكافرون عند موتهم كره لقوله تعالى (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأنسنا) (الرابع) أن كل الخلق منقادون لإهليته طوعاً بدليل قوله تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ومنقادون لتكماليه وإيجاده للألام كره (الخامس) أن انقياد الكل إنما حصل وقت أخذ الميثاق وهو قوله تعالى (وإذا أخذ ربك منبني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم أست بربكم قالوا بلى) (السادس) قال الحسن : الطوع لأهل السموات خاصة ، وأما أهل الأرض فبعضهم بالطوع وبعضهم بالكره ، وأقول : إنه سبحانه ذكر في تخليق السموات والأرض هذا وهو قوله (فقال لها وللأرض اثنيا طوعاً أو كره) قالنا آتينا طائعين) وفيه أسرار عجيبة .

أما قوله (وإليه ترجعون) فالمراد أن من خالفه في العاجل فسيكون مرجعه إليه ، والمراد إلى حيث لا يملك الضر والنفع سواء هذا وعيده عظيم لمن خالف الدين الحق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الواحدى رحمه الله : الطوع الانقياد ، يقال : طاعه يطوعه طوعاً إذا انقاد له وخضع ، وإذا مضى لأمره فقد أطاعه ، وإذا وافقه فقد طاوه ، قال ابن السكيت : يقال طاع له وأطاع ، فانتصب طوعاً وكراه على أنه مصدر وقع موقع الحال ، وقد يرط طائعاً وكراهاً ، كقولك أتاني راكضاً ، ولا يجوز أن يقال : أتاني كلاماً أي متكلماً ، لأن الكلام ليس بضرب للاتيان والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أزال على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأساطير وما أتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة أنه إنما أخذ الميثاق على الأنبياء في تصديق

الرسول الذي يأتي مصدق لما معهم بين في هذه الآية أن من صفة محمد ﷺ كونه مصدقاً لما معهم فقال (قل آمنا بالله) إلى آخر الآية وهنها مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ وحد الضمير في (قل) وجمع في (آمنا) وفيه وجوه (الأول) إنه تعالى حين خطبه ، إنما خطبه بلفظ الوحدان ، وعلمه إنه حين يخاطب القوم يخاطبهم بلفظ الجمع على وجه التعظيم والتفحيم ، مثل ما يتكلم الملوك والعظماء (الثاني) أنه خطبه أولاً بخطاب الوحدان ليدل هذا الكلام على أنه لا يبلغ لهذا التكليف من الله إلى الخلق إلا هو ، ثم قال (آمنا) تنبئهاً على أنه حين يقول هذا القول فإن أصحابه يوافقونه عليه (الثالث) إنه تعالى عينه في هذا التكليف بقوله (قل) ليظهر به كونه مصدقاً لما معهم ثم قال (آمنا) تنبئهاً على أن هذا التكليف ليس من خواصه بل هو لازم لكل المؤمنين كما قال (المؤمنين كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قدم الإيمان بالله على الإيمان بالأئباء ، لأن الإيمان بالله أصل الإيمان بالنبوة ، وفي المرتبة الثانية ذكر الإيمان بما أنزل عليه ، لأن كتب سائر الأنبياء حرفوها وبدلوها فلا سبيل إلى معرفة أحواها إلا بما أنزله الله على محمد ﷺ ، فكان ما أنزل على محمد كالأصل لما أنزل على سائر الأنبياء فلهذا قدمه عليه ، وفي المرتبة الثالثة ذكر بعض الأنبياء وهم الأنبياء الذين يعترف أهل الكتاب بوجودهم ، ويختلفون في نبوتهم (والأسباط) هم أسباط يعقوب عليه السلام الذين ذكر الله أئمهم الأثنى عشر في سورة الأعراف ، وإنما أوجب الله تعالى الإقرار بنبوة كل الأنبياء عليهم السلام لفوائد (إدحاما) إثبات كونه عليه السلام مصدقاً لجميع الأنبياء ، لأن هذا الشرط كان معتبراً فيأخذ الميثاق (وثانيها) التنبية على أن مذاهب أهل الكتاب متناقضة ، وذلك لأنهم إنما يصدقون النبي الذي يصدقونه لمكان ظهور المعجزة عليه ، وهذا يقتضي أن كل من ظهرت المعجزة عليه كاننبياً ، وعلى هذا يكون تخصيص البعض بالتصديق والبعض بالتكذيب متناقضاً ، بل الحق تصديق الكل والاعتراف بنبوة الكل (وثالثها) إنه قال قبل هذه الآية (أغير دين الله يبغون ولهم أسلم من في السموات والأرض) وهذا تنبية على أن إصرارهم على تكذيب بعض الأنبياء إعراض عن دين الله ومنازعة مع الله ، فههنا أظهر الإيمان بنبوة جميع الأنبياء ، ليزول عنه وعن أمته ما وصف أهل الكتاب به من منازعة الله في الحكم والتكليف (ورابعها) أن في الآية الأولى ذكر أنه أخذ الميثاق على جميع النبيين ، أن يؤمنوا بكل من أتي بعدهم من الرسل ، وهنها أخذ الميثاق على محمد ﷺ بأن يؤمن بكل من أتي قبله من الرسل ، ولم يأخذ عليه الميثاق لمن يأتي بعده من الرسل ، فكانت هذه الآية دالة من هذا الوجه على أنه لا نبي بعده البتة ، فان قيل : لم عدي (أنزل) في هذه الآية بحرف الاستعلاء ، وفيها

تقدم من مثلها بحرف الانتهاء ؟ قلنا : لوجود المعنين جميعاً ، لأن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل ، فجاء تارة بأحد المعنين وأخرى بالأخر ، وقيل أيضاً إنما قيل (علينا) في حق الرسول ، لأن الوحي ينزل عليه (وإلينا) في حق الأمة لأن الوحي يأتيهم من الرسول على وجه الانتهاء وهذا تعسف ، ألا ترى إلى قوله (بما أنزل إليك) (وأنزل إليك الكتاب) وإلى قوله (آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلف العلماء في أن الإيمان بهؤلاء الأنبياء الذين تقدموا ونسخت شرائعهم كيف يكون ؟ وحقيقة الخلاف ، أن شرعه لما صار منسوخاً ، فهل تصير نبوته منسوخة ؟ فمن قال إنها تصير منسوخة قال : نؤمن بأنهم كانوا أنبياء ورسل ، ولا نؤمن بأنهم الآن أنبياء ورسل ، ومن قال إن نسخ الشريعة لا يقتضي نسخ النبوة قال : نؤمن بأنهم أنبياء ورسل في الحال فتنبه لهذا الموضع .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله (لا نفرق بين أحد منهم) فيه وجوه (الأول) قال الأصم : التفرق قد يكون بتفضيل البعض على البعض ، وقد يكون لأجل القول بأنهم ما كانوا على سبيل واحد في الطاعة لله والمراد من هذا الوجه يعني : نقر بأنهم كانوا بأسرهم على دين واحد في الدعوة إلى الله وفي الانقياد لتكليف الله (الثاني) قال بعضهم المراد (لا نفرق بين أحد منهم) بان نؤمن ببعض دون بعض كما تفرقت اليهود والنصارى (الثالث) قال أبو مسلم (لا نفرق بين أحد منهم) أي لا نفرق ما أجمعوا عليه ، وهو قوله (واعتصموا بحبل الله جمِعاً ولا تفرقوا) وذم قوماً وصفهم بالتفرق فقال (لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون) .

أما قوله (ونحن له مسلمون) ففيه وجوه (الأول) إن إقرارنا بنبوة هؤلاء الأنبياء إنما كان لأجل كوننا منقادين لله تعالى مستسلمين لحكمه وأمره ، وفيه تنبيه على أن حاله على خلاف الذين خطبهم الله بقوله (أَفَغَيْرُ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (والثاني) قال أبو مسلم (ونحن له مسلمون) أي مستسلمون لأمر الله بالرضا وترك المخالفة وتلك صفة المؤمنين بالله وهم أهل السلم والكافرون يوصفون بالمحاربة لله كما قال (إنما جراءه الذين يحاربون الله ورسوله) (الثالث) أن قوله (ونحن له مسلمون) يفيد الحصر والتقدير : له أسلمنا لا لغرض آخر من سمعة ورياء وطلب مال ، وهذا تنبيه على أن جاههم بالضد من ذلك فأنهم لا يفعلون ولا يقولون إلا للسمعة والرياء وطلب الأموال والله أعلم :

وَمَنْ يَبْتَغَ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٦﴾
 كَيْفَ يَهُدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهَدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمْ
 الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهُدِي النَّقْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ
 وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٤٨﴾ خَلِدِينَ فِيهَا لَا يُحْقَفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنَظَّرُونَ



قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَبْتَغَ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما قال في آخر الآية المقدمة (ونحن له مسلمون) اتبעהه بأن بين في هذه الآية أن الدين ليس إلا الإسلام ، وأن كل دين سوى الإسلام فإنه غير مقبول عند الله ، لأن القبول للعمل هو أن يرضي الله ذلك العمل ، ويرضي عن فاعله ويثنيه عليه ، ولذلك قال تعالى (إنما يتقبل الله من المتقين) ثم بين تعالى أن كل من له دين سوى الإسلام فكما أنه لا يكون مقبولاً عند الله ، فكذلك يكون من الخاسرين ، والخساران في الآخرة يكون بحرمان الشواب ، وحصول العقاب ، ويدخل فيه ما يلحقه من التأسف والتحسر على ما فاته في الدنيا من العمل الصالح وعلى ما تحمله من التعب والمشقة في الدنيا في تقريره ذلك الدين الباطل وأعلم أن ظاهر هذه الآية يدل على أن الإيمان هو الإسلام إذ لو كان الإيمان غير الإسلام لوجب أن لا يكون الإيمان مقبولاً لقوله تعالى (وَمَنْ يَبْتَغَ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ) إلا أن ظاهر قوله تعالى (قالت الأعراب أمّا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) يقتضي كون الإسلام مغايراً للإيمان ووجه التوفيق بينهما أن تحمل الآية الأولى على العرف الشرعي ، والآية الثانية على الوضع اللغوي .

قوله تعالى ﴿ كيْف يَهُدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهَدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهُدِي النَّقْمَ الظَّالِمِينَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ .

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾

خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم .

اعلم أنه تعالى لما عظم أمر الإسلام والإيمان بقوله (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) أكد ذلك التعظيم بأن بين وعد من ترك الإسلام ، فقال (كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم) وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في سبب النزول أقوال (الأول) قال ابن عباس رضي الله عنها : نزلت هذه الآية في عشرة رهط كانوا آمنوا ثم ارتدوا ولحقوا بمكة ثم أخذوا يتربصون به ريب المئون فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية ، وكان فيهم من تاب فاستثنى التائب منهم بقوله (إلا الذين تابوا) (الثاني) نقل أيضاً عن ابن عباس أنه قال : نزلت في يهود قريظة والنضير ومن دان بدينهם كفروا بالنبي ﷺ بعد أن كانوا مؤمنين قبل مبعثه ، وكانوا يشهدون له بالنبوة ، فلما بعث وجاءهم بالبيانات والمعجزات كفروا بغياناً وحسداً (والثالث) نزلت في الحيث بن سويد وهو رجل من الأنصار حين ندم على رده فأرسل إلى قومه أن أسألاه هل لي من توبه ؟ فأرسل إليه أخيه بالآية ، فأقبل إلى المدينة وتاب على يد الرسول ﷺ وقبل الرسول ﷺ توبته ، قال القفال رحمه الله : للناس في هذه الآية قولان : منهم من قال إن قوله تعالى (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً) وما بعده من قوله (كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم) إلى قوله (وأولئك هم الضالون) نزل جميع ذلك في قصة واحدة ، ومنهم من جعل ابتداء القصة من قوله (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار) ثم على التقديرين ففيها أيضاً قولان (أحدهما) أنها في أهل الكتاب (والثاني) أنها في قوم مرتدين عن الإسلام آمنوا ثم ارتدوا على ما شرحته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلف العقلاء في تفسير قوله (كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم) أما المعتزلة فقالوا : أن أصولنا تشهد بأنه تعالى هدى جميع الخلق إلى الدين بمعنى التعريف ، ووضع الدلائل و فعل الألطاف ، إذ لو يعلم الكل بهذه الأشياء لصار الكافر والضلال معدوراً ، ثم إنه تعالى حكم بأنه لم يهد هؤلاء الكفار ، فلا بد من تفسير هذه الهدایة بشيء آخر سوى نصب الدلائل ، ثم ذكروا فيه وجوهاً (الأول) المراد من هذه الآية من الألطاف التي يؤتيها المؤمنين ثواباً لهم على إيمانهم كما قال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدئنهم سبلنا) وقال

تعالى (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) وقال تعالى (والذين اهتدوا زادهم هدى) وقال (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) فدلت هذه الآيات على أن المهتدى قد يزيده الله هدى (الثاني) أن المراد أن الله تعالى لا يهديهم إلى الجنة قال تعالى (إن الذين كفروا وظلموا ملهم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طریقاً إلا طریق جهنم) وقال (يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهر) (الثالث) أنه لا يمكن أن يكون المراد من الهدایة خلق المعرفة فيه لأن على هذا التقدير يلزم أن يكون أيضاً من الله تعالى لأنه تعالى إذا خلق المعرفة كان مؤمناً مهتدياً ، وإذا لم يخلقها كان كافراً ضالاً ، ولو كان الكفر من الله تعالى لم يصح أن يذمهم الله على الكفر ولم يصح أن يضاف الكفر إليهم ، لكن الآية ناطقة بكونهم مذمومين بسبب الكفر وكونهم فاعلين للکفر فانه تعالى قال (كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم) فضاف الكفر إليهم وذمهم على ذلك الكفر فهذا جملة أقواهم في هذه الآية ، وأما أهل السنة فقالوا : المراد من الهدایة خلق المعرفة ، قالوا : وقد جرت سنة الله في دار التكليف أن كل فعل يقصد العبد إلى تحصيله فان الله تعالى يخلق عقيب قصد العبد ، فكأنه تعالى قال : كيف يخلق الله فيهم المعرفة وهم قصدوا تحصيل الكفر أو أرادوه والله أعلم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (واشهدوا) فيه قوله :

(الأول) أنه عطف والتقدير بعد أن آمنوا وبعد أن شهدوا أن الرسول حق ، لأن عطف الفعل على الاسم لا يجوز فهو في الظاهر وإن اقتضى عطف الفعل على الاسم لكنه في المعنى عطف الفعل على الفعل (الثاني) أن الواو للحال بإضمار (قد) والتقدير : كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم حال ما شهدوا أن الرسول حق .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ تقدیر الآية : كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم ، وبعد الشهادة بأن الرسول حق ، وقد جاءتهم البینات ، فعطف الشهادة بأن الرسول حق ، على الإيمان ، والمعطوف مغاير للمعطوف عليه ، فيلزم أن الشهادة بأن الرسول حق مغاير للإيمان (وجوابه) إن مذهبنا أن الإيمان هو التصديق بالقلب ، والشهادة هو الاقرار باللسان ، وهم متغييران فصارت هذه الآية من هذا الوجه دالة على أن الإيمان مغاير للاقرار باللسان وأنه معنى قائم بالقلب .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ اعلم أنه تعالى استعظم كفر القوم من حيث أنه حصل بعد خصال ثلاثة (أحدها) بعد الإيمان (وثانيها) بعد شهادة كون الرسول حقاً (وثالثها) بعد مجيء البینات ، وإذا كان الأمر كذلك كان ذلك الكفر صلحاً بعد البصيرة وبعد إظهار الشهادة ، فيكون الكفر بعد هذه الأشياء أقبح لأن مثل هذا الكفر يكون كالمعاندة والجحود ، وهذا يدل

على أن زلة العالم أقبح من زلة الجاهل .

أما قوله تعالى (والله لا يهدى القوم الظالمين) فيه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ قال في أول الآية (كيف يهدى الله قوماً) وقال في آخرها (والله لا يهدى القوم الظالمين) وهذا تكرار .

(والجواب) أن قوله (كيف يهدى الله) مختص بالمرتدين ، ثم إنه تعالى عمم ذلك الحكم في المرتد وفي الكافر الأصلي فقال (والله لا يهدى القوم الظالمين) .

﴿ السؤال الثاني ﴾ لم سمي الكافر ظالماً؟ .

(الجواب) قال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) والسبب فيه أن الكافر أورد نفسه موارد البلاء والعذاب بسبب ذلك الكفر ، فكان ظالماً لنفسه .

ثم قال تعالى (أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها) والمعنى أنه تعالى حكم بأن الذين كفروا بعد إيمانهم يمنعهم الله تعالى من هدايته ، ثم بين أن الأمر غير مقصور عليه ، بل كما لا يهديهم في الدنيا يلعنهم اللعن العظيم ويعذبهم في الآخرة ، على سبيل التأييد والخلود .

واعلم أن لعنة الله ، مخالفة للعنة الملائكة ، لأن لعنته بالإبعاد من الجنة وإنزال العقوبة والعذاب واللعنة من الملائكة هي بالقول ، وكذلك من الناس ، وكل ذلك مستحق لهم بسبب ظلمهم وكفرهم فصح أن يكون جزاء لذلك وه هنا سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم عم جميع الناس ومن يوافقه لا يلعنه؟ .

قلنا : فيه وجوه (الأول) قال أبو مسلم له أن يلعنه وإن كان لا يلعنه (الثاني) أنه في الآخرة يلعن بعضهم بعضاً قال تعالى (كلما دخلت أمة لعنت أختها) وقال (ثم يوم القيمة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم ببعض) وعلى هذا التقدير فقد حصل اللعن للكفار من الكفار (والثالث) لأن الناس هم المؤمنون ، والكافر ليسوا من الناس ، ثم لما ذكر لعن الثلاث قال (أجمعين) (الرابع) وهو الأصح عندي أن جميع الخلق يلعنون المبطل والكافر ، ولكنه يعتقد في نفسه أنه ليس بمبطل ولا بكافر ، فإذا لعن الكافر وكان هو في علم الله كافرا ، فقد لعن نفسه وإن كان لا يعلم ذلك .

﴿ السؤال الثاني ﴾ قوله (خالدين فيها) أي خالدين في اللعنة ، فيما خلود اللعنة؟ .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفَّارًا لَن تَقْبِلَ تَوْبَتِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

قلنا : فيه وجهان (الأول) أن التخليد في اللعنة على معنى أنهم يوم القيمة لا يزال يلعنة الملائكة والمؤمنون ومن معهم في النار فلا يخلو شيء من أحوالهم ، من أن يلعنهم لاعن من هؤلاء (الثاني) أن المراد بخلود اللعن خلود أثر اللعن ، لأن اللعن يجب العقاب ، فعبر عن خلود أثر اللعن بخلود اللعن ، ونظيره قوله تعالى (من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيمة وزرًا خالدين فيه) (الثالث) قال ابن عباس قوله (خالدين فيها) أي في جهنم فعلى هذا الكنية عن غير مذكور ، واعلم أن قوله (خالدين فيها) نصب على الحال مما قبله ، وهو قوله تعالى (عليهم لعنة الله) .

ثم قال (لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) معنى الانظار التأخير قال تعالى (فنظرة إلى ميسرة) فالمعنى أنه لا يجعل عذابهم أخف ولا يؤخر العقاب من وقت إلى وقت وهذا تحقيق قول المتكلمين : إن العذاب الملحق بالكافر مضرة خالصة عن شوائب المنافع دائمة غير منقطعة ، نعموز منه بالله .

ثم قال (إلا الذين تابوا من بعد ذلك) والمعنى إلا الذين تابوا منه ، ثم بين أن التوبة وحدها لا تكفي حتى ينضاف إليها العمل الصالح فقال (وأصلحوا) أي أصلحوا باطنهم مع الحق بالمراقبات وظاهرهم مع الخلق بالعبادات ، وذلك بأن يعلموا بأننا كنا على الباطل حتى أنه لو اغتر بطريقتهم الفاسدة مفتر رجع عنها .

ثم قال (فإن الله غفور رحيم) وفيه وجهان (الأول) غفور لقبائهم في الدنيا بالستر ، رحيم في الآخرة بالعفو (الثاني) غفور بازالة العقاب ، رحيم باعطاء الثواب ، ونظيره قوله تعالى (قل للذين كفروا إن يتنهوا يغفر لهم ما قد سلف) ودخلت الغاء في قوله (فإن الله غفور رحيم) لأنه الجزء ، وقدير الكلام : إن تابوا فإن الله يغفر لهم .

قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفَّارًا لَن تَقْبِلَ تَوْبَتِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وفي الآية مسألتان :

﴿المسألة الأولى﴾ اختلfovوا فيما به يزيد الكفر ، والضابط أن المرتديكون فاعلاً للزيادة بأن يقيم ويصر فيكون الإصرار كالزيادة ، وقد يكون فاعلاً للزيادة بأن يضم إلى ذلك الكفر كفراً

آخر ، وعلى هذا التقدير الثاني ذكروا فيه وجوها (الأول) أن أهل الكتاب كانوا مؤمنين بمحمد عليه الصلاة والسلام قبل مبعثه ، ثم كفروا به عند المبعث ، ثم ازدادوا كفراً بسبب طعنهم فيه في كل وقت ، ونقضهم ميثاقه ، وفتنهم للمؤمنين ، وإنكارهم لكل معجزة تظهر (الثاني) أن اليهود كانوا مؤمنين بموسى عليه السلام ، ثم كفروا بسبب إنكارهم عيسى والإنجيل ، ثم ازدادوا كفراً ، بسبب إنكارهم محمدًا عليه الصلاة والسلام والقرآن (الثالث) أن الآية نزلت في الذين ارتدوا وذهبوا إلى مكة ، وازديادهم الكفر أنهم قالوا : نقيم بمكة نترbus بِمُحَمَّدٍ رَبِّ الْمُنْوَنِ (الرابع) المراد فرقاً ارتدوا ، ثم عزموا على الرجوع إلى الإسلام على سبيل النفاق ، فسمى الله تعالى ذلك النفاق كفراً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى حكم في الآية الأولى بقبول توبة المرتدین ، وحكم في هذه الآية بعدم قبولها وهو يوم التناقض ، وأيضاً ثبت بالدليل أنه متى وجدت التوبة بشروطها فأنها تكون مقبولة لا محالة ، فلهذا اختلف المفسرون في تفسير قوله تعالى (لن تقبل توبتهم) على وجوه ؟

(الأول) قال الحسن وقتادة وعطاء : السبب أنهم لا يتوبون إلا عند حضور الموت والله تعالى يقول (وليس التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن) (الثاني) أن يحمل هذا على ما إذا تابوا باللسان ولم يحصل في قلوبهم إخلاص (الثالث) قال القاضي والقفال وابن الأنباري : أنه تعالى لما قدم ذكر من كفر بعد الإيمان ، وبين أنه أهل اللعنة ، إلا أن يتوب ذكر في هذه الآية أنه لو كفر مرة أخرى بعد تلك التوبة فإن التوبة الأولى تصير غير مقبولة وتصير كأنها لم تكن ، قال وهذا الوجه أليق بالآية من سائر الوجوه لأن التقدير : إلا الذين تابوا وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ، فإن كانوا كذلك ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم ، (الرابع) قال صاحب الكشاف : قوله (لن تقبل توبتهم) جعل كنایة عن الموت على الكفر ، لأن الذي لا تقبل توبته من الكفار هو الذي يموت على الكفر ، كأنه قيل إن اليهود والمرتدین الذين فعلوا ما فعلوا مائتون على الكفر داخلون في جملة من لا تقبل توبتهم (الخامس) لعل المراد ما إذا تابوا عن تلك الزيادة فقط فإن التوبة عن تلك الزيادة لا تصير مقبولة ما لم يحصل التوبة عن الأصل ، وأقول : جملة هذه الجوابات إنما تتمشى على ما إذا حملنا قوله (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً) على المعهود السابق لا على الاستغراق وإلا فكم من مرتد تاب عن ارتداده توبة صحيحة مقرونه بالإخلاص في زمان التكليف ، فأما الجواب الذي حكيناه عن القفال والقاضي فهو جواب مطرد سواء حملنا اللفظ على المعهود السابق أو على الاستغراق .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَا تَوَلَّ مِنْ كُفَّارٍ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءَ الْأَرْضِ ذَهَابًا وَلَوْ افْتَدَى
يَهُهَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٦﴾

أما قوله (وأولئك هم الضالون) ففيه سؤالان (الأول) (وأولئك هم الضالون) ينفي كون غيرهم ضالا ، وليس الأمر كذلك فان كل كافر فهو ضال سواء كفر بعد الإيمان أو كان كافراً في الأصل (والجواب) هذا محمول على أنهم هم الضالون على سبيل الكمال .

﴿ السؤال الثاني ﴾ وصفهم أولاً بالتبادي على الكفر والغلو فيه والكفر أصبح أنواع الضلال والوصف إنما يراد للمبالغة ، والمبالغة إنما تحصل بوصف الشيء بما هو أقوى حالا منه لا بما هو أضعف حالا منه (والجواب) قد ذكرنا أن المراد أنهم هم الضالون على سبيل الكمال ، وعلى هذا التقدير تحصل المبالغة .

قوله تعالى ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾ .

أعلم أن الكافر على ثلاثة أقسام (أحدهما) الذي يتوب عن الكفر توبة صحيحة مقبولة وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (وثانيهما) الذي يتوب عن ذلك الكفر توبة فاسدة وهو الذي ذكره الله في الآية المتقدمة وقال : إنه لن تقبل توبته (وثالثها) الذي يموت على الكفر من غير توبة البتة وهو المذكور في هذه الآية ، ثم إنه تعالى أخبر عن هؤلاء ثلاثة أنواع .

﴿ النوع الأول ﴾ قوله (فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به) قال الوحدي ملء الشيء قدر ما يملؤه وانتصب (ذهباً) على التفسير ، ومعنى التفسير : أن يكون الكلام تماماً إلا أنه يكون مبهماً كقوله : عندي عشرون ، فالعدد معلوم ، والمعدود مبهم ، فإذا قلت : درهماً فسرت العدد ، وكذلك إذا قلت : هو أحسن الناس فقد أخبرت عن حسنة ، ولم تبين في ماذا ، فإذا قلت وجهاً أو فعلاً فقد بينته ونصبته على التفسير وإنما نصبيته لأنه ليس له ما ينفعه ولا ما يرفعه فلما خلا من هذين نصب لأن النصب أخف الحركات فيجعل كأنه لا عامل فيه قال صاحب الكشاف : وقرأ الأعمش (ذهب) بالرفع ردأ على ملء كما يقال : عندي عشرون نفساً رجال .

ووهنا ثلاثة أسئلة :

﴿ السؤال الأول ﴾ لم قيل في الآية المتقدمة (لن تقبل) بغير فاء وفي هذه الآية (فلن يقبل) بالفاء ؟ .

(الجواب) أن دخول الفاء يدل على أن الكلام مبني على الشرط والجزاء ، وعند عدم الفاء لم يفهم من الكلام كونه شرطاً وجاء ، تقول : الذي جاءني له درهم ، فهذا لا يفيد أن الدرهم حصل له بسبب المجيء ، وإذا قلت : الذي جاءني فله درهم ، فهذا لا يفيد أن الدرهم حصل له بسبب المجيء فذكر الفاء في هذه الآية يدل على أن عدم قبول الفدية معلل بالموت على الكفر .

﴿ السؤال الثاني ﴾ ما فائدة الواو في قوله (ولو افتدى به) ؟ .

(الجواب) ذكروا فيه وجوها (الأول) قال الزجاج : إنها للعاطف ، والتقدير : لو تقرب إلى الله ملء الأرض ذهباً لم ينفعه ذلك مع كفره ، ولو افتدى من العذاب ملء الأرض ذهباً لم يقبل منه ، وهذا اختيار ابن الأنباري قال : وهذا أوكد في التغليظ لأنه تصريح بنفي القبول من جميع الوجوه (الثاني) (الواو) دخلت لبيان التفصيل بعد الإجمال وذلك لأن قوله (فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً) يحتمل الوجهة الكثيرة ، فنص على نفي القبول بجهة الفدية (الثالث) وهو وجه خطر بيالي ، وهو أن من غضب على بعض عبيده ، فإذا أتحفه ذلك العبد بتحفة وهدية لم يقبلها البتة إلا أنه قد يقبل منه الفدية ، فأما إذا لم يقبل منه الفدية أيضاً كان ذلك غاية الغضب ، والمبالغة إنما تحصل بتلك المرتبة التي هي الغاية ، فحكم تعالى بأنه لا يقبل منهم ملء الأرض ذهباً ولو كان واقعاً على سبيل الفداء تنبيها على أنه لما لم يكن مقبولاً بهذا الطريق ، فإن لا يكون مقبولاً منه بسائر الطرق أولى .

﴿ السؤال الثالث ﴾ أن من المعلوم أن الكافر لا يملك يوم القيمة نقيرا ولا قطميرا ومعلوم أن بقدر أن يملك الذهب فلا ينفع الذهب البتة في الدار الآخرة ، فما فائدة قوله (لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً) .

(الجواب) فيه وجهان (أحدهما) أنهم إذا ماتوا على الكفر فلو أنهم كانوا قد أنفقوا في الدنيا ملء الأرض ذهباً لن يقبل الله تعالى ذلك منهم ، لأن الطاعة مع الكفر لا تكون مقبولة (والثاني) أن الكلام وقع على سبيل الفرض ، والتقدير : فالذهب كنایة عن أعز الأشياء ، والتقدير : لو أن الكافر يوم القيمة قدر على أعز الأشياء ثم قدر على بذلك في غاية الكثرة لعجز أن يتسلل بذلك إلى تخلص نفسه من عذاب الله ، وبالجملة فالقصد أنهم آيسون من تخلص

لَنْ تَنَالُوا الْبَرَ حَتَّىٰ تَنْفَقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَلَمَّا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ عَلِيهِمْ هُنَّ مُؤْلَمُونَ

النفس من العقاب .

﴿ النوع الثاني ﴾ من الوعيد المذكور في هذه الآية قوله (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) وأعلم أنه تعالى لما بين أن الكافر لا يمكنه تخلص النفس من العذاب ، أردفه بصفة ذلك العذاب ، فقال (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) أي مؤلم .

﴿ النوع الثالث ﴾ من الوعيد قوله (وَمَا هُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) والمعنى أنه تعالى لما بين أنه لا خلاص لهم عن هذا العذاب الأليم بسبب الفدية ، بين أيضاً أنه لا خلاص لهم عنه بسبب النصرة والإعانة والشفاعة ، ولأصحابنا أن يتحجوا بهذه الآية على إثبات الشفاعة وذلك لأنه تعالى ختم تعديد وعید الكفار بعدم النصرة والشفاعة فلو حصل هذا المعنى في حق غير الكافر بطل تخصيص هذا الوعيد بالكفر ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبَرَ حَتَّىٰ تَنْفَقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما بين أن الإنفاق لا ينفع الكافر البة علم المؤمنين كيفية الإنفاق الذي يستفعون به في الآخرة ، فقال (لَنْ تَنَالُوا الْبَرَ حَتَّىٰ تَنْفَقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) وبين في هذه الآية أن من أنفق مما أحب كان من جملة الأبرار ، ثم قال في آية أخرى (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ) وقال أيضاً (إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرِيبُونَ مِنْ كَأسٍ كَانَ مِزاجُهَا كَافُورًا) وقال أيضاً (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَىٰ الْأَرْضِ يَنْظَرُونَ تَعْرِفُونَ فِي وُجُوهِهِمْ نَصْرَةَ النَّعِيمِ يَسْقُونَ مِنْ رَحِيقٍ مُخْتَومٍ خَتَامَهُ مَسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلِيَتَنافَسُوا الْمُتَنافِسُونَ) وقال (لَيْسَ الْبَرُ أَنْ تَوْلُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) فالله تعالى لما فصل في سائر الآيات كيفية ثواب الأبرار اكتفى هنا بأن ذكر أن من أنفق ما أحب نال البر ، وفيه لطيفة أخرى .

وهي أنه تعالى قال (لَيْسَ الْبَرُ أَنْ تَوْلُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبَرَ مِنْ أَمْنِ بَالِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ) إلى آخر الآية ، فذكر في هذه الآية أكثر أعمال الخير ، وسماء البر ثم قال في هذه الآية (لَنْ تَنَالُوا الْبَرَ حَتَّىٰ تَنْفَقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) والمعنى أنكم وإن أتيتم بكل تلك الخيرات المذكورة في تلك الآية فانكم لا تفوزون بفضيلة البر حتى تنفقوا مما تحبون ، وهذا يدل على أن الإنسان إذا أنفق ما يحبه كان ذلك أفضل الطاعات ، وهنها بحث وهو : أن لقائل أن يقول كلمة (حتى) لانتهاء الغاية ، فقوله (لَنْ تَنَالُوا الْبَرَ حَتَّىٰ تَنْفَقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) يقتضي أن من أنفق مما أحب فقد نال البر ومن نال البر دخل تحت الآيات الدالة على عظم الثواب للأبرار، فهذا

يقتضي أن من أنفق ما أحب وصل إلى الثواب العظيم وإن لم يأت بسائر الطاعات ، وهو باطل ، وجواب هذا الإشكال : أن الإنسان لا يمكنه أن ينفق محبوبه إلا إذا توسل بإتفاق ذلك المحبوب إلى وجدان محبوب أشرف من الأول ، فعلى هذا الإنسان لا يمكنه أن ينفق الدنيا في الدنيا إلا إذا تيقن سعادة الآخرة ، ولا يمكنه أن يعترف بسعادة الآخرة إلا إذا أقر بوجود الصانع العالم القادر ، وأقر بأنه يجب عليه الانقياد لتكاليفه وأوامره ونواهيه ، فإذا تأملت علمت أن الإنسان لا يمكنه إنفاق الدنيا إلا إذا كان مستجوماً لجميع الخصال المحمودة في الدنيا ، ولنرجع إلى التفسير فنقول في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ كان السلف إذا أحبوا شيئاً جعلوه الله ، روي أنه لما نزلت هذه الآية قال أبو طلحة : يا رسول الله لي حائط بالمدينة وهو أحب أموالي إلى فأتصدق به ؟ فقال عليه السلام « بخ بخ ذاك مال رابح ، وإنني أرى أن تجعلها في الأقربين » فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله ، فقسمها في أقاربه ، ويروي أنه جعلها بين حسان بن ثابت وأبي بن كعب رضي الله عنها ، وروي أن زيد بن حارثة رضي الله عنه جاء عند نزول هذه الآية بفرس له كان يحبه وجعله في سبيل الله ، فحمل عليها رسول الله ﷺ أسمامة ، فوجد زيد في نفسه فقال عليه السلام « إن الله قد قبلها » واشتري ابن عمر جارية أعجبته فأعتقها فقيل له : لم أعتقتها ولم تصب منها ؟ فقال (لن تناولوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ للمفسرين في تفسير البر قولان (أحدهما) ما به يصرون أبداً حتى يدخلوا في قوله (إن الأبرار لفي نعيم) فيكون المراد بالبر ما يحصل منهم من الأعمال المقبولة (والثاني) الثواب والجنة فكانه قال : لن تناولوا هذه المنزلة إلا بالاتفاق على هذا الوجه .

أما القائلون بالقول الأول ، فمنهم من قال (البر) هو التقوى واحتج بقوله (ولكن البر من آمن بالله) إلى قوله (أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقوون) وقال أبوذر : إن البر هو الخير ، وهو قريب مما تقدم .

وأما الذين قالوا : البر هو الجنة فمنهم من قال (لن تناولوا البر) أي لن تناولوا ثواب البر ، ومنهم من قال : المراد بـالـبر أولياءه وإكرامـه إـيـاهـمـ وـتـفـضـلـهـ عـلـيـهـمـ ، وهو من قول الناس : برني فلان بكذا ، وبر فلان لا ينقطع عنـي ، وقال تعالى (لا ينهاكم الله عنـ الذين لم يقاتـلـوكـمـ فـيـ الدـيـنـ) إلى قول (أن تبروـهـ) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ اختلف المفسرون في قوله (ما تحبون) منهم من قال : إنه نفس المال ، قال تعالى (وإنه لحبـ الخـيرـ لـشـدـيدـ) ومنهم من قال : أن تكون الهبة رفيعة جيدة ، قال

تعالى (ولا تيمموا الحديث منه تنفقون) ومنهم من قال : ما يكون محتاجاً إليه قال تعالى (ويطعمون الطعام على حبه مسكتينا) أحد تفاسير الحب في هذه الآية على حاجتهم إليه ، وقال (و يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) وقال عليه السلام « أفضل الصدقة ما تصدقت به وأنت صحيح شحيح تأمل العيش و تخشى الفقر » والأولى أن يقال : كل ذلك معتبر في باب الفضل وكثرة الثواب .

﴿ المسألة الرابعة﴾ اختلاف المفسرون ، في أن هذا الانفاق ، هل هو الزكاة أو غيرها ؟
 قال ابن عباس : أراد به الزكاة ، يعني حتى تخرجوا زكاة أموالكم ، وقال الحسن : كل شيء أنفقه المسلم من ماله طلب به وجه الله فانه من الذين عنى الله سبحانه بقوله (لَنْ تَنَالُوا الْبَرَّ حَتَّى تَنْفَقُوا مَا تَحْبُّونَ) حتى التمرة ، والقاضي اختيار القول الأول ، وأاحتج عليه بأن هذا الانفاق ، وقف الله عليه كون المكلف من الأبرار ، والفوز بالجنة ، بحيث لو لم يوجد هذا الانفاق ، لم يصر العبد بهذه المنزلة ، وما ذاك إلا الانفاق الواجب ، وأقول : لو خصصنا الآية بغير الزكاة لكان أولى لأن الآية مخصوصة بaitاء الأحب ، والزكاة الواجبة ليس فيها إيتاء الأحب ، فإنه لا يجب على المزكي أن يخرج أشرف أمواله وأكرمها ، بل الصحيح أن هذه الآية مخصوصة بaitاء المال على سبيل الندب .

﴿ المسألة الخامسة﴾ نقل الواحدi عن مجاهد والكلبي : أن هذه الآية منسوخة بأية الزكاة ، وهذا في غاية البعد لأن إيجاب الزكاة كيف ينافى الترغيب في بذل المحبوب لوجه الله سبحانه وتعالى

﴿ المسألة السادسة﴾ قال بعضهم كلمة (من) في قوله (ما تحبون) للتبعيض ، وقرأ عبد الله (حتى تنفقوا بعض ما تحبون) وفيه إشارة إلى أن إنفاق الكل لا يجوز ثم قال (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) وقال آخرون : إنها للتبيين .

وأما قوله ﴿ وما تنفقوا من شيء فإن الله به علیم ﴾ ففيه سؤال :

وهو أن يقال : قيل فإن الله به علیم على جهة جواب الشرط مع أن الله تعالى يعلمه على كل حال .

(والجواب) من وجهين (الأول) أن فيه معنى الجزاء تقديره : وما تنفقوا من شيء فإن الله به يجازيكم قل أم كثر ، لأنه علیم به لا يخفى عليه شيء منه ، فجعل كونه عالماً بذلك الإنفاق كنایة عن إعطاء الثواب ، والتعریض في مثل هذا الموضع يكون أبلغ من التصریح

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًا لِبْنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَاتُوا بِإِنْتِرَاجِكُمْ فَأَتَلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَنَّ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأَوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢٨﴾

(والثاني) أنه تعالى يعلم الوجه الذي لأجله يفعلونه ويعلم أن الداعي إليه أهو الإخلاص أم الرياء ويعلم أنكم تنفقون الأحب الأجود ، أم الأحس الأرذل .

واعلم أن نظير هذه الآية قوله (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) وقوله (وما أنفقت من نفقة أو نذرتم من نذر فان الله يعلمه) قال صاحب الكشاف (من) في قوله (من شيء) لتبيين ما ينفقونه أي من شيء كان طيباً تحبونه أو خبيثاً تكرهونه فان الله به عليم يجازيكم على قدره .

قوله تعالى ﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًا لِبْنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَاتُوا بِالْتَّوْرَةِ فَأَتَلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأَوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ، قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

أعلم أن الآيات المتقدمة إلى هذه الآية كانت في تقرير الدلائل الدالة على نبوة محمد ﷺ ، وفي توجيه الالزامات الواردة على أهل الكتاب في هذا الباب .

وأما هذه الآية فهي في بيان الجواب عن شبكات القوم فان ظاهر الآية يدل على أنه ﷺ كان يدعى أن كل الطعام كان حلاً ثم صار البعض حراماً بعد أن كان حلاً والقوم نازعوه في ذلك وزعموا أن الذي هو الآن حرام كان حراماً أبداً .

وإذا عرفت هذا فنقول : الآية تحتمل وجوهاً (الأول) أن اليهود كانوا يعولون في إنكار شرع محمد ﷺ على إنكار النسخ ، فأبطل الله عليهم ذلك بأن (كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه) فذاك الذي حرمه على نفسه ، كان حلاً ثم صار حراماً عليه وعلى أولاده فقد حصل النسخ ، فبطل قولكم : النسخ غير جائز ، ثم إن اليهود لما توجه عليهم هذا السؤال أنكروا أن يكون حرمة ذلك الطعام الذي حرمه الله بسبب أن إسرائيل حرمه على نفسه ، بل زعموا أن ذلك كان حراماً من لدن زمان آدم عليه السلام إلى هذا

الزمان ، فعند هذا طلب الرسول عليه السلام منهم أن يحضروا التوراة فان التوراة ناطقة بأن بعض أنواع الطعام إنما حرم بسبب أن إسرائيل حرمه على نفسه ، فخافوا من الفضيحة وامتنعوا من إحضار التوراة ، فحصل عند ذلك أمور كثيرة تقوى دلائل نبوة محمد ﷺ (أحدها) أن هذا السؤال قد توجه عليهم في إنكار النسخ ، وهو لازم لا محيس عنه (وثانيها) أنه ظهر للناس كذبهم وأنهم ينسبون إلى التوراة ما ليس فيها تارة ، ويكتنعون عن الاقرار بما هو فيها أخرى (وثالثها) أن الرسول ﷺ كان رجلاً أمياً لا يقرأ ولا يكتب فامتنع أن يعرف هذه المسألة

الغامضة من علوم التوراة إلا بخبر السباء وهذا وجه حسن علمي في تفسير الآية وبيان النظم .
﴿الوجه الثاني﴾ أن اليهود قالوا له : إنك تدعى أنك على ملة إبراهيم ، فلو كان الأمر كذلك فكيف تأكل لحوم الإبل وألبانها مع أن ذلك كان حراماً في دين إبراهيم فجعلوا هذا الكلام شبه طاعنة في صحة دعواه ، فأجاب النبي ﷺ عن هذه الشبهة بأن قال : ذلك كان حلاً لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلام ، إلا أن يعقوب حرمه على نفسه بسبب من الأسباب وبقيت تلك الحرمة في أولاده فأنكر اليهود ذلك ، فأمرهم الرسول عليه السلام باحضار التوراة وطالبهم بأن يستخرجو منها آية تدل على أن لحوم الإبل وألبانها كانت حرمة على إبراهيم عليه السلام فعجزوا عن ذلك وافتضحوا فظهر عند هذا أنهم كانوا كاذبين في ادعاء حرمة هذه الأشياء على إبراهيم عليه السلام .

﴿الوجه الثالث﴾ أنه تعالى لما أنزل قوله (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا ، أو ما اختلط بعظام ذلك جزيئاً لهم بغيهم وإنما لصادقون) وقال أيضاً (فيظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) فدللت هذه الآية على أنه تعالى إنما حرم على اليهود هذه الأشياء جزءاً لهم على بغيهم وظلمهم وقبع فعلهم وإنه لم يكن شيء من الطعام حراماً غير الطعام الواحد الذي حرمه إسرائيل على نفسه ، فشق ذلك على اليهود من وجهين (أحدها) أن ذلك يدل على أن تلك الأشياء حرمت بعد أن كانت مباحة ، وذلك يقتضي وقوع النسخ وهم ينكرونها (والثاني) أن ذلك يدل على أنهم كانوا موصوفين بقبائح الأفعال ، فلما حق عليهم ذلك من هذين الوجهين أنكروا كون حرمة هذه الأشياء متعددة ، بل زعموا أنها كانت حرمة أبداً ، فطالبهم النبي ﷺ بآية من التوراة تدل على صحة قولهم فعجزوا عنه فافتضحوا ، وهذا وجه الكلام في تفسير هذه الآية وكله حسن مستقيم ، ولنرجع إلى تفسير الألفاظ .

أما قوله (كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل) ففيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قال صاحب الكشاف (كل الطعام) أي كل المطعومات أو كل

أنواع الطعام وأقول : اختلف الناس في أن اللفظ المفرد المحلى بالألف واللام هل يفيد العموم أم لا ؟ .

ذهب قوم من الفقهاء والأدباء إلى أنه يفيده ، وأحتجوا عليه بوجوه (أحدها) أنه تعالى أدخل لفظ (كل) على لفظ الطعام في هذه الآية ، ولو لا أن لفظ الطعام قائم مقام لفظ المطعومات وإلا لما جاز ذلك (وثانيها) أنه استثنى عنه ما حرم إسرائيل على نفسه والاستثناء يخرج من الكلام ما لا يدخل ، فلولا دخول كل الأقسام تحت لفظ الطعام وإلا لم يصح هذا الاستثناء وأكملوا هذا بقوله تعالى (إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا) (وثالثها) أنه تعالى وصف هذا اللفظ المفرد بما يوصف به لفظ الجمع ، فقال (والنخل باسقات لها طمع نضيد رزقا للعباد) فعلى هذا من ذهب إلى هذا المذهب لا يحتاج إلى الإضمار الذي ذكره صاحب الكشاف ، أما من قال إن الإسم المفرد المحلى بالألف واللام لا يفيدي العموم ، وهو الذي نظرناه في أصول الفقه احتاج إلى الإضمار الذي ذكره صاحب الكشاف .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الطعام اسم لكل ما يطعم ويؤكل ، وزعم بعض أصحاب أبي حنيفة رحمة الله عليه إنه اسم للبر خاصة ، وهذه الآية دالة على ضعف هذا الوجه ، لأنه استثنى من لفظ الطعام ما حرم إسرائيل على نفسه ، والمفسرون اتفقوا على أن ذلك الذي حرمه إسرائيل على نفسه كان شيئاً سوى الخنطة ، وسوى ما يتخذ منها وما يؤكذ ذلك قوله تعالى في صفة الماء (ومن لم يطعمه فإنه مني) وقال تعالى (وطعم الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعمكم حل لهم) وأراد الذبائح ، وقالت عائشة رضي الله عنها : مالنا طعام إلا الأسودان ، والمراد التمر والماء .

إذا عرفت هذا فتقول : ظاهر هذه الآية يدل على أن جميع المطعومات كان حلا لبني إسرائيل ثم قال القفال : لم يبلغنا أنه كانت الميّة مباحة لهم مع أنها طعام ، وكذا القول في الخنزير ، ثم قال فيحتمل أن يكون ذلك على الأطعمة التي كان يدعى اليهود في وقت الرسول عليه السلام أنها كانت محمرة على إبراهيم ، وعلى هذا التقدير لا تكون الألف واللام في لفظ الطعام للأستغراق ، بل للعهد السابق ، وعلى هذا التقدير يزول الإشكال ومثله قوله تعالى (قل لا أجد فيها أوحى إلى حرم على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوها أو لحم خنزير) فإنه إنما خرج هذا الكلام على أشياء سألا عندها فعرفوا أن المحرم منها كذا وكذا دون غيره فكذا في هذه الآية .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الخل مصدر يقال : حل الشيء حلا كقولك : ذلت الدابة ذلا وعز الرجل عزاً ، ولذلك استوى في الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع قال تعالى (لاهن

حل لهم) والوصف بالمصدر يفيد المبالغة فههنا الخل والحلال والمحلل واحد ، قال أبا عباس رضي الله عنهم في زمزم هي حل ويل رواه سفيان بن عيينة فسئل سفيان : ما حل ؟ فقال محلل .

أما قوله تعالى (إلا ما حرم إسرائيل على نفسه) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ اختلفوا في الشيء الذي حرمه إسرائيل على نفسه على وجوه (الأول) روى ابن عباس أن النبي ﷺ قال « إن يعقوب مرض مرضًا شديداً فنذر لئن عافاه الله ليحرمن أحب الطعام والشراب عليه ، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل وأحب الشراب إليه ألبانها » وهذا قول أبي العالية وعطاء ومقاتل (والثاني) قيل إنه كان به عرق النساء، فنذر إن شفاء الله أن لا يأكل شيئاً من العروق (الثالث) جاء في بعض الروايات أن الذي حرمه على نفسه زوائد الكبد والشحم إلا ما على الظهر ، ونقل القفال رحمة الله عن ترجمة التوراة ، أن يعقوب لما خرج من حران إلى كنعان بعث برداً إلى عيسو أخيه إلى أرض ساعير ، فانصرف الرسول إليه ، وقال : إن عيسو هوذا يتلقاك ومعه أربعين رجل ، فذعر يعقوب وحزن جداً وصلى ودعا وقدم هدايا لأخيه وذكر القصة إلى أن ذكر الملك الذي لقيه في صورة رجل ، فدنا ذلك الرجل ووضع أصبعه على موضع عرق النساء ، فجدرت تلك العصبة وجفت فمن أجل هذا لا يأكل بنو إسرائيل العروق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ظاهر الآية يدل على أن إسرائيل حرم ذلك على نفسه ، وفيه سؤال : وهو أن التحرير والتخليل إنما يثبت بخطاب الله تعالى ، فكيف صار تحرير يعقوب عليه السلام سبباً لحصوله الحرمة .

أجاب المفسرون عنه من وجوه (الأول) أنه لا يبعد أن الإنسان إذا حرم شيئاً على نفسه فإن الله يحرمه عليه ألا ترى أن الإنسان يحرم أمراته على نفسه بالطلاق ، ويحرم جاريته بالعتق ، فكذلك جائز أن يقول تعالى إن حرمت شيئاً على نفسك فأنا أيضاً أحربه عليك (الثاني) إنه عليه الصلاة والسلام ربما اجتهد فأدى اجتهاده إلى التحرير ، فقال بحرمه وإنما قلنا إن الاجتهاد جائز من الأنبياء لوجوه (الأول) قوله تعالى (فاعتبروا يا أولى الأ بصار) ولا شك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام رؤساء أولى الأ بصار (والثاني) قال (لعله الذين يستتبونه منهم) مدح المستتبدين والأنبياء أولى بهذا المدح (والثالث) قال تعالى لمحمد عليه الصلاة والسلام (عفا الله عنك لم أذنت لهم) فلو كان ذلك الإذن بالنص ، لم يقل : لم أذنت ، فدل على أنه كان بالاجتهاد (الرابع) أنه لا طاعة إلا ولأنبياء عليهم الصلاة والسلام

فيها أعظم نصيب ولا شك أن استنباط أحكام الله تعالى بطريق الاجتهاد طاعة عظيمة شاقة ، فوجب أن يكون للأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيها نصيب لا سيما ومعارفهم أكثر وعقولهم أنور وأذانهم أصفى وتوفيق الله تسلكه معهم أكثر ، ثم إذا حكموا بحكم بسبب الاجتهاد يحرم على الأمة مخالفتهم في ذلك الحكم كما أن الإجماع إذا انعقد على الاجتهاد فإنه يحرم مخالفته والأظهر والأقوى أن إسرائيل صلوات الله عليه إنما حرم ذلك على نفسه بسبب الاجتهاد إذ لو كان ذلك بالنص لقال إلا ما حرم الله على إسرائيل فلما أضاف التحرير إلى إسرائيل دل هذا على أن ذلك كان بالاجتهاد وهو كما يقال . الشافعي يحمل لحم الخيل وأبو حنيفة يحرمه يعني أن اجتهاده أدى إليه فكذا هنا .

(الثالث) يحتمل أن التحرير في شرعيه كالنذر في شرعا ، فكما يجب علينا الوفاء بالنذر كان يجب في شرعيه الوفاء بالتحرير .

واعلم أن هذا لو كان فإنه كان مختصاً بشرعه أما في شرعين فهو غير ثابت قال تعالى (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك) (الرابع) قال الأصم : لعل نفسه كانت مائلة إلى أكل تلك الأنواع فامتنع من أكلها قهراً للنفس وطلبأً لرضاعة الله تعالى ، كما يفعله كثير من الزهاد فعبر من ذلك الامتناع بالتحرير (الخامس) قال قوم من المتكلمين أنه يجوز من الله تعالى أن يقول لعبده : احكم فانك لا تحكم إلا بالصواب فلعل هذه الواقعة كانت من هذا الباب ، وللمتكلمين في هذه المسألة منازعات كثيرة ذكرناها في أصول الفقه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ ظاهر هذه الآية يدل على أن الذي حرمه إسرائيل على نفسه فقد حرمه الله علىبني إسرائيل ، وذلك لأنه تعالى قال (كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل) فحكم بحل كل أنواع المطعومات لبني إسرائيل ، ثم استثنى عنه ما حرمه إسرائيل على نفسه ، فوجب بحكم الاستثناء أن يكون ذلك حراماً علىبني إسرائيل والله أعلم .

أما قوله تعالى (من قبل أن تنزل التوراة) فالمعنى أن قبل نزول التوراة كان حلاً لبني إسرائيل كل أنواع المطعومات سوى ما حرمه إسرائيل على نفسه ، أما بعد التوراة فلم يبق كذلك بل حرم الله تعالى عليهم أنواعاً كثيرة ، روى أن بنى إسرائيل كانوا إذا أتوا بذنب عظيم حرم الله عليهم نوعاً من أنواع الطعام ، أو سلط عليهم شيئاً هلاكاً أو مضره ، دليلاً قوله تعالى (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) .

ثم قال تعالى (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين) وهذا يدل على أن القوم نازعوا رسول الله ﷺ ، إما لأنهم ادعوا أن تحرير هذه الأشياء كان موجوداً من لدن آدم عليه

السلام إلى هذا الزمان . فكذبهم رسول الله ﷺ في ذلك ، وإنما لأن الرسول ﷺ ادعى كون هذه المطعومات مباحة في الزمان القديم ، وأنها إنما حرمت بسبب أن إسرائيل حرمتها على نفسه ، فنأزعنوه في ذلك ، فطلب الرسول عليه السلام إحضار التوراة ليستخرج منها المسلمون من علماء أهل الكتاب آية موافقة لقول الرسول ، وعلى كلا الوجهين ، فالتفصير ظاهر ، ولنكري القياس أن يحتاجوا بهذه الآية ، وذلك لأن الرسول عليه السلام طالبهم فيها ادعوه بكتاب الله ، ولو كان القياس حجة لكان لهم أن يقولوا : لا يلزم من عدم هذا الحكم في التوراة عدمه ، لأننا نثبته بالقياس ، ويمكن أن يحاب عنه بأن النزاع ما وقع في حكم شرعي ، وإنما وقع في أن هذا الحكم ، هل كان موجوداً في زمان إبراهيم وسائر الأنبياء عليهم السلام أم لا ؟ ومثل هذا لا يمكن إثباته إلا بالنصل ، فلهذا المعنى طالبهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، بنص التوراة .

ثم قال تعالى (فمن افترى على الله الكذب) الافتراء اختلاق الكذب ، والفرية الكذب والقذف ، وأصله من فرى الأديم ، وهو قطعه ، فقيل للذئب افتراء ، لأن الكاذب يقطع به في القول من غير تحقيق في الوجود .

ثم قال (من بعد ذلك) أي من بعد ظهور الحجة بأن التحرير إنما كان من جهة يعقوب ، ولم يكن محراً ما قبله (فأولئك هم الظالمون) المستحقون لعذاب الله لأن كفرهم ظلم منهم لأنفسهم ولن أصلوه عن الدين .

ثم قال تعالى (قل صدق الله) ويحتمل وجهاً (أحدها) (قل صدق) في أن ذلك النوع من الطعام صار حراماً على إسرائيل وأولاده بعد أن كان حلالاً لهم ، فصح القول بالنسخ ، وبطلت شبهة اليهود (وثانيها) (صدق الله) في قوله إن لحوم الإبل وألبانها كانت حملة لإبراهيم عليه السلام وإنما حرمت علىبني إسرائيل لأن إسرائيل حرمتها على نفسه ، فثبتت أن محمد ﷺ لما أفتى يحل لحوم الإبل وألبانها ، فقد أفتى بملة إبراهيم (وثالثها) (صدق الله) في أن سائر الأطعمة كانت حملة لبني إسرائيل وأنها إنما حرمت على اليهود جزاء على قبائح أفعالهم .

ثم قال تعالى (فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً) أي اتبعوا ما يدعوكم إليه محمد صلوات الله عليه من ملة إبراهيم ، وسواء قال : ملة إبراهيم حنيفاً ، أو قال : ملة إبراهيم الحنيف لأن الحال والصفة سواء في المعنى .

ثم قال (وما كان من المشركين) أي لم يدع مع الله إله آخر ، ولا عبد سواه ، كما فعله

**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَيْكَةً مُبَارَّكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ فِيهِ آيَاتٌ
بَيَّنَتْ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا**

بعضهم من عبادة الشمس والقمر ، أو كما فعله العرب من عبادة الأوثان ، أو كما فعله اليهود من ادعاء أن عزير ابن الله ، وكما فعله النصارى من ادعاء أن المسيح ابن الله ، والغرض منه بيان أن محمداً صلوات الله عليه على دين إبراهيم عليه السلام ، في الفروع والأصول .

أما في الفروع ، فلما ثبت أن الحكم بحله كان إبراهيم قد حكم بحله أيضاً ، وأما في الأصول فلأنه محمداً صلوات الله وسلامه عليه لا يدعوا إلا إلى التوحيد ، والبراءة عن كل معبد سوى الله تعالى وما كان إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه إلا على هذا الدين .

قوله تعالى ﴿ إن أول بيت وضع للناس الذي بيكة مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ﴾ في اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه (الأول) أن المراد منه الجواب عن شبهة أخرى من شبه اليهود في إنكار نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، وذلك لأنه عليه السلام لما حول القبلة إلى الكعبة طعن اليهود في نبوته ، وقالوا أن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحق بالاستقبال ، وذلك لأنه وضع قبل الكعبة ، وهو أرض المحرش ، وقبلة جملة الأنبياء ، وإذا كان كذلك كان تحويل القبلة منه إلى الكعبة باطلأ ، فأجاب الله تعالى عنه بقوله (إن أول بيت وضع للناس) فيبين تعالى أن الكعبة أفضل من بيت المقدس وأشرف ، فكان يجعلها قبلة أولى (والثاني) أن المقصود من الآية المتقدمة بيان أن النسخ هل يجوز أم لا ؟ فإن النبي ﷺ استدل على جوازه بأن الأطعمة كانت مباحة لبني إسرائيل ، ثم أن الله تعالى حرم بعضها ، والقوم نازعوا رسول الله ﷺ فيه ، وأعظم الأمور التي أظهر رسول الله نسخها هو القبلة ، لا جرم ذكر تعالى في هذه الآية بيان ما لأجله خولت الكعبة ، وهو كون الكعبة أفضل من غيرها (الثالث) أنه تعالى لما قال في الآية المتقدمة (فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) وكان من أعظم شعار ملة إبراهيم الحج ، ذكر في هذه الآية فضيلة البيت ، ليفرغ عليه إيجاب الحج (الرابع) أن اليهود والنصارى زعم كل فرقة منهم أنه على ملة إبراهيم ، وقد سبقت هذه المنازرة في الآيات المتقدمة . فإن الله تعالى بين كذبهم ، من حيث أن حج الكعبة كان ملة إبراهيم واليهود والنصارى لا يحجون ، فيدل هذا على كذبهم في ذلك ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال المحققون (الأول) هو الفرد السابق ، فإذا قال : أول عبد

اشترى فهو حر فلو اشتري عبدين في المرة الأولى لم يعتق أحد منها لأن الأول هو الفرد ، ثم لو اشتري في المرة الثانية عبداً واحداً لم يعتق ، لأن شرط الأول كونه سابقاً فثبت أن الأول هو الفرد السابق .

إذا عرفت هذا فنقول : إن قوله تعالى (إن أول بيت وضع للناس) لا يدل على أنه أول بيت خلقه الله تعالى ، ولا أنه أول بيت ظهر في الأرض ، بل ظاهر الآية يدل على أنه أول بيت وضع للناس ، وكونه موضعاً للناس يقتضي كونه مشتركاً فيه بين جميع الناس ، فاما سائر البيوت فيكون كل واحد منها مختصاً بوحد من الناس فلا يكون شيء من البيوت موضعاً للناس ، وكون البيت مشتركاً فيه بين كل الناس ، لا يحصل إلا إذا كان البيت موضعاً للطاعات والعبادات قبلة للخلق ، فدل قوله تعالى (إن أول بيت وضع للناس) على أن هذا البيت وضعه الله موضعاً للطاعات والخيرات والعبادات ، فيدخل فيه كون هذا البيت قبلة للصلوات ، ومكاناً يزداد ثواب العبادات والطاعات فيه .

فإن قيل : كونه أولاً في هذا الوصف يقتضي أن يكون له ثان ، وهذا يقتضي أن يكون بيت المقدس يشاركه في هذه الصفات التي منها وجوب حجه ، ومعلوم أنه ليس كذلك .

(والجواب) من وجهين (الأول) أن لفظ (الأول) في اللغة اسم للشيء الذي يوجد أبتداء ، سواء حصل عقيبه شيء آخر أو لم يحصل ، يقال : هذا أول قدمي مكة ، وهذا أول مال أصبه ولو قال : أول عبد ملكته فهو حر فملك عبداً عتق وإن لم يملك بعده عبداً آخر ، فكذا هنا ، (والثاني) أن المراد من قوله (إن أول بيت وضع للناس) أي أول بيت وضع لطاعات الناس وعباداتهم وبيت المقدس يشاركه في كونه بيتاً موضعاً للطاعات والعبادات ، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث مساجد : المسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجدي هذا » فهذا القدر يكفي في صدق كون الكعبة أول بيت وضع للناس ، وأما أن يكون بيت المقدس مشاركاً له في جميع الأمور حتى في وجوب الحج ، فهذا غير لازم والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن قوله (إن أول بيت وضع للناس الذي بيكة مباركاً) يحمل على أن يكون المراد كونه أولاً في الوضع والبناء وأن يكون المراد كونه أولاً في كونه مباركاً وهدى فحصل للمفسرين في تفسير هذه الآية قولان (الأول) أنه أول في البناء والوضع ، والذاهبون إلى هذا المذهب لهم أقوال (أحدها) ما روى الواحدي رحمة الله تعالى في البسيط بسانده عن مجاهد أنه قال : خلق الله تعالى هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرضين ، وفي روایة أخرى : خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرض بalfi سنة ، وإن قواعده

لفي الأرض السابعة السفل وروى أيضاً عن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله تعالى عليهم أجمعين عن أبيه عن النبي ﷺ قال « إن الله تعالى بعث ملائكته فقال ابنوا لي في الأرض بيتك على مثال البيت المعمور وأمر الله تعالى من في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور ، وهذا كان قبل خلق آدم » .

وأيضاً ورد في سائر كتب التفسير عن عبدالله بن عمر ، ومجاهد والستي : أنه أول بيت وضع على وجه الماء عند خلق الأرض والسماء ، وقد خلقه الله تعالى قبل الأرض بألفي عام وكان زبدة بيضاء على الماء ثم دحيت الأرض تحته ، قال الف قال في تفسيره : روى حبيب بن ثابت عن ابن عباس أنه قال : وجد في كتاب في المقام أو تحت المقام « أنا الله ذوبكة وضعتها يوم وضعت الشمس والقمر ، وحرمتها يوم وضعت هذين الحجرين ، وحفتها بسبعة أملال حنفاء » (وثانيها) أن آدم صلوات الله عليه وسلم لما أهبط إلى الأرض شكا الوحشة ، فأمره الله تعالى ببناء الكعبة وطاف بها ، وبقي ذلك إلى زمان نوح عليه السلام ، فلما أرسل الله تعالى الطوفان ، رفع البيت إلى السماء السابعة حيال الكعبة ، يتبعده عنده الملائكة ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك سوى من دخل من قبل فيه ، ثم بعد الطوفان اندرس موضع الكعبة ، وبقي مختفياً إلى أن بعث الله تعالى جبريل صلوات الله عليه إلى إبراهيم عليه السلام ودلله على مكان البيت ، وأمره بعمارته ، فكان المهندس جبريل والبناء إبراهيم والمعين إسماعيل عليهم السلام .

واعلم أن هذين القولين يشتركان في أن الكعبة كانت موجودة في زمان آدم عليه السلام . وهذا هو الأصوب ويدل عليه وجوه (الأول) أن تكليف الصلاة كان لازماً في دين جميع الأنبياء عليهم السلام ، بدليل قوله تعالى في سورة مريم (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملناه مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبينا إذ تتنى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيا) فدللت الآية على أن جميع الأنبياء عليهم السلام كانوا يسجدون لله والمسجدة لا بد لها من قبلة ، ولو كانت قبلة شيث وإدريس ونوح عليهم السلام موضعاً آخر سوى قبلة لبطل قوله (إن أول بيت وضع للناس للذي بيته) فوجب أن يقال : إن قبلة أولئك الأنبياء المتقدمين هي الكعبة ، فدل هذا على أن هذه الجهة كانت أبداً مشرفة مكرمة (الثاني) أن الله تعالى سمي مكة أم القرى ، وظاهراً هذا يقتضي أنها كانت سابقة على سائر البقاع في الفضل والشرف منذ كانت موجودة (الثالث) روى أن النبي ﷺ قال في خطبته يوم فتح مكة « ألا إن الله قد حرم مكة يوم خلق السموات والأرض والشمس والقمر » وتحريم مكة لا يمكن إلا بعد وجود مكة (الرابع) أن الآثار التي حكيناها عن الصحابة

والتابعين دالة على أنها كانت موجودة قبل زمان إبراهيم عليه السلام .

واعلم أن من أنكر ذلك أن يحتج بوجوه (الأول) ما روي أن النبي ﷺ قال « اللهم إني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة » وظاهر هذا يقتضي أن مكة بناء إبراهيم عليه السلام ولقائل أن يقول : لا بعد أن يقال البيت كان موجوداً قبل إبراهيم وما كان محراً ثم حرمه إبراهيم عليه السلام (الثاني) تمسكوا بقوله تعالى (وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) ولقائل أن يقول : لعل البيت كان موجوداً قبل ذلك ثم انهدم ، ثم أمر الله إبراهيم برفع قواعده وهذا هو الوارد في أكثر الأخبار (الثالث) قال القاضي : إن الذي يقال من أنه رفع زمان الطوفان إلى السماء بعيد ، وذلك لأن الموضع الشريف هو تلك الجهة المعينة ، والجهة لا يمكن رفعها إلى السماء لأن الكعبة والعياذ بالله تعالى لو انهدمت ونقل الأحجار والخشب والتراب إلى موضع آخر لم يكن له شرف البتة ، ويكون شرف تلك الجهة باقياً بعد الانهدام ، ويجب على كل مسلم أن يصلى إلى تلك الجهة بعينها ، وإذا كان كذلك فلا فائدة في نقل تلك الجدران إلى السماء ولقائل أن يقول : لما صارت تلك الأجسام في العزة إلى حيث أمر الله بنقلها إلى السماء ، وإنما حصلت لها هذه العزة بسبب أنها كانت حاصلة في تلك الجهة ، فصار نقلها إلى السماء من أعظم الدلائل على غاية تعظيم تلك الجهة وإعزازها ، فهذا جملة ما في هذا القول :

﴿ القول الثاني ﴾ إن المراد من هذه الأولية كون هذا البيت أولاً في كونه مباركاً وهدى للخلق روى أن النبي عليه الصلاة والسلام سئل عن أول مسجد وضع للناس ، فقال عليه الصلاة والسلام « المسجد الحرام ثم بيت المقدس » فقيل كم بينهما ؟ قال « أربعون سنة » وعن علي رضي الله عنه أن رجلاً قال له : أ هو أول بيت ؟ قال : لا قد كان قبله بيوت ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة أول من بناء إبراهيم ، ثم بناء قوم من العرب من جرهم . ثم هدم فبناء العمالقة ، وهم ملوك من أولاد عمليق بن سام بن نوح ، ثم هدم فبناء قريش .

واعلم أن دلالة الآية على الأولية في الفضل والشرف أمر لا بد منه ، لأن المقصود الأصلي من ذكر هذه الأولية بيان الفضيلة ، لأن المقصود ترجيحه على بيت المقدس ، وهذا إنما يتم بالأولية في الفضيلة والشرف ، ولا تأثير للأولية في البناء في هذا المقصود ، إلا أن ثبوت الأولية بسبب الفضيلة لا ينافي ثبوت الأولية في البناء ، وقد دللتنا على ثبوت هذا المعنى أيضاً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ إذا ثبت أن المراد من هذه الأولية زيادة الفضيلة والمنقبة فلنذكر هبنا

وجوه فضيلة البيت :

﴿ الفضيلة الأولى ﴾ اتفقت الأمم على أن باني هذا البيت هو الخليل عليه السلام ، وباني بيت المقدس سليمان عليه السلام ، ولا شك أن الخليل أعظم درجة وأكثر منقبة من سليمان عليه السلام فمن هذا الوجه يجب أن تكون الكعبة أشرف من بيت المقدس .

واعلم أن الله تعالى أمر الخليل عليه السلام بعمارة هذا البيت ، فقال (وإنذ بوانا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع والسجود) وال明珠 لهذا التكليف هو جبريل عليه السلام ، فلهذا قيل : ليس في العالم بناء أشرف من الكعبة ، فالأمر هو الملك الجليل والمهندس هو جبريل ، والباني هو الخليل ، والتلميذ إسماعيل عليهم السلام .

﴿ الفضيلة الثانية ﴾ (مقام إبراهيم) وهو الحجر الذي وضع إبراهيم قدمه عليه فجعل الله ما تحت قدم إبراهيم عليه السلام من ذلك الحجر دون سائر أجزائه كالطين حتى غاص فيه قدم إبراهيم عليه السلام ، وهذا مما لا يقدر عليه إلا الله ولا يظهره إلا على الأنبياء ، ثم لما رفع إبراهيم قدمه عنه خلق فيه الصلابة الحجرية مرة أخرى ، ثم إنه تعالى أبقى ذلك الحجر على سبيل الاستمرار والدوام فهذه أنواع من الآيات العجيبة والمعجزات الباهرة أظهرها الله سبحانه في ذلك الحجر .

﴿ الفضيلة الثالثة ﴾ ملة ما يجتمع فيه من حصى الجمار ، فإنه منذ آلاف سنة وقد يبلغ من يرمي في كل سنة ستةألف إنسان كل واحد منهم سبعين حصاة ، ثم لا يرى هناك إلا ما لواجتمع في سنة واحدة لكان غير كثير وليس الموضع الذي ترمي إليه الجمرات مسيلاً ماء ولا مهباً رياحاً شديدة وقد جاء في الآثار أن من كانت حجته مقبولة رفعت حجارة جمراته إلى السماء .

﴿ الفضيلة الرابعة ﴾ إن الطيور ترك المرور فوق الكعبة عند طيرانها في الهواء بل تنحرف عنها إذا ما وصلت إلى فوقها .

﴿ الفضيلة الخامسة ﴾ أن عنده يجتمع الوحش لا يؤذي بعضها بعضاً كالكلاب والظباء ، ولا يصطاد فيه الكلاب والوحش وتلك خاصية عجيبة وأيضاً كل من سكن مكة أو من النهب والغارقة وهو بركة دعاء إبراهيم عليه السلام حيث قال (رب اجعل هذا بلدآ آمناً) وقال تعالى في صفة آمنه (أولم يروا أنها جعلنا حرماً آمناً ويتحطف الناس من حولهم) وقال (فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) ولم ينقل البة أن ظالماً هدم الكعبة وخرب مكة بالكلية ، وأما بيت المقدس فقد هدمه بختنصر بالكلية .

﴿ الفضيلة السادسة ﴾ أن صاحب الفيل وهو أبرهة الأشم لقاد الجيوش والفيل إلى مكة لتخريب الكعبة وعجز قريش عن مقاومة أولئك الجيوش وفارقوا مكة وتركوا له الكعبة فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل ، والأبابيل هم الجماعة من الطير بعد الجماعة ، وكانت صغاراً تحمل أحجاراً ترميهم بها فهلك الملك وهلك العسكر بتلك الأحجار مع أنها كانت في غاية الصغر ، وهذه آية باهرة دالة على شرف الكعبة وإرهاص لنبوة محمد عليه الصلاة والسلام .

فإن قال قائل : لم لا يجوز أن يقال إن كل ذلك بسبب طلس موضع هناك بحيث لا يعرف أحد فإن الأمر في تركيب الطسلات مشهور .

قلنا : لو كان هذا من باب الطسلات لكان هذا طلسمًا مخالفًا لسائر الطسلات فإنه لم يحصل لشيء سوى الكعبة مثل هذا البقاء الطويل في هذه المدة العظيمة ، ومثل هذا يكون من المعجزات ، فلا يمكن منها سوى الأنبياء .

﴿ الفضيلة السابعة ﴾ إن الله تعالى وضعها بواد غير ذي زرع ، والحكمة من وجوه (أحدتها) إنه تعالى قطع بذلك رجاء أهل حرمه وسدنة بيته عمن سواه حتى لا يتوكلا إلا على الله (وثانيها) أنه لا يسكنها أحد من الجبارية والأكاسرة فانهم يريدون طيبات الدنيا فإذا لم يجعلوها هناك تركوا ذلك الموضع ، فالمقصود تزييه ذلك الموضع عن لوث وجود أهل الدنيا (وثالثها) أنه فعل ذلك لئلا يقصدها أحد للتجارة بل يكون ذلك لمحض العبادة والزيارة فقط (ورابعها) أظهر الله تعالى بذلك شرف الفقر حيث وضع أشرف البيوت في أقل الموضع نصباً من الدنيا ، فكأنه قال : جعلت الفقراء في الدنيا أهل البلد الأمين ، فكذلك أجعلهم في الآخرة أهل المقام الأمين ، لهم في الدنيا بيت الأمان وفي الآخرة دار الأمان (وخامسها) كأنه قال : مال مجعل الكعبة إلا في موضع خال عن جميع نعم الدنيا فكذا لا أجعل كعبة المعرفة إلا في كل قلب خال عن حبة الدنيا ، فهذا ما يتعلق بفضائل الكعبة ، وعند هذا ظهر أن هذا البيت أول بيت وضع للناس في أنواع الفضائل والمناقب ، وإذا ظهر هذا بطل قول اليهود : إن بيت المقدس أشرف من الكعبة والله أعلم .

ثم قال تعالى (للذى بيتك) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لا شك أن المراد من (بكة) هو مكة ثم اختلفوا فمنهم من قال : بكة ومكة اسمان لسمى واحد ، فان الباء والميم حرفان متقاربان في المخرج فيقام كل واحد منها مقام الآخر فيقال : هذه ضربة لازم ، وضربة لازب ، ويقال : هذا دائم ودائبل ، ويقال : راتب وراتم ، ويقال : سمد رأسه ، وسبده ، وفي استيقاف بكة وجهان (الأول) أنه

من البك الذي هو عبارة عن دفع البعض ببعضًا، يقال : بكة بيكة بكأ إذا دفعه وزحمه ، وتباك القوم إذا أزدحمو فلهذا قال سعيد بن جبير : سميت مكة بكة لأنهم يتباكون فيها أي يزدحون في الطواف ، وهو قول محمد بن علي الباقي ومجاهد وقتادة قال بعضهم : رأيت محمد بن علي الباقي يصلّي فمرت امرأة بين يديه فذهبت أدفعها فقال : دعها فإنها سميت بكة لأنه يبك بعضهم ببعضًا ، تمر المرأة بين يدي الرجل وهو يصلّي ، والرجل بين يدي المرأة وهي تصلي لا يأس بذلك في هذا المكان .

﴿ الوجه الثاني ﴾ سميت بكة لأنها تبك عنق الجبار لا يريدها جبار بسوء إلا اندقت عنقه قال قطرب : تقول العرب بككت عنقه أبكه بكأ إذا وضعت منه ورددت نخوته .

وأما مكة ففي استيقاها وجوه (الأول) أن استيقاها من أنها تمك الذنوب أي تزيلها كلها ، من قولك : امتك الفصيل ضرع أمه ، إذا امتص ما فيه (الثاني) سميت بذلك لاحتلا بها الناس من كل جانب من الأرض ، يقال امتك الفصيل ، إذا استقصى ما في الضرع ، ويقال تمككت العظم ، إذا استقصيت ما فيه (الثالث) سميت مكة ، لقلة مائتها ، كأن أرضها امتكت ماءها (الرابع) قيل : إن مكة وسط الأرض ، والعيون والمياه تنبع من تحت مكة ، فالأرض كلها تمك من ماء مكة ، ومن الناس من فرق بين مكة وبكة ، فقال بعضهم : إن بكة اسم للمسجد خاصة ، وأما مكة ، فهو اسم لكل البلد ، قالوا : والدليل عليه اشتقاد بكة من الازدحام والمدافعة ، وهذا إنما يحصل في المسجد عند الطواف ، لا فيسائر المواقع ، وقال الأكثرون : مكة اسم للمسجد والمطاف . وبكة اسم البلد ، والدليل عليه أن قوله تعالى (للذى بيكة) يدل على أن البيت حاصل في بكة ومظروف في بكة فلو كان بكة اسمًا للبيت لبطل كون بكة ظرفاً للبيت ، أما إذا جعلنا بكة اسمًا للبلد ، استقام هذا الكلام .

﴿ المسألة الثانية ﴾ لمكة أسماء كثيرة ، قال القفال رحمه الله في تفسيره : مكة وبكة وأم رحم وكويساء والبشاشة والحاشمة تحطم من استخف بها ، وأم القرى قال تعالى (لتتنذر أم القرى ومن حولها) سميت بهذا الاسم لأنها أصل كل بلدة ومنها دحيت الأرض ، وهذا المعنى مزار ذلك الموضع من جميع نواحي الأرض .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ للكعبة أسماء (أحدها) الكعبة قال تعالى (جعل الله الكعبة البيت الحرام) والسبب فيه أن هذا الاسم يدل على الإشراف والارتفاع ، وسمي الكعب كعباً لإشرافه وارتفاعه على الرسغ ، وسميت المرأة الناهدة الثديين كاعباً ، لارتفاع قديها ، فلما كان هذا البيت أشرف بيوت الأرض وأقدمها زماناً ، وأكثرها فضيلة سمي بهذا الاسم (وثانيها)

البيت العتيق : قال تعالى (ثم محلها إلى البيت العتيق) وقال (وليطوفوا بالبيت العتيق) وفي اشتقاء وجهه (الأول) العتيق هو القديم ، وقد بينما أنه أقدم بيوت الأرض بل عند بعضهم أن الله خلقه قبل الأرض والسماء (والثاني) أن الله أعتقه من الغرق حيث رفعه إلى السماء (الثالث) من عتق الطائر إذا قوى في وكره ، فلما بلغ في القوة إلى حيث أن كل من قصد تربيه أهلكه الله سمي عتيقاً (الرابع) أن الله أعتقه من أن يكون ملكاً لأحد من المخلوقين (الخامس) أنه عتيق يعني أن كل من زاره أعتقه الله تعالى من النار (وثالثها) المسجد الحرام قال سبحانه (سبحان الذي أسرى بعده ليلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) والمراد من كونه حراماً سيجيء إن شاء الله في تفسير هذه الآية .

فإن قال قائل : كيف الجمع بين قوله (إن أول بيت وضع للناس) وبين قوله (وظهر بيته للطائفين) فاضافه مرة إلى نفسه ومرة إلى الناس .

(والجواب) كأنه قيل : البيت لي ولكن وضعته لا لأجل منفعتي فاني منزه عن الحاجة ولكن وضعته لك ليكون قبلة لدعائك والله أعلم .

ثم قال تعالى (مباركاً وهدى للعالمين) .

واعلم أنه تعالى وصف هذا البيت بأنواع الفضائل (فأولها) أنه أول بيت وضع للناس ، وقد ذكرنا معنى كونه أولاً في الفضل ونزيد هنا وجوهاً آخر (الأول) قال علي رضي الله عنه ، هو أول بيت خص بالبركة ، وبأن من دخله كان آمناً ، وقال الحسن : هو أول مسجد عبدالله فيه في الأرض وقال مطرف : أول بيت جعل قبلة (وثانيها) أنه تعالى وصفه بكونه مباركاً ، وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ انتصب (مبارك) على الحال والتقدير الذي استقر هو بيتك مباركاً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ البركة لها معنيان (أحدهما) النمو والتزايد (والثاني) البقاء والدلوام ، يقال تبارك الله ، لثبوته لم يزل ، والبركة شبه الحوض الثبوت الماء فيها ، وبرك البعير إذا وضع صلره على الأرض وثبت واستقر ، فإن فسرنا البركة بالتزايد والنمو فهذا البيت مبارك من وجوه (أحددها) أن الطاعات إذا أتت بها في هذا البيت ازداد ثوابها . قال ﷺ « فضل المسجد الحرام على مسجدي ، كفضل مسجدي على سائر المساجد » ثم قال ﷺ صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه » فهذا في الصلاة ، وأما الحج ، فقال عليه الصلاة والسلام : « من حج ولم يرث ولم يفسق خرج من ذنبه كيوم ولدته أمه » وفي حديث آخر « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » ومعلوم أنه لا أكثر بركة مما يجلب المغفرة

والرحمة (وثانيها) قال القفال رحمه الله تعالى : ويجوز أن يكون بركته ما ذكر في قوله تعالى (يحيى إليه ثمرات كل شيء) فيكون قوله (إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) (وثالثها) أن العاقل يجب أن يستحضر في ذهنه أن الكعبة كالنقطة ولتيتصور أن صفوف المتوجهين إليها في الصلوات كالدوائر المحيطة بالمركز ، وليتأمل كم عدد الصفوف المحيطة بهذه الدائرة حال اشتغالهم بالصلاحة ، ولا شك أنه يحصل فيما بين هؤلاء المصلين أشخاص أرواحهم علوية ، وقلوبهم قدسية وأسرارهم نورانية وضيائتهم ربانية ثم إن تلك الأرواح الصافية إذا توجهت إلى كعبة المعرفة وأجسادهم توجهت إلى هذه الكعبة الحسية فمن كان في الكعبة يتصل أنوار أرواح أولئك المتوجهين بنور روحه ، فتزداد الأنوار الإلهية في قلبه ، ويعظم لمعان الأضواء الروحانية في سره وهذا بحر عظيم ومقام شريف ، وهو ينبهك على معنى كونه مباركاً .

وأما إن فسرنا البركة بالدואم فهو أيضاً كذلك لأنه لا تنفك الكعبة من الطائفين والعاكفين والركع السجود ، وأيضاً الأرض كرها ، وإذا كان كذلك فكل وقت يمكن أن يفرض فهو صبح لفوم ، وظهر لثان وعصر لثالث ، ومغرب لرابع وعشاء خامس ، ومتى كان الأمر كذلك لم تكن الكعبة منفكة قط عن توجه قوم إليها من طرف من أطراف العالم لأداء فرض الصلاة ، فكان الدوام حاصلاً من هذه الجهة ، وأيضاً بقاء الكعبة على هذه الحالة ألوفاً من السنين دوام أيضاً ثبتت كونه مباركاً من الوجهين .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ من صفات هذا البيت كونه (هدى للعالمين) وفيه مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قيل : المعنى أنه قبلة للعالمين يهتدون به إلى جهة صلاتهم ، وقيل : هدى للعالمين أي دلالة على وجود الصانع المختار ، وصدق محمد ﷺ في النبوة بما فيه من الآيات التي ذكرناها والعجائب التي حكيناها فإن كل ما يدل على النبوة فهو بعينه يدل أولاً على وجود الصانع ، وجميع صفاتاته من العلم والقدرة والحكمة والاستغناء ، وقيل : هدى للعالمين إلى الجنة لأن من أدى الصلوات الواجبة إليها استوجب الجنة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الزجاج : المعنى وذا هدى للعالمين ، قال : ويجوز أن يكون (وهدى) في موضع رفع على معنى وهو هدى .

أما قوله تعالى (فيه آيات بيّنات) فيه قوله قولان (الأول) أن المراد ما ذكرناه من الآيات التي فيه وهي : أمن الخائف ، وإنحراف الجمار على كثرة الرمي ، وامتناع الطير من العلو عليه واستثناء المريض به وتعجيز العقوبة لمن انتهك فيه حرمة ، وإهلاك أصحاب الفيل لما قصدوا

تخرّيه فعل هذا تفسير الآيات وبيانها غير مذكور.

وقوله (مقام إبراهيم) لا تعلق له بقوله (فيه آيات بينات) فكأنه تعالى قال (فيه آيات بينات) ومع ذلك فهو مقام إبراهيم ومقره والموضع الذي اختاره وعبد الله فيه ، لأن كل ذلك من الخلال التي بها يشرف ويعظم .

* **القول الثاني** أن تفسير الآيات مذكور ، وهو قوله (مقام إبراهيم) أي : هي مقام إبراهيم .

فإن قيل : الآيات جماعة ولا يصح تفسيرها بشيء واحد ، أجابوا عنه من وجوه (الأول) أن مقام إبراهيم بمنزلة آيات كثيرة ، لأن ما كان معجزة لرسول الله ﷺ ، فهو دليل على وجود الصانع ، وعلمه وقدرته وإرادته وحياته ، وكونه غنياً منزلتهاً مقدساً عن مشابهة المحدثات فمقام إبراهيم وإن كان شيئاً واحداً إلا أنه لما حصل فيه هذه الوجوه الكثيرة كان بمنزلة الدلائل كقوله (إن إبراهيم كان أمة قانتا) (الثاني) أن مقام إبراهيم اشتمل على الآيات ، لأن أثر القدم في الصخرة الصماء آية ، وغوصه فيها إلى الكعبين آية ، وإلأنه بعض الصخرة دون بعض آية ، لأنه لأن من الصخرة ما تحت قدميه فقط ، وإيقاؤه دون سائر آيات الأنبياء عليهم السلام آية خاصة لإبراهيم عليه السلام وحفظه مع كثرة أعدائه من اليهود والنصارى والشركين والملحدين ألف سنين فثبت أن مقام إبراهيم عليه السلام آيات كثيرة (الثالث) قال الزجاج إن قوله (ومن دخله كان آمناً) من بقية تفسير الآيات ، كأنه قيل : فيه آيات بينات مقام إبراهيم وأمن من دخله ، ولفظ الجمع قد يستعمل في الاثنين ، قال تعالى (وإن تتوبا إلى الله فقد صحت قلوبكم) وقال عليه السلام « الاثنين فما فوقهما جماعة » ومنهم من تسم الثلاثة فقال : مقام إبراهيم ، وأن من دخله كان آمناً ، وأن الله على الناس حجة ، ثم حذف (أن) اختصاراً ، كما في قوله (قل أمر ربى بالقسط) أي أمر ربى بأن تقسطوا (الرابع) يجوز أن يذكر اختصاراً ، كما في قوله (قل أمر ربى بالقسط) أي أمر ربى بأن تقسطوا (الرابع) يجوز أن يذكر هاتان الآيتان ويطوي ذكر غيرها دلالة على تكاثر الآيات ، كأنه قيل فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، وأمن من دخله ، وكثير سواها (الخامس) قرأ ابن عباس ومجاهد وأبو جعفر المداني في رواية قتيبة (آية بينة) على التوحيد (السادس) قال المبرد (مقام) مصدر فلم يجمع كما قال (وعلى سمعهم) والمراد مقامات إبراهيم ، وهي ما أقامه إبراهيم عليه السلام من أمور الحج وأعمال المناسك ولا شك أنها كثيرة وعلى هذا فالمراد بالأيات شعائر الحج كما قال (ومن يعظم شعائر الله) .

ثم قال تعالى (مقام إبراهيم) وفيه أقوال (أحدها) أنه لما ارتفع بنيان الكعبة ، وضعف إبراهيم عن رفع الحجارة قام على هذا الحجر فغاصت فيه قدماه (والثاني) أنه جاء زائراً من الشام إلى مكة ، وكان قد حلف لامرأته أن لا ينزل بمكة حتى يرجع ، فلما وصل إلى مكة قالت له أم إسحائيل : إنزل حتى نغسل رأسك ، فلم ينزل ، فجاءته بهذا الحجر فوضعته على الجانب الأيمن ، فوضع قدمه عليه حتى غسلت أحد جانبي رأسه ، ثم حولته إلى الجانب الأيسر ، حتى غسلت الجانب الآخر ، فبقي أثر قدميه عليه (والثالث) أنه هو الحجر الذي قام إبراهيم عليه عند الأذان بالحج ، قال القفال رحمه الله ، ويجوز أن يكون إبراهيم قام على ذلك الحجر في هذه المواقف كلها .

ثم قال تعالى (ومن دخله كان آمناً) وهذه الآية نظائر : منها قوله تعالى (وإذا جعلنا
البيت مثابة للناس وأمناً) وقوله (أولم يروا أنا جعلنا حرمًا آمناً) وقال إبراهيم (رب اجعل
هذا بلدًا آمناً) وقال تعالى (أطعهم من جوع وأمنهم من خوف) قال أبو بكر الرازى : لما
كانت الآيات المذكورة عقيب قوله (إن أول بيت وضع للناس) موجودة في الحرم ثم قال (ومن
دخله كان آمناً) وجب أن يكون مراده جميع الحرم ، وأجمعوا على أنه لو قتل في الحرم فانه
يستوفي القصاص منه في الحرم وأجمعوا على أن الحرم لا يفيد الأمان فيها سوى النفس ، إنما
الخلاف فيما إذا وجب القصاص عليه خارج الحرم فالتجأ إلى الحرم فهل يستوفي منه القصاص في
الحرم ؟ قال الشافعى : يستوفي ، وقال أبو حنيفة : لا يستوفي ، بل يمنع منه الطعام والشراب
والبيع والشراء والكلام حتى يخرج ، ثم يستوفي منه القصاص ، والكلام في هذه المسألة قد تقدم
في تفسير قوله (وإذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً) واحتج أبو حنيفة رضي الله عنه بهذه
الآية ، فقال : ظاهر الآية الأخبار عن كونه آمناً ، ولكن لا يمكن حمله عليه إذ قد لا يصير آمناً
فيقع الخلف في الخبر ، فوجب حمله على الأمر ترك العمل به في الجنایات التي دون النفس ، لأن
الضرر فيها أخف من الضرر في القتل ، وفيما إذا وجب عليه القصاص الجنائية أتى بها في الحرم ،
لأنه هو الذى هتك حرمة الحرم ، فيبقى في محل الخلاف على مقتضى ظاهر الآية .

(والجواب) أن قوله (كان آمناً) إثبات لمعنى الأمان ، ويكتفي في العمل به بإثبات الآمن بعض الوجوه ، ونحن نقول به وبيانه من وجوه (الأول) أن من دخله للنسك تقربا إلى الله تعالى كان آمناً من النار يوم القيمة ، قال النبي عليه السلام « من مات في أحد الحرمتين بعث يوم القيمة آمناً » وقال أيضاً « من صبر على حرمكة ساعة من نهار تباعدت عنه جهنم مسيرة مائتي عام » وقال « من حج ولم يرث ولم يفسق خرج من ذنبه كيوم ولدته أمه » (والثاني) يحتمل أن يكون المراد ما أودع الله في قلوب الخلق من الشفقة على كل من التجأ إليه

وَلَهُ عَلَى النَّاسِ حِجَّةُ الْبَيْتِ مَنْ أَسْتَطَعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا

دفع المكروه عنه ، ولما كان الأمر واقعاً على هذا الوجه في الأكثر أخبر بوقوعه على هذا الوجه مطلقاً وهذا أولى مما قالوه لوجهين (الأول) أنها على هذا التقدير لا نجعل الخبر قائماً مقام الأمر وهم جعلوه قائماً مقام الأمر (والثاني) أنه تعالى إنما ذكر هذا لبيان فضيلة البيت وذلك إنما يحصل شيء كان معلوماً للقوم حتى يصير ذلك حجة على فضيلة البيت ، فاما الحكم الذي بينه الله في شرع محمد عليه السلام فإنه لا يصير ذلك حجة على اليهود والنصارى في إثبات فضيلة الكعبة .

﴿ الوجه الثالث ﴾ في تأويل الآية : أن المعنى من دخله عام عمرة القضاء مع النبي ﷺ كان آمناً لأنه تعالى قال (لتدخلن المسجد الحرم إن شاء الله آمنين) (الرابع) قال الضحاك : من حج حجة كان آمناً من الذنوب التي اكتسبها قبل ذلك .

واعلم أن طرق الكلام في جميع هذه الأوجبة شيء واحد ، وهو أن قوله (كان آمناً) حكم بثبت الأمان وذلك يكفي في العمل به إثبات الأمان من وجه واحد وفي صورة واحدة فإذا حملناه على بعض هذه الوجوه فقد عملنا بمقتضى هذا النص فلا يبقى للنص دلالة على ما قالوه ، ثم يتأكد ذلك بأن حمل النص على هذا الوجه لا يفضي إلى تخصيص النصوص الدالة على وجوب القصاص وحمله على ما قالوه يفضي إلى ذلك فكان قولنا أولى والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ وَلَهُ عَلَى النَّاسِ حِجَّةُ الْبَيْتِ مَنْ أَسْتَطَعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما ذكر فضائل البيت ومناقبه ، أرده بذكر إيجاب الحج وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم (حج البيت) بكسر الحاء والباقيون بفتحها ، قيل الفتح لغة الحجاز ، والكسر لغة نجد وهما واحد في المعنى ، وقيل هما جائزان مطلقاً في اللغة ، مثل رطل ورطل ، وبزر وبزر ، وقيل المكسورة اسم للعمل والمفتوحة مصدر ، وقال سيبويه : يجوز أن تكون المكسورة أيضاً مصدراً ، كالذكر والعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في قوله (من استطاع إليه سبيلاً) وجوه (الأول) قال الزجاج : موضع (من) خفض على البدل من (الناس) والمعنى : والله على من استطاع من الناس حج البيت (الثاني) قال الفراء إن نويت الاستئناف من كانت شرطاً وأسقط الجزء لدلالة ما قبله عليه ، والتقدير من استطاع إلى الحج سبيلاً فله عليه حج البيت (الثالث) قال ابن الأنباري :

يجوز أن يكون (من) في موضع رفع على معنى الترجمة للناس ، كأنه قيل : من الناس الذين عليهم لله حج البيت ؟ فقيل لهم من استطاع إليه سبيلاً .

﴿المسألة الثالثة﴾ اتفق الأكثرون على أن الزاد والراحلة شرطان لحصول الاستطاعة ، روى جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ أنه فسر استطاعة السبيل إلى الحج بوجود الزاد والراحلة ، وروى القفال عن جوير عن الضحاك أنه قال : إذا كان شاباً صحيحاً ليس له مال فعليه أن يؤاجر نفسه حتى يقضي حجه فقال له قائل : أكلف الله الناس أن يمشوا إلى البيت ؟ فقال : لو كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه ؟ قال : لا بل ينطلق إليه ولو حبوأ ، قال : فكذلك يجب عليه حج البيت ، عن عكرمة أيضاً أنه قال : الاستطاعة هي صحة البدن ، وإمكان المشي إذا لم يجد ما يركبه .

واعلم أن كل من كان صحيح البدن قادرًا على المشي إذا لم يجد ما يركب فإنه يصدق عليه أنه يستطيع لذلك الفعل ، فتخصيص هذه الاستطاعة بالزاد والراحلة ترك لظاهر اللفظ فلا بد فيه من دليل منفصل ، ولا يمكن التعويل في ذلك على الأخبار المروية في هذا الباب لأنها أخبار آحاد فلا يترك لأجلها ظاهر الكتاب لاسيما وقد طعن محمد بن جرير الطبرى في رواة تلك الأخبار ، وطعن فيها من وجه آخر ، وهو أن حصول الزاد والراحلة لا يكفي في حصول الاستطاعة فإنه يعتبر في حصول الاستطاعة صحة البدن وعدم الخوف في الطريق ، وظاهر هذه الأخبار يقتضي أن لا يكون شيء من ذلك معتبراً ، فصارت هذه الأخبار مطعوناً فيها من هذا الوجه بل يجب أن يعول في ذلك على ظاهر قوله تعالى (وما جعل عليكم في الدين من حرج) وقوله (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) .

﴿المسألة الرابعة﴾ احتج بعضهم بهذه الآية على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع قالوا لأن ظاهر قوله تعالى (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجَّ الْبَيْتِ) يعم المؤمن والكافر وعدم الإيمان لا يصلح معارضًا وخاصصًا لهذا العموم ، لأن الدهري مكلف بالإيمان بمحمد ﷺ مع أن الإيمان بالله الذي هو شرط صحة الإيمان بمحمد عليه السلام غير حاصل والمحدث مكلف بالصلاوة مع أن الوضوء الذي هو شرط صحة الصلاة غير حاصل ، فلم يكن عدم الشرط مانعاً من كونه مكلفاً بالشروط ، فكذا ه هنا والله أعلم .

﴿المسألة الخامسة﴾ احتج جمهور المعتزلة بهذه الآية على أن الاستطاعة قبل الفعل ، فقالوا : لو كانت الاستطاعة مع الفعل لكان من لم يحج مستطيناً للحج ، ومن لم يكن مستطيناً للحج لا يتناوله التكليف المذكور في هذه الآية فيلزم أن كل من لم يحج أن لا يصير

وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ٩٧

مأموراً بالحج بسبب هذه الآية وذلك باطل بالاتفاق.

أجاب الأصحاب بأن هذا أيضاً لازم لهم ، وذلك لأن القادر إما أن يصير مأموراً بالفعل قبل حصول الداعي إلى الفعل أو بعد حصوله أما قبل حصول الداعي فمحال ، لأن قبل حصول الداعي يتسع حصول الفعل ، فيكون التكليف به تكليف ما لا يطاق ، وأما بعد حصول الداعي فالفعل يصير واجب الحصول ، فلا يكون في التكليف بهفائدة ، وإذا كانت الاستطاعة منافية في الحالين وجب أن لا يتوجه التكليف المذكور في هذه الآية على أحد.

﴿ المسألة السادسة ﴾ روى أنه لما نزلت هذه الآية قيل : يا رسول الله أكتب الحج علينا في كل عام ، ذكروا ذلك ثلاثة ، فسكت الرسول ﷺ ، ثم قال في الرابعة « لو قلت نعم لوجبت ولو وجبت ما قمت بها ولو لم تقوموا بها لكفرتم ألا فوادعوني ما وادعكم وإذا أمرتكم بأمر فافعلوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن أمر فانتهوا عنه فاما هلك من كان قبلكم بكثرة اختلافهم على أنبيائهم » ، ثم احتاج العلماء بهذا الخبر على أن الأمر لا يفيد التكرار من وجهين (الأول) أن الأمر ورد بالحج ولم يفد التكرار (والثاني) أن الصحابة استفهموا أنه هل يجب التكرار أم لا ؟ ولو كانت هذه الصيغة تفيد التكرار لما احتاجوا إلى الاستفهام مع كونهم عالمين باللغة .

﴿ المسألة السابعة ﴾ استطاعة السبيل إلى الشيء عبارة عن إمكان الوصول ، قال تعالى (فهل إلى خروج من سبيل) وقال (فهل إلى مرد من سبيل) وقال (ما على المحسنين من سبيل) فيعتبر في حصول هذا الإمكان صحة البدن ، وزوال خوف التلف من السبع أو العدو ، وفقدان الطعام والشراب والقدرة على المال الذي يشتري به الزاد والراحلة وأن يقضي جميع الديون ويرد جميع الودائع ، وإن وجب عليه الإنفاق على أحد لم يجب عليه الحج إلا إذا ترك من المال ما يكفيهم في المجيء والذهاب وتفاصيل هذا الباب مذكورة في كتب الفقهاء والله أعلم .

ثم قال تعالى ﴿ ومن كفر فان الله غني عن العالمين ﴾ وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في هذه الآية قولان :

﴿ القول الأول ﴾ أنها كلام مستقل بنفسه ووعيد عام في حق كل من كفر بالله ولا تعلق له بما قبله .

﴿ القول الثاني ﴾ أنه متعلق بما قبله والقائلون بهذا القول منهم من حمله على تارك الحج و منهم من حمله على من لم يعتقد وجوب الحج ، أما الذين حملوه على تارك الحج فقد عولوا فيه على ظاهر الآية فإنه لما تقدم الأمر بالحج ثم أتبعه بقوله (ومن كفر) فهم منه أن هذا الكفر ليس إلا ترك ما تقدم الأمر به ثم انهم أكدوا هذا الوجه بالأخبار ، روى عن النبي ﷺ أنه قال « من مات ولم يحج حجة الإسلام ولم تمنعه حاجة ظاهرة أو مرض حابس أو سلطان جائز فليحيى على أي حال شاء يهودياً أو نصراانياً » وعن أبي أمامة قال : قال النبي ﷺ « من مات ولم يحج حجة الإسلام ولم تمنعه حاجة ظاهرة أو مرض حابس أو سلطان جائز فليحيى على أي حال شاء يهودياً أو نصراانياً » وعن سعيد بن جبير : لومات جاري وله ميسرة ولم يحج لم أصل عليه ، فان قيل : كيف يجوز الحكم عليه بالكفر بسبب ترك الحج ؟

أجاب القفال رحمه الله تعالى عنه : يجوز أن يكون المراد منه التغليظ ، أي قد قارب الكفر وعمل ما يعمله من كفر بالحج ، ونظيره قوله تعالى (وبلغت القلوب الحناجر) أي كادت تبلغ ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام « من ترك صلاة متعمداً فقد كفر » وقوله عليه الصلاة والسلام « من أتى امرأة حائضاً أو في درها فقد كفر » وأما الأكثرون : فهم الذين حملوا هذا الوعيد على من ترك اعتقاد وجوب الحج ، قال الضحاك : لما نزلت آية الحج جمع الرسول ﷺ أهل الأديان الستة المسلمين ، والنصارى واليهود والصابئين والمجوس والشركين فخطبهم وقال : « إن الله تعالى كتب عليكم الحج فحجوا » فآمن به المسلمون وكفرت به الملل الخمس ، وقالوا : لا نؤمن به ، ولا نصلي إليه ، ولا نحجه ، فأنزل الله تعالى قوله (ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) وهذا القول هو الأقوى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اعلم أن تكليف الشرع في العبادات قسمان ، منها ما يكون أصله معقولاً إلا أن تفاصيله لا تكون معقوله مثل الصلاة فان أصلها معقول وهو تعظيم الله أما كيفية الصلاة فغير معقوله ، وكذا الزكاة أصلها دفع حاجة الفقير وكيفيتها غير معقوله ، والصوم أصله معقول ، وهو قهر النفس وكيفيته غير معقوله ، أما الحج فهو سفر إلى موضع معين على كيفيات مخصوصة ، فالحكمة في كيفيات هذه العبادات غير معقوله وأصلها غير معلومة .

إذا عرفت هذا فقول : قال المحققون إن الإتيان بهذا النوع من العبادة أدل على كمال العبودية والخصوص والانقياد من الإتيان بالنوع الأول ، وذلك لأن الآتي بالنوع الأول يتحمل أنه إنما أتى به لما عرف بعقله من وجوه المنافع فيه ، أما الآتي بالنوع الثاني فإنه لا يأتي به إلا مجرد الانقياد والطاعة والعبودية ، فلأجل هذا المعنى اشتمل الأمر بالحج في هذه الآية على أنواع كثيرة من التوكيد (أحدها) قوله (والله على الناس حج البيت) والمعنى أنه سبحانه لكونه إلهًا ألزم عبيده هذه الطاعة فيجب الانقياد سواء عرّفوا وجه الحكمة فيها أو لم يعرّفوا (وثانيها)

قُلْ يَنَاهِلُ الْكِتَبِ لِمَ تَكْفُرُونَ إِعَايَتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴿٤٦﴾
 قُلْ يَنَاهِلُ الْكِتَبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءاْمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ
 شُهَدَاءٌ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤٧﴾

أنه ذكر (الناس) ثم أبدل منه (من استطاع إليه سبيلا) وفيه ضربان من التأكيد ، أما أولاً فلان الابدال تشية للمراد وتكرير ، وذلك يدل على شدة العناية ، وأما ثانياً فلأنه أجمل أولاً وفصل ثانياً وذلك يدل على شدة الاهتمام (وثالثها) أنه سبحانه عبر عن هذا الوجوب بعباراتين (إحداهما) لام الملك في قوله (ولله) (وثانيتها) كلمة (على) وهي الموجب في قوله (ولله على الناس) (ورابعها) أن ظاهر اللفظ يتقتضي إيجابه على كل إنسان يستطيعه ، وتعظيم التكليف يدل على شدة الاهتمام (وخامسها) أنه قال (ومن كفر) مكان ، ومن لم يحج وهذا تغليظ شديد في حق تارك الحج (وسادسها) ذكر الاستغناء وذلك مما يدل على المقت والسخط والخذلان (سابعها) قوله (عن العالمين) ولم يقل عنه لأن المستغني عن كل العالمين أولى أن يكون مستغنياً عن ذلك الإنسان الواحد وعن طاعته ، فكان ذلك أدل على السخط (وثامنها) أن في أول الآية قال (ولله على الناس) فيبين أن هذا الإيجاب كان مجرد عزة الالهية وكبراءة الربوبية ، لا لجر نفع ولا لدفع ضر ، ثم أكد هذا في آخر الآية بقوله (فإن الله غني عن العالمين) وما يدل من الأخبار على تأكيد الأمر بالحج ، قوله عليه الصلاة والسلام « حجوا قبل أن لا تحجوا حجوا قبل أن يمنع البر جانبه » قيل : معناه أنه يتذرع عليكم السفر في البر في مكة لعدم الا من أو غيره ، وعن ابن مسعود « حجوا هذا البيت قبل أن تنبت في الbadية شجرة لا تأكل منها دابة إلا هلكت » .

قوله تعالى « قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ، قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عنها تعملون ». .

اعلم أن في كيفية النظم وجهين (الأول) وهو الأوفق : أنه تعالى لما أورد الدلائل على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام مما ورد في التوراة والإنجيل من البشرة بقدمه ، ثم ذكر عقيبة ذلك شبهاهات القوم .

﴿ فالشبيهة الأولى ﴾ ما يتعلق بانكار النسخ .

وأجاب عنها بقوله (كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه) .
﴿ والشبهة الثانية ﴾ ما يتعلق بالکعبۃ ووجوب استقبالها في الصلاة ووجوب حجها .

وأجاب عنها بقوله (إن أول بيت وضع للناس) إلى آخرها ، فعند هذا تمت وظيفة الاستدلال وكمل الجواب عن شبهات أرباب الضلال ، فعند ذلك خاطبهم بالكلام اللين وقال (لم تكفرون بأيات الله) بعد ظهور البینات وزوال الشبهات ، وهذا هو الغایة القصوى في ترتیب الكلام وحسن نظمه .

﴿ الوجه الثاني ﴾ وهو أنه تعالى لما بين فضائل الكعبۃ ووجوب الحج ، والقوم كانوا عالمين بأن هذا هو الدين الحق والملة الصحيحة قال لهم (لم تكفرون بأيات الله) بعد أن علمتم كونها حقة صحيحة .

واعلم أن المبطل إما أن يكون ضالاً فقط ، وإما أن يكون مع كونه ضالاً يكون مضلاً ، وال القوم كانوا موصوفين بالأمرتين جميعاً فبدأ تعالى بالإنكار عليهم في الصفة الأولى على سبيل الرفق واللطف .

وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قوله (يا أهل الكتاب لم تكفرون بأيات الله) واختلفوا فيما بين المراد بأهل الكتاب ، فقال الحسن : هم علماء أهل الكتاب الذين علموا صحة نبوته ، واستدل عليه بقوله (وأنتم شهداء) وقال بعضهم : بل المراد كل أهل الكتاب لأنهم وإن لم يعلموا فالحجۃ قائمة عليهم فكأنهم تركوا الاستدلال والعدول إلى التقليد بمنزلة من علم ثم أنكر .

فإن قيل : ولم خص أهل الكتاب بالذكر دون سائر الكفار؟ .

قلنا لوجهين (الأول) أنا بینا أنه تعالى أورد الدليل عليهم من التوراة والإنجيل على صحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم أجاب عن شبههم في ذلك ، ثم لما تم ذلك خاطبهم فقال (يا أهل الكتاب) فهذا الترتیب الصحيح (الثاني) أن معرفتهم بأيات الله أقوى لتقديم اعترافهم بالتوحید وأصل النبوة ، ولمعرفتهم بما في كتبهم من الشهادة بصدق الرسول والبشرة بنبوته .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قالت المعتزلة في قوله تعالى (لم تكفرون بأيات الله) دلالة على أن الكفر من قبلهم حتى يصح هذا التوبیخ وكذلك لا يصح توبیخهم على طولهم وصحتهم ومرضهم .

(والجواب عنه) المعارضة بالعلم والداعي .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ المراد (من آيات الله) الآيات التي نصبها الله تعالى على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، والمراد بکفرهم بها کفرهم بدلالتها على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام .

ثم قال (والله شهيد على ما تعملون) الواو للحال والمعنى : لم تکفرون بآيات الله التي دلتكم على صدق محمد عليه الصلاة والسلام ، والحال أن الله شهيد على أعمالكم ومجازيكم عليها وهذه الحال توجب أن لا تجتروا على الكفر بآياته .

ثم إنه تعالى لما أنکر عليهم في ضلالهم ذكر بعد ذلك الإنكار عليهم في إصلاحهم لضعفه المسلمين فقال (قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن) قال الفراء : يقال صدته أصده صدأً وأصدقته أصاداً ، وقرأ الحسن (تصدون) بضم التاء من أصده ، قال المفسرون : وكان صدهم عن سبيل الله بالقاء الشبه والشكوك في قلوب الضعفة من المسلمين وكانتوا ينکرون كون صفتة بِعَلَّةٍ في كتابهم .

ثم قال (تبغونها عوجا) العوج بكسر العين الميل عن الاستواء في كل ما لا يرى ، وهو الدين والقول ، فأما شيء الذي يرى فيقال فيه : عوج بفتح العين كالحائط والقناة والشجرة ، قال ابن الأنباري : البغي يقتصر له على مفعول واحد إذا لم يكن معه اللام كقولك : بغيت المال والأجر والثواب وأريد هنها : تبغون لها عوجا ، ثم أسقطت اللام كما قالوا : وهبتك درهماً أي وهبت لك درهماً ، ومثله صدت لك ظبياً وأنشد :

فتولى غلامهم ثم نادى اظبياً أصيدهم أم حماراً

أراد أصيدهم لكم والباء في (تبغونها) عائدة إلى (السبيل) لأن السبيل يؤثر ويذكر (العوج) يعني به الزيف والتحريف ، أي تلتمسون لسبيله الزيف والتحريف بالشبه التي توردونها على الضعفه نحو قولهم : النسخ يدل على البداء وقوفهم : إنه ورد في التوراة أن شريعة موسى عليه السلام باقية إلى الأبد ، وفي الآية وجه آخر وهو أن يكون (عوجاً) في موضع الحال والمعنى : تبغونها ضالين وذلك أنهم كانوا يدعون أنهم على دين الله وسبيله فقال الله تعالى : إنكم تبغون سبيل الله ضالين وعلى هذا القول لا يحتاج إلى إضمار اللام في تبغونها .

ثم قال (وأنتم شهداء) وفيه وجوه (الأول) قال ابن عباس رضي الله عنهم : يعني أنتم شهداء أن في التوراة أن دين الله الذي لا يقبل غيره هو الإسلام (الثاني) وأنتم شهداء

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فِرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ يَرْدُو كُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ
كَفِيرِينَ ﴿٦﴾ وَكَيْفَ تَكُفُّرُونَ وَأَنْتُمْ تُتَلَى عَلَيْكُمْ إِنَّ اللَّهَ وَفِيهِ رَسُولٌ وَّ
وَمَن يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صَرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧﴾

على ظهور المعجزات على نبوته ﷺ (الثالث) وأنتم شهداء أنه لا يجوز الصد عن سبيل الله (الرابع) وأنتم شهداء بين أهل دينكم عدول يثرون بأقوالكم ويعولون على شهادتكم في عظام الأمور وهم الأخبار والمعنى : أن من كان كذلك فكيف يليق به الإصرار على الباطل والكذب والضلal والإضلal .

ثم قال (وما الله بغافل عنها تعملون) والمراد التهديد ، وهو كقول الرجل لعبده ، وقد أنكر طريقة لا يخفى على ما أنت عليه ولست غافلا عن أمرك وإنما ختم الآية الأولى بقوله (والله شهيد) وهذه الآية بقوله (وما الله بغافل عنها تعملون) وذلك لأنهم كانوا يظهرون الكفر بنبوة محمد ﷺ وما كانوا يظهرون القاء الشبه في قلوب المسلمين ، بل كانوا يحتالون في ذلك بوجوه الحيل فلا جرم قال فيما أظهره (والله شهيد) وفيما أضمروه (وما الله بغافل عنها تعملون) وإنما كرر في الآيتين قوله (قل يا أهل الكتاب) لأن المقصود التوبيخ على لطف الوجه ، وتكرير هذا الخطاب اللطيف أقرب إلى التلطف في صرفهم عن طريقتهم في الضلال والإضلal وأدل على النصح لهم في الدين والإشراق .

قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن طباعوا فريقاً من الذين أتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾ .

واعلم أنه تعالى لما حذر الفريق من أهل الكتاب في الآية الأولى عن الإغواء والإضلal حذر المؤمنين في هذه الآية عن إغوايهم وإصلاحهم ومنعهم عن الالتفات إلى قوفهم ، روى أن شاس ابن قيس اليهودي كان عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد ، فاتفق أنه مر على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج فرأهم في مجلس لهم يتحدثون ، وكان قد زال ما كان بينهم في الجاهلية من العداوة ببركة الإسلام ، فشق ذلك على اليهودي

فجلس إليهم وذكرهم ما كان بينهم من الحروب قبل ذلك وقرأ عليهم بعض ما قيل في تلك الحروب من الأشعار فتنازع القوم وتغاضبوا وقالوا: السلاح السلاح، فوصل الخبر إلى النبي عليه السلام ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار ، وقال : أترجعون إلى أحوال الجاهلية وأنا بينكم ظهركم ، وقد أكرمكم الله بالإسلام وألف بين قلوبكم فعرف القوم أن ذلك كان من عمل الشيطان ، ومن كيد ذلك اليهودي ، فالقوا السلاح وعانت بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ ، فما كان يوم أقبح أولاً وأحسن آخرًا من ذلك اليوم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية فقوله (إن تطعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب) يحتمل أن يكون المراد هذه الواقعة ، ويحتمل أن يكون المراد جميع ما يحاولونه من أنواع الأضلال ، فيبين تعالى أن المؤمنين إن لأنوا وقبلوا منهم قوهم أدى ذلك حالاً بعد حال إلى أن يعودوا كفاراً ، والكفر يوجب الهلاك في الدنيا والدين ، أما في الدنيا فهو موقع العداوة والبغضاء وهيجان الفتنة وثوران المحاربة المؤدية إلى سفك الدماء ، وأما في الدين فظاهر .

ثم قال تعالى (وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله) وكلمة (كيف) تعجب ، والتعجب إنما يليق بمن لا يعلم السبب ، وذلك على الله محال ، والمراد منه المنع والتغليظ وذلك لأن تلاوة آيات الله عليهم حالاً بعد حال مع كون الرسول فيهم الذي يزيل كل شبهة ويقرر كل حجة ، كالمانع من وقوعهم في الكفر ، فكان صدور الكفر على الذين كانوا بحضور الرسول أبعد من هذا الوجه ، فقوله (إن تطعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين) تنبئه على أن المقصود الأقصى هؤلاء اليهود والمنافقين أن يردوا المسلمين عن الإسلام ثم أرشد المسلمين إلى أنه يجب أن لا يلتقطوا إلى قوهم ، بل الواجب أن يرجعوا عند كل شبهة يسمعونها من هؤلاء اليهود إلى الرسول ﷺ ، حتى يكشف عنها ويزيل وجه الشبهة فيها .

ثم قال (ومن يعتض بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم) والمقصود : إنه لما ذكر الوعيد أردفه بهذا الوعد ، والمعنى : ومن يتمسك بدین الله ، ويجوز أن يكون حثا لهم على الاتجاه إليه في دفع شرور الكفار والاعتصام في اللغة الاستمساك بالشيء وأصله من العصمة ، والعصمة المنع في كلام العرب ، والعاصم المانع ، واعتضم فلان بالشيء إذا تمسك بالشيء في منع نفسه من الوقوع في آفة ، ومنه قوله تعالى (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) قال قتادة : ذكر في الآية أمرتين يمنعان عن الوقوع في الكفر (أحدهما) تلاوة كتاب الله (والثاني) كون الرسول فيهم ، أما الرسول ﷺ فقد مضى إلى رحمة الله ، وأما الكتاب فباق على وجه الدهر .

وأما قوله (فقد هدى إلى صراط مستقيم) فقد احتاج به أصحابنا على أن فعل العبد

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذْ تُقَاتَهُ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ ﴿١٧٦﴾ وَاعْتَصِمُوا
بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرُّوْا وَإِذْ كُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَالَّفَ بَيْنَ
قُلُوبِكُمْ فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَانْقَذَكُمْ مِّنْهَا
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهَدُونَ ﴿١٧٧﴾

ملحق لله تعالى ، قالوا : لأنّه جعل اعتقادهم هداية من الله ، فلما جعل ذلك الاعتصام فعلاً لهم وهداية من الله ثبت ما قلناه ، أما المعتزلة فقد ذكروا فيه وجوهاً (الأول) أن المراد بهذه الهدية الزيادة في الألطاف المرتبة على اداء الطاعات كما قال تعالى (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) وهذا اختياره القفال رحمه الله (والثاني) أن التقدير من يعتض بالله فنعم ما فعل فإنه إنما هدى إلى الصراط المستقيم ليفعل ذلك (الثالث) أن من يعتض بالله فقد هدى إلى طريق الجنة (والرابع) قال صاحب الكشاف (فقد هدى) أي فقد حصل له المهدى لا محالة ، كما تقول : إذا جئت فلانا فقد أفلحت ، لأن المهدى قد حصل فهو يخبر عنه حاصلاً وذلك لأنّ المعتض بالله متوقع للهداية كما أن قاصد الكرييم متوقع للنجاح عندـه .

قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتون إلا وأنتم مسلموـن ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبيـن الله لكم آياته لعلكم تهـدون ». .

اعلم أنه تعالى لما حذر المؤمنين من إضلal الكفار ومن تلبـيساتهم في الآية الأولى أمر المؤمنين في هذه الآيات بـجماع الطاعـات ، ومعاقدـالخيرـات . فـأمرـهمـ أولاًـ بـتـقوـيـ اللهـ وـهـوـ قولـهـ (اـتقـواـ اللهـ) وـثـانـياًـ بـالـاعـتصـامـ بـحـبـلـ اللهـ ، وـهـوـ قولـهـ (وـاعـتصـمـواـ بـحـبـلـ اللهـ) وـثـالـثـاًـ بـذـكـرـ نـعـمـ اللهـ وـهـوـ قولـهـ (وـاذـكـرـ وـانـعـمـةـ اللهـ عـلـيـكـمـ) وـالـسـبـبـ فيـ هـذـاـ التـرـتـيبـ أـنـ فـعـلـ الـإـنـسـانـ لـاـ بـدـ وـأـنـ يكونـ مـعـلـلاـ ، إـمـاـ بـالـرـهـبـةـ وـإـمـاـ بـالـرـغـبـةـ ، وـالـرـهـبـةـ مـقـدـمـةـ عـلـىـ الرـغـبـةـ ، لـأـنـ دـفـعـ الضـرـرـ مـقـدـمـ علىـ جـلـبـ النـفـعـ ، فـقولـهـ (اـتقـواـ اللهـ حقـ تقـاتهـ) إـشـارـةـ إـلـىـ التـخـوـيفـ مـنـ عـقـابـ اللهـ تـعـالـىـ ، ثـمـ جـعـلـهـ سـيـئـاًـ لـلـأـمـرـ بـالـتـمـسـكـ بـدـيـنـ اللهـ وـالـاعـتصـامـ بـحـبـلـ اللهـ ، ثـمـ أـرـدـفـهـ بـالـرـغـبـةـ ، وـهـيـ قولـهـ

(واذكروا نعمة الله عليكم) فكأنه قال : خوف عقاب الله يوجب ذلك ، وكثرة نعم الله توجب ذلك فلم تبق جهة من الجهات الموجبة للفعل إلا وهي حاصلة في وجوب انتقادكم لأمر الله ووجوب طاعتكم لحكم الله ، فظهر بما ذكرناه أن الأمور الثلاثة المذكورة في هذه الآية مرتبة على أحسن الوجوه ، ولنرجع إلى التفسير :

أما قوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال بعضهم هذه الآية منسوخة وذلك لما يروى عن ابن عباس رضي الله عنها أنه قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين لأن حق تقاته : أن يطاع فلا يعصي طرفة عين ، وأن يشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى ، والعباد لا طاقة لهم بذلك ، فأنزل الله تعالى بعد هذه (فاتقوا الله ما استطعتم) ونسخت هذه الآية أولها ولم ينسخ آخرها وهو قوله (ولا تموتون إلا وأنتم مسلمون) وزعم جمهور المحققين أن القول بهذا النسخ باطل واحتجوا عليه من وجوه (الأول) ما روى عن معاذ أنه عليه السلام قال له « هل تدرى ما حق الله على العباد ؟ » قال الله رسوله أعلم ، قال : هو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وهذا لا يجوز أن ينسخ (الثاني) أن معنى قوله (اتقوا الله حق تقاته) أي كما يتحقق أن يتقي ، وذلك بأن يجتنب جميع معااصيه ، ومثل هذا لا يجوز أن ينسخ لأنه إباحة لبعض المعااصي ، وإذا كان كذلك صار معنى هذا ومعنى قوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) واحداً لأن من اتقى الله ما استطاع فقد اتقاه حق تقاته ، ولا يجوز أن يكون المراد بقوله (حق تقاته) ما لا يستطيع من التقوى ، لأن الله سبحانه أخبر أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها والوسع دون الطاقة ونظير هذه الآية قوله (وجاهدوا في الله حق جهاده) .

فإن قيل : أليس أنه تعالى قال (وما قدروا الله حق قدره) .

قلنا : سندين في تفسير هذه الآية أنها جاءت في القرآن في ثلاثة مواضع وكلها في صفة الكفار لا في صفة المسلمين ؛ أما الذين قالوا : إن المراد هو أن يطاع فلا يعصي فهذا صحيح والذي يصدر عن الإنسان على سبيل السهو والنسيان وغير فادح فيه لأن التكليف مرفوع في هذه الأوقات ، وكذلك قوله : أن يشكر فلا يكفر ، لأن ذلك واجب عليه عند خطور نعم الله بالبال ، فاما عند السهو فلا يجب ، وكذلك قوله : أن يذكر فلا ينسى ، فإن هذا إنما يجب عند الدعاء والعبادة وكل ذلك مما لا يطاق ، فلا وجه لما ظنوه أنه منسوخ .

قال المصنف رضي الله تعالى عنه ، أقول : للأولين أن يقرروا قوله من وجهين (الأول) أن كنه الإلهية غير معلوم للخلق ، فلا يكون كمال قهره وقدرته وعزته معلوماً

للخلق ، وإذا لم يحصل العلم بذلك لم يحصل الخوف اللاقى بذلك فلم يحصل الاتقاء اللائق به (الثاني) أنهم أمروا بالاتقاء المغلظ والمخفف معاً فنسخ المغلظ وبقي المخفف ، وقيل : إن هذا باطل ، لأن الواجب عليه أن يتقي ما يمكن والنسخ إنما يدخل في الواجبات لا في التقي ، لأنه يجب رفع الحجر عنها يقتضي أن يكون الإنسان محجوراً عنه وإنه غير جائز .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله تعالى (حق تقاته) أي كما يجب أن يتقي يدل عليه قوله تعالى (حق اليقين) ويقال : هو الرجل حقاً ، ومنه قوله عليه السلام « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » وعن علي رضي الله عنه أنه قال : أنا على لا كذب أنا ابن عبد المطلب ، والتقي اسم الفعل من قولك انتقيت ، كما أن الهدى اسم الفعل من قولك اهتديت .

أما قوله تعالى (ولا تموتون إلا وأنتم مسلمون) فلفظ النهي واقع على الموت ، لكن المقصود الأمر بالإقامة على الإسلام ، وذلك لأنه لما كان يمكنهم الثبات على الإسلام حتى إذا أتاهم الموت أتاهم وهم على الإسلام ، صار الموت على الإسلام متزلة ما قد دخل في إمكانهم ، ومضى الكلام في هذا عند قوله (إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتون إلا وأنتم مسلمون) .

ثم قال تعالى (واعتصموا بحبل الله جمِيعاً) .

واعلم أنه تعالى لما أمرهم بالاتقاء عن المحظورات أمرهم بالتمسك بالاعتصام بما هو بالأصل لجميع الخيرات والطاعات ، وهو الاعتصام بحبل الله .

واعلم أن كل من يمشي على طريق دقيق يخاف أن تزلق رجله ، فإذا تمسك بحبل مشدود الطرفين بجانبي ذلك الطريق أمن من الخوف ، ولا شك أن طريق الحق طريق دقيق ، وقد انزلق رجل الكثير من الخلق عنه ، فمن اعتصم بدليل الله وبيناته فإنه يأمن من ذلك الخوف ، فكان المراد من الحبل هنا كل شيء يمكن التوصل به إلى الحق في طريق الدين ، وهو أنواع كثيرة ، فذكر كل واحد من المفسرين واحداً من تلك الأشياء ، فقال ابن عباس رضي الله عنها : المراد بالحبل هنا العهد المذكور في قوله (وأفوا بعهدي أوف بعهدهم) وقال (إلا بحبل من الله وحبل من الناس) أي بعهد ، وإنما سمي العهد حبلًا لأنه يزيل عنه الخوف من الذهاب إلى أي موضع شاء ، وكان كالحبل الذي من تمسك به زال عنه الخوف ، وقيل : إنه القرآن ، روى عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال « أما إنها ستكون فتنة » قيل : فيما المخرج منها ؟ قال « كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر من بعدكم وحكم ما بينكم وهو حبل الله المبين » وروى عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال « هذا القرآن حبل الله » وروى عن

أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال « إني تارك فيكم الثقلين ، كتاب الله تعالى حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي » وقيل : إنه دين الله ، وقيل : هو طاعة الله ، وقيل : هو إخلاص التوبة ، وقيل : الجماعة ، لأنه تعالى ذكر عقيب ذلك قوله (ولا تفرقوا) وهذه الأقوال كلها متقاربة ، والتحقيق ما ذكرنا أنه لما كان النازل في البئر يعتضم بحبل تحرزاً من السقوط فيها ، وكان كتاب الله وعهده ودينه وطاعته وموافقته لجماعة المؤمنين حرزاً لصاحبه من السقوط في قعر جهنم جعل ذلك حبلاً لله ، وأمروا بالإعتماد به .

ثم قال تعالى (ولا تفرقوا) وفيه مسائلتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في التأويل وجوه (الأول) أنه نهى عن الاختلاف في الدين وذلك لأن الحق لا يكون إلا واحداً ، وما عداه يكون جهلاً وضلالاً ، فلما كان كذلك وجب أن يكون النهي عن الاختلاف في الدين ، وإليه الإشارة بقوله تعالى (فما زاد الحق إلا الضلال) (الثاني) أنه نهى عن المعاداة والمخاصلة ، فأنهم كانوا في الجاهلية مواظبين على المحاربة والمنازعة فنهاهم الله عنها (الثالث) انه نهى عمّا يوجب الفرقة ويزيل الألفة والمحبة .

واعلم أنه روى عن النبي ﷺ أنه قال « ستفترق أمتي على نيف وسبعين فرقة الناجي منهم واحد والباقي في النار فقيل : ومن هم يا رسول الله ؟ قال الجماعة » وروى « السواد الأعظم » وروى « ما أنا عليه واصحابي » والوجه المعقول فيه : أن النهي عن الاختلاف والأمر بالاتفاق يدل على أن الحق لا يكون إلا واحداً ، وإذا كان كذلك كان الناجي واحداً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ استدللت نفاة القياس بهذه الآية ، فقالوا : الأحكام الشرعية إما أن يقال : إنه سبحانه نصب عليها دلائل يقينية أو نصب عليها دلائل ظنية ، فإن كان الأول امتنع الاكتفاء فيها بالقياس الذي يفيد الظن ، لأن الدليل الظني لا يكتفي به في الموضع اليقيني ، وإن كان الثاني كان الأمر بالرجوع إلى تلك الدلائل الظنية يتضمن وقوع الاختلاف ووقوع النزاع ، فكان ينبغي أن لا يكون التفرق والتنازع منهاياً عنه ، لكنه منهى عنه لقوله تعالى (ولا تفرقوا) قوله (ولا تنازعوا) وللسائل أن يقول : الدلائل الدالة على العمل بالقياس تكون مخصصة لعموم قوله (ولا تفرقوا) ولعموم قوله (ولا تنازعوا) والله أعلم .

ثم قال تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم) واعلم أن نعم الله على الخلق إما دنيوية وإما أخرى وإنه تعالى ذكرهما في هذه الآية ، أما النعمة الدنيوية فهي قوله تعالى (إذ كتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قيل إن ذلك اليهودي لما ألقى الفتنة بين الأوس والخوج وهم كل

واحد منها بمحاربة صاحبه ، فخرج الرسول ﷺ ولم يزل يرافق بهم حتى سكنت الفتنة وكان الأوس والخزرج أخوين لأب وأم ، فوقيعت بينهما العداوة ، وتطاولت الحروب مائة وعشرين سنة إلى أن أطأ الله ذلك بالإسلام ، فالآية إشار إليهم وإلى أحوالهم ، فإنهم قيل الإسلام كان يحارب بعضهم بعضاً ويبغض بعضهم بعضاً ، فلما أكرمهم الله تعالى بالإسلام صاروا إخواناً متراحمين متناصحين وصاروا إخوة في الله : ونظير هذه الآية قوله (لو أنفقت ما في الأرض جيئاً ما ألغت بين قلوبهم ولكن الله ألغى بينهم) .

واعلم أن كل من كان وجهه إلى الدنيا كان معادياً لأكثر الخلق ، ومن كان وجهه إلى خدمة الله تعالى لم يكن معادياً لأحد ، والسبب فيه أنه ينظر من الحق إلى الخلق فيرى الكل أسيراً في قبضة القضاء والقدر فلا يعادي أحداً ، وهذا قيل : إن العارف إذا أمر برفق ويكون ناصحاً لا يعنف ويعير فهو مستبصر بسر الله في القدر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الزجاج : أصل الأخ في اللغة من التوخي وهو الطلب فالأخ مقصد أخيه ، والصديق مأخوذ من أن يصدق كل واحد من الصديقين صاحبه ما في قلبه ، ولا يخفى عنه شيئاً وقال أبو حاتم قال أهل البصرة : الاخوة في النسب والاخوان في الصداقة ، قال وهذا غلط ، قال الله تعالى (إنما المؤمنون إخوة) ولم يعن النسب ، وقال (أو بيوت إخوانكم) وهذا في النسب .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (فأصبحتم بنعمته إخواناً) يدل على أن المعاملات الحسنة الجارية بينهم بعد الإسلام إنما حصلت من الله ، لأنه تعالى خلق تلك الداعية في قلوبهم وكانت تلك الداعية نعمة من الله ؛ مستلزمة لحصول الفعل ، وذلك يبطل قول المعتزلة في خلق الأفعال ، قال الكعبي : إن ذلك بالهداية والبيان والتحذير والمعرفة والألطفاف .

قلنا : كل هذا حاصلاً في زمان حصول المحاربات والمقاتلات ، فاختصاص أحد الزمانين بحصول الألفة والمحبة لا بد أن يكون لأمر زائد على ما ذكرتم .

ثم قال تعالى (وكتتم على شفا حفرة من النار فأنقدكم منها) .

واعلم أنه تعالى لما شرح النعمة الدنيوية ذكر بعدها النعمة الأخروية ، وهي ما ذكره في آخر هذه الآية ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المعنى أنكم كتم مشرفين بكفركم على جهنم ، لأن جهنم مشبهة بالحفرة التي فيها النار فجعل استحقاقهم للنار بكفرهم كالإشراف منهم على النار ، والمصير

منهم إلى حفتها ، فيبين تعالى أنه أنقذهم من هذه الحفرة ، وقد قربوا من الوقوع فيها .

قالت المعتزلة : ومعنى ذلك أنه تعالى لطف بهم بالرسول عليه السلام وسائر الطافه حتى آمنوا قال أصحابنا : جميع الألطاف مشتركة فيه بين المؤمن والكافر ، فلو كان فاعل الإيمان وموجده هو العبد لكان العبد هو الذي أنقذ نفسه من النار ، والله تعالى حكم بأنه هو الذي أنقذهم من النار ، فدل هذا على أن خالق أفعال العباد هو الله سبحانه وتعالى .

﴿ المسألة الثانية ﴾ شفا الشيء حرفه مقصور ، مثل شفا البئر والجمع الإشقاء ، ومنه يقال : أشفى على الشيء إذا أشرف عليه كأنه بلغ شفاء ، أي حده وحرفه قوله (فأنقذكم منها) قال الأزهري ؛ يقال نقتدته وأنقذته واستنقذته ، أي خلصته ونجيته .

وفي قوله (فأنقذكم منها) سؤال وهو : أنه تعالى إنما ينقذهم من الموضع الذي كانوا فيه وهم كانوا على شفا حفرة ، وشفا الحفرة مذكر فكيف قال منها ؟

وأجابوا عنه من وجوه (الأول) الضمير عائد إلى الحفرة ولما أنقذهم من الحفرة فقد أنقذهم من شفا الحفرة لأن شفاتها منها (الثاني) أنها راجعة إلى النار ، لأنقصد الإنجاء من النار لا من شفا الحفرة ، وهذا قول الزجاج (الثالث) أن شفا الحفرة ، وشفتها طرفها ، فجاز أن يخبر عنه بالتذكير والتأنيث .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ أنهم لو ماتوا على الكفر لوقعوا في النار ، فمثلت حياتهم التي يتوقع بعدها الوقع في النار بالقعود على حرفها ، وهذا فيه تنبيه على تحثير مدة الحياة ، فإنه ليس بين الحياة وبين الموت المستلزم للوقوع في الحفرة إلا ما بين طرف الشيء ، وبين ذلك الشيء ، ثم قال (كذلك يبين الله) الكاف في موضع نصب ، أي مثل البيان المذكور يبين الله لكم سائر الآيات لكي تهتدوا بها ، قال الجبائي : الآية تدل على أنه تعالى يريد منهم الإهتداء ، أجاب الواحدي عنه في البسيط فقال : بل المعنى لتكونوا على رجاء هداية .

وأقول : وهذا الجواب ضعيف لأن على هذا التقدير يلزم أن يريد الله منهم ذلك الرجاء ومن المعلوم أن على مذهبنا قد لا يريد ذلك الرجاء ، فالجواب الصحيح أن يقال كلمة (لعل) للترجي ، والمعنى أنا فعلنا فعلاً يشبه فعل من يترجى ذلك والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر

وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ
وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَأَخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ
إِلَيْنَا تُّرْسَلُ وَأَوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢﴾ يَوْمَ تُبَيِّضُ وُجُوهٌ وَتَسُودُ وُجُوهٌ فَإِنَّمَا
الَّذِينَ آسَوْتُ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرُتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ إِمَّا كُنْتُمْ
تَكُفُّرُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّمَا الَّذِينَ آبَيْضَتْ وُجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ
﴿٤﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥﴾ وَلَهُ
مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٦﴾

وأولئك هم المفلحون ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم يوم تبييض وجوه تسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين أبيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين ، والله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور)

اعلم أنه تعالى في الآيات المقدمة عاب أهل الكتاب على شيئين (أحدهما) أنه عابهم على الكفر ، فقال (يا أهل الكتاب لم تكفرون) ثم بعد ذلك عابهم على سعيهم في إلقاء الغير في الكفر ، فقال (يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله) فلما انتقل منه إلى مخاطبة المؤمنين أمرهم أولاً بالتصوّر والإيمان ، فقال (اتقوا الله حق تقاته ولا تموتون إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جمياً) ثم أمرهم بالسعى في إلقاء الغير في الإيمان والطاعة ، فقال (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير) وهذا هو الترتيب الحسن الموافق للعقل ، وفي الآية مسألتان :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في قوله (منكم) قوله (منكم) أن (من) ههنا ليست

للتبسيط لدللين (الأول) أن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل الأمة في قوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر) (والثاني) هو أنه لا مكلف إلا ويجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إما بيده ، أو بسانه ، أو بقلبه . ويجب على كل أحد دفع الضرر عن النفس إذا ثبت هذا فنقول : معنى هذه الآية كونوا أمة دعاة إلى الخير أمرين بالمعروف ناهين عن المنكر ، وأما كلمة (من) فهي هنا للتبيين لا للتبعيض كقوله تعالى (فاجتنبوا الرجس من الأوثان) ويقال أيضاً : لفلان من أولاده جند وللأمير من غلامه عسکر يريد بذلك جميع أولاده وغلامه لا بعضهم ، كذا هنا ، ثم قالوا : إن ذلك وإن كان واجباً على الكل إلا أنه متى قام به قوم سقط التكليف عن الباقيين ، ونظيره قوله تعالى (انفروا خفافاً وثقلاً) قوله (إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً) فالامر عام ، ثم إذا قامت به طائفة وقعت الكفاية وزال التكليف عن الباقيين .

﴿ والقول الثاني ﴾ أن (من) هنا للتبعيض ، والقائلون بهذا القول اختلفوا أيضاً على قولين (أحدهما) أن فائدة كلمة (من) هي أن في القوم من لا يقدر على الدعوة ولا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل النساء والمرضى والعاجزين (والثاني) أن هذا التكليف مختص بالعلماء ويدل عليه وجهان (الأول) أن هذه الآية مشتملة على الأمر بثلاثة أشياء : الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ومعلوم أن الدعوة إلى الخير مشروطة بالعلم بالخير وبالمعروف وبالمنكر ، فان الجاهل ربما عاد إلى الباطل وأمر بالمنكر ونهى عن المعروف ، وربما عرف الحكم في مذهب ووجهه في مذهب صاحبه فنهاه عن غير منكر ، وقد يغليظ في موضع اللين ويلين في موضع الغلظة ، وينكر على من لا يزيده إنكاره إلا تمامياً ، فثبتت أن هذا التكليف متوجه على العلماء ، ولا شك أنهم بعض الأمة ، ونظير هذه الآية قوله تعالى (فلولا نفر من كل فرقه منهم طائفة ليتفقهوا في الدين) (والثاني) أنا جمعنا على أن ذلك واجب على سبيل الكفاية بمعنى أنه متى قام به البعض سقط عن الباقيين ، وإذا كان كذلك كان المعنى ليقيم بذلك بعضاً لكم ، فكان في الحقيقة هذا إيجاباً على البعض لا على الكل ، والله أعلم .

﴿ وفيه قول رابع ﴾ وهو قول الضحاك : إن المراد من هذه الآية أصحاب رسول الله ﷺ لأنهم كانوا يتعلمون من الرسول عليه السلام ويعلمون الناس ، والتأنويل على هذا الوجه كونوا أمة مجتمعين على حفظ سنن الرسول ﷺ وتعلم الدين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية اشتملت على التكليف بثلاثة أشياء ، أولها الدعوة إلى الخير ثم الأمر بالمعروف ، ثم النهي عن المنكر ، ولأجل العطف يجب كون هذه الثلاثة متغيرة ، فنقول : أما الدعوة إلى الخير فأفضلها الدعوة إلى إثبات ذات الله وصفاته وتقديسه

عن مشابهة المكنات وإنما قلنا إن الدعوة إلى الخير تشتمل على ما ذكرنا لقوله تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة) قوله تعالى (قل هذه سبلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني).

إذا عرفت هذا فنقول : الدعوة إلى الخير جنس تحته نوعان (أحدهما) الترغيب في فعل ما ينبغي وهو بالمعروف (والثاني) الترغيب في ترك ما لا ينبغي وهو النهي عن المنكر فذكر الجنس أولًا ثم أتبعه بنوعيه مبالغة في البيان ، وأما شرائط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فمذكورة في كتب الكلام .

ثم قال تعالى (وأولئك هم المفلحون) وقد سبق تفسيره وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ منهم من تمسك بهذه الآية في أن الفاسق ليس له أن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، قال لأن هذه الآية تدل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من المفلحين ، والفاسق ليس من المفلحين ، فوجب أن يكون الأمر بالمعروف ليس بفاسق ، وأجيب عنه بأن هذا ورد على سبيل الغالب فإن الظاهر أن من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر لم يشرع فيه إلا بعد صلاح أحوال نفسه ، لأن العاقل يقدم مهم نفسه على مهم الغير ، ثم إنهم أكدوا هذا بقوله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) وبقوله (لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) ولأنه لو جاز ذلك لجاز لمن يزني بأمرأة أن يأمرها بالمعروف في أنها لم كشفت وجهها؟ ومعلوم أن ذلك في غاية القبح ، والعلماء قالوا : الفاسق له أن يأمر بالمعروف لأنه وجب عليه ترك ذلك المنكر ووجب عليه النهي عن ذلك المنكر ، فبأن ترك أحد الواجبين لا يلزمه ترك الواجب الآخر ، وعن السلف : مروا بالخير وإن لم تفعلوا ، وعن الحسن أنه سمع مطرف ابن عبد الله يقول: لا أقول ما لا أفعل، فقال : وأينا يفعل ما يقول؟ ود الشيطان لو ظفر بهذه الكلمة منكم فلا يأمر أحد بمعرفة ولا ينهى عن المنكر.

﴿ المسألة الثانية ﴾ عن النبي ﷺ « من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر كان خليفة الله في أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه » وعن علي رضي الله عنه : أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقال أيضًا : من لم يعرف بقلبه معرفةً ولم ينكر منكراً نكس وجعل أعلى

أسفله ، وروى الحسن عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : يا أيها الناس ائتمروا بالمعروف واتهوا عن المنكر تعيشوا بخير ، وعن الثوري : إذا كان الرجل محباً في جيرانه محموداً عند إخوانه فاعلم أنه مداهن .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الله سبحانه وتعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بعثت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفوي إلى أمر الله) قدم الإصلاح على القتال ، وهذا يقتضي أن يبدأ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالأمر مترقياً إلى الأغلظ فالأغلظ ، وكذا قوله تعالى (واهجرون في المضاجع وأضربوهن) يدل على ما ذكرناه ، ثم إذا لم يتم الأمر بالتغليظ والتشديد وجب عليه الالتفاف باليد ، فإن عجز باللسان ، فإن عجز فالقلب ، وأحوال الناس مختلفة في هذا الباب .

ثم قال تعالى (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات) .

وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في النظم وجهان (الأول) أنه تعالى ذكر في الآيات المقدمة أنه بين في التوراة والإنجيل ما يدل على صحة دين الإسلام وصحة نبوة محمد ﷺ ، ثم ذكر أن أهل الكتاب حسدوه مهداً ﷺ واحتالوا في إلقاء الشكوك والشبهات في تلك النصوص الظاهرة ، ثم إنه تعالى أمر المؤمنين بالإيمان بالله والدعاة إلى الله ، ثم ختم ذلك بأن حذر المؤمنين من مثل فعل أهل الكتاب ، وهو القاء الشبهات في هذه النصوص واستخراج التأويلات الفاسدة الرافعة لدلالة هذه النصوص فقال : (ولا تكونوا) أيها المؤمنون عند سماع هذه البينات (كالذين تفرقوا واختلفوا) من أهل الكتاب (من بعد ما جاءهم) في التوراة والإنجيل تلك النصوص الظاهرة فعلى هذا الوجه تكون الآية من تتمة جملة الآيات المقدمة (الثاني) وهو أنه تعالى لما أمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذلك مما لا يتم إلا إذا كان الأمر بالمعروف قادراً على تنفيذ هذا التكليف على الظلمة والمغاليين ، ولا تحصل هذه القدرة إلا إذا حصلت الألفة والمحبة بين أهل الحق والدين ، لا جرم حذرهم تعالى من الفرقة والاختلاف لكي لا يصير ذلك سبباً لعجزهم عن القيام بهذا التكليف ، وعلى هذا الوجه تكون هذه الآية من تتمة الآية السابقة فقط .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قوله (تفرقوا واختلفوا) فيه وجوه (الأول) تفرقوا واختلفوا بسبب اتباع الهوى وطاعة النفس والحسد ، كما أن إبليس ترك نص الله تعالى بسبب حسده لأدم (الثاني) تفرقوا حتى صار كل فريق منهم يصدق من الأنبياء ببعض دون بعض ، فصاروا بذلك إلى العداوة والفرقة (الثالث) صاروا مثل مبتدعه هذه الأمة ، مثل المشبهة والقدرية والخشوية .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال بعضهم (تفرقوا واختلفوا) معناها واحد وذكرها للتأكيد وقيل : بل معناها مختلف ، ثم اختلفوا فقيل : تفرقوا بالعداوة واختلفوا في الدين ، وقيل : تفرقوا بسبب استخراج التأويلات الفاسدة من تلك النصوص ، ثم اختلفوا بأن حاول كل واحد منهم نصرة قوله ومذهبة (والثالث) تفرقوا بأيديهم بأن صار كل واحد من أولئك الأجراء رئيساً في بلد ، ثم اختلفوا بأن صار كل واحد منهم يدعى أنه على الحق وأن صاحبه على الباطل ، وأقول : إنك إذا أنيفت علمت أن أكثر علماء هذا الزمان صاروا موصوفين بهذه الصفة فسائل الله العفو والرحمة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ إنما قال (من بعد ما جاءهم البينات) ولم يقل (جاءتهم) لجواز حذف عالمة من الفعل إذا كان فعل المؤنث متقدماً .

ثم قال تعالى (وأولئك لهم عذاب عظيم) يعني الذين تفرقوا لهم عذاب عظيم في الآخرة بسبب تفرقهم ، فكان ذلك زجراً للمؤمنين عن التفرق .

ثم قال تعالى (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) اعلم أنه تعالى لما أمر اليهود ببعض الأشياء ونهاهم عن بعض ، ثم أمر المسلمين بالبعض ونهاهم عن البعض أتبع ذلك بذكر أحوال الآخرة ، تأكيداً للأمر ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في نصب (يوم) وجهان (الأول) أنه نصب على الظرف ، والتقدير : و لهم عذاب عظيم في هذا اليوم ، وعلى هذا التقدير فيه فائدة (إحداهما) أن ذلك العذاب في هذا اليوم ، والأخرى أن من حكم هذا اليوم أن تبيض فيه وجوه وتسود وجوه (والثاني) أنه منصوب باضمار (اذكر) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ هذه الآية لها نظائر منها قوله تعالى (ويوم القيمة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة) ومنها قوله (ولا يرهق وجوههم قترة ولا ذلة) ومنها قوله (وجوه يومئذ ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها فتره) ومنها قوله (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربه ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقدة) ومنها قوله (تعرف في وجوههم نصرة النعيم) ومنها قوله (يعرف المجرمون بسياهم) .

إذا عرفت هذا فتقول : في هذا البياض والسود والغبرة والفترة والنصرة للمفسرين قولان (أحدهما) أن البياض مجاز عن الفرح والسرور ، والسود عن الغم ، وهذا مجاز مستعمل ، قال تعالى (وإذا بش أحدهم بالأنبياء ظل وجهه مسوداً وهو كظيم) ويقال : لفلان عندي يد بيضاء ، أي جلية سارة : ولما سلم الحسن بن علي رضي الله عنه الأمر لمعاوية قال له بعضهم : يا مسود وجوه المؤمنين ، ولبعضهم في الشيب .

عند بيض الوجوه سود القرون	يا بياض القرون سودت وجهي
عن عيانى وعن عيان العيون	فلعمري لأخفينك جهدي
سوداد لوجهك الملعون	بسوداد فيه بياض لوجهى

وتقول العرب من نال بغيته وفاز بمطلوبه : أبيض وجهه ومعناه الاستبشر والتهلل عند التهنئة بالسرور يقولون : الحمد لله الذي بيض وجهك ، ويقال من وصل إليه مكرره : إربد وجهه وأغبر لونه وتبدلت صورته ، فعلى هذا معنى الآية إن المؤمن يريد يوم القيمة على ما قدّمت يداه فان كان ذلك من الحسنات إبيض وجهه بمعنى استبشر بنعم الله وفضله ، وعلى ضد ذلك إذا رأى الكافر أعماله القبيحة مخصاة اسود وجهه بمعنى شدة الحزن والغم وهذا قول أبي مسلم الأصفهاني .

﴿ والقول الثاني ﴾ إن هذا البياض والسود يحصلان في وجوه المؤمنين والكافرين ، وذلك لأن اللفظ حقيقة فيها ، ولا دليل يوجب ترك الحقيقة ، فوجب المصير إليه ، قلت : ولأبي مسلم أن يقول : الدليل دل على ما قلناه ، وذلك لأنه تعالى قال (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة) فجعل الغبرة والقترة في مقابلة الضحك والاستبشر ، فلو لم يكن المراد بالغبرة والقترة ما ذكرنا من المحاجز لما صح جعله مقابلًا ، فعلمنا أن المراد من هذه الغبرة والقترة الغم والحزن حتى يصح هذا التقابل ، ثم قال القائلون بهذا القول ، الحكمة في ذلك أن أهل الموقف إذا رأوا البياض في وجه إنسان عرفوا أنه من أهل الثواب فزادوا في تعظيمه فيحصل له الفرح بذلك من وجهين (أحدهما) أن السعيد يفرح بأن يعلم قومه أنه من أهل السعادة ، قال تعالى مخبراً عنهم (يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربى وجعلني من المكرمين) (الثاني) أنهم إذا عرفوا ذلك خصوه بمزيد التعظيم فثبت أن ظهور البياض في وجه المكلف سبب لمزيد سروره في الآخرة وبهذا الطريق يكون ظهور السوداد في وجه الكفار سبباً لمزيد غمهم في الآخرة ، فهذا وجه الحكمة في الآخرة ، وأما في الدنيا فالمكلف حين يكون في الدنيا إذا عرف حصول هذه الحالة في الآخرة صار ذلك مرغباً له في الطاعات وترك المحرمات لكي يكون في الآخرة من قبيل من يبيض وجهه لا من قبيل من يسود وجهه ، فهذا تقرير هذين القولين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج أصحابنا بهذه الآية على أن المكلف إما مؤمن وإما كافر ، وأنه ليس هنا متزلة بين المترفين كما يذهب إليه المعتلة ، فقالوا : إنه تعالى قسم أهل القيمة إلى قسمين منهم من يبيض وجهه وهم المؤمنون ، ومنهم من يسود وجهه وهم الكافرون ولم يذكر

الثالث، فلو كان هنا قسم ثالث لذكره الله تعالى قالوا وهذا أيضاً متأكد بقوله تعالى (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفراة الفجرة) .

أجاب القاضي عنه بأن عدم ذكر القسم الثالث لا يدل على عدمه ، وبين ذلك أنه تعالى إنما قال (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) فذكرها على سبيل التنكير ، وذلك لا يفيد العموم ، وأيضاً المذكور في الآية المؤمنون والذين كفروا بعد الإيمان ولا شبهة أن الكافر الأصلي من أهل النار مع أنه غير داخل تحت هذين القسمين ، فكذا القول في الفساق .

واعلم أن وجه الاستدلال بالآية هو أنا نقول : الآيات المتقدمة ما كانت إلا في الترغيب في الإيمان بالتوحيد والنبوة وفي الزجر عن الكفر بها ثم إنه تعالى أتبع ذلك بهذه الآية ظاهرها يقتضي أن يكون ابصاص الوجه نصيباً لمن آمن بالتوحيد والنبوة ، واسوداد الوجه يكون نصيباً لمن أنكر ذلك ، ثم دل ما بعد هذه الآية على أن صاحب البياض من أهل الجنة ، وصاحب السواد من أهل النار ، فحيثند يلزم نفي المنزلة بين المترفين ، وأما قوله يشكل هذا بالكافر الأصلي فجوابنا عنه من وجهين (الأول) أن نقول لم لا يجوز أن يكون المراد منه أن كل أحد أسلم وقت استخراج الذرية من صلب آدم ؟ وإذا كان كذلك كان الكل داخلاً فيه (والثاني) وهو أنه تعالى قال في آخر الآية (فذوقوا العذاب بما كنتم تکفرون) فجعل موجب العذاب هو الكفر من حيث أنه كفر لا الكفر من حيث أنه بعد الإيمان ، وإذا وقع التعليل بمطلق الكفر دخل كل الكفار فيه سواء كفر بعد الإيمان ، أو كان كافراً أصلياً والله أعلم .

ثم قال (فَمَا الَّذِينَ اسْوَدُتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانَكُمْ) وفي الآية سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ أنه تعالى ذكر القسمين أولاً فقال (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) فقدم البياض على السواد في اللفظ ، ثم لما شرع في حكم هذين القسمين قدم حكم السواد ، وكان حق الترتيب أن يقدم حكم البياض .

(والجواب عنه من وجوه) (أحدها) أن الواو للجمع المطلق لا للتترتيب (وثانيها) أن المقصود من الخلق إيصال الرحمة لا إيصال العذاب قال عليه الصلاة والسلام حاكياً عن رب العزة سبحانه « خلقتهم ليربحوا على لا لأربع عليهم » وإذا كان كذلك فهو تعالى ابتدأ بذكر أهل الثواب وهم أهل البياض ، لأن تقديم الأشرف على الأحسن في الذكر أحسن ، ثم ختم بذلك لهم أيضاً تنبيهاً على أن إرادة الرحمة أكثر من إرادة الغضب كما قال « سبقت رحمتي غضبي » (وثالثها) أن الفصحاء والشعراء قالوا : يجب أن يكون مطلع الكلام ومقطوعه شيئاً يسر الطبع ويشرح الصدر ولا شك أن ذكر رحمة الله هو الذي يكون كذلك فلا جرم وقع

الابداء بذكر أهل الثواب والاختتام بذكرهم .

﴿ السؤال الثاني ﴾ أين جواب (أما)؟ .

(والجواب) هو مخدوف ، والتقدير فيقال لهم : أكفرتم بعد إيمانكم ، وإنما حسن الحذف لدلالة الكلام عليه ومثله في التنزيل كثير قال تعالى (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم) وقال (وإذيرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا) وقال (ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤسهم عند ربهم ربنا) .

﴿ السؤال الثالث ﴾ من المراد بهؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم؟ .

(والجواب) للملفسين فيه أقوال (أحددها) قال أبي بن كعب : الكل آمنوا حال ما استخرجهم من صلب آدم عليه السلام ، فكل من كفر في الدنيا ، فقد كفر بعد الإيمان ، ورواه الواحدي في البسيط بسانده عن النبي ﷺ (وثانيها) أن المراد : أكفرتم بعد ما ظهر لكم ما يوجب الإيمان وهو الدلائل التي نصبها الله تعالى على التوحيد والنبوة ، والدليل على صحة هذا التأويل ، قوله تعالى فيما قبل هذه الآية (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون) فذمهم على الكفر بعد وضوح الآيات ، وقال للمؤمنين (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات) .

ثم قال ههنا (أكفرتم بعد إيمانكم) فكان ذلك محمولا على ما ذكرناه حتى تصير هذه الآية مقررة لما قبلها ، وعلى هذين الوجهين تكون الآية عامة في حق كل الكفار ، وأما الذين خصصوا هذه الآية ببعض الكفار فلهم وجوه (الأول) قال عكرمة والأصم والزجاج المراد أهل الكتاب فانهم قبل مبعث النبي ﷺ كانوا مؤمنين به ، فلما بعث ﷺ كفروا به (الثاني) قال قتادة : المراد الذين كفروا بعد الإيمان بسبب الارتداد (الثالث) قال الحسن : الذين كفروا بعد الإيمان بالتفاق (الرابع) قيل لهم أهل البدع والأهواء من هذه الأمة (الخامس) قيل لهم الخوارج ، فإنه عليه الصلاة والسلام قال فيهم « إنهم يرقو من الدين كما يمرق السهم من الرمية » وهذا الوجهان الأخيران في غاية البعد لأنهما لا يليقان بما قبل هذه الآية ، ولأنه تخصيص لغير دليل ، ولأن الخروج على الإمام لا يوجب الكفر باللة .

﴿ السؤال الرابع ﴾ ما الفائدة في همزة الاستفهام في قوله (أكفرتم)؟ .

(الجواب) هذا استفهام يعني الإنكار ، وهو مؤكد لما ذكر قبل هذه الآية وهو قوله (قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون قل يا أهل الكتاب لم

تصدون عن سبيل الله) .

ثم قال تعالى (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) .

وفيه فوائد (الأولى) أنه لولم يذكر ذلك لكان الوعيد مختصاً بمن كفر بعد إيمانه ، فلما ذكر هذا ثبت الوعيد لمن كفر بعد إيمانه ولمن كان كافراً أصلياً (الثانية) قال القاضي قوله (أكفرتم بعد إيمانكم) يدل على أن الكفر منه لا من الله وكذا قوله (فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) (الثالثة) قالت المرجئة : الآية تدل على أن كل نوع من أنواع العذاب وقع معللاً بالكفر ، وهذا ينفي حصول العذاب لغير الكافر .

ثم قال تعالى (وأما الذين ابْيَضُوا وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون) وفيه

سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ ما المراد برحمة الله؟

(الجواب) قال ابن عباس : المراد الجنة ، وقال المحققون من أصحابنا : هذا إشارة إلى أن العبد وإن كثرت طاعته فإنه لا يدخل الجنة إلا برحمة الله ، وكيف لا نقول ذلك والعبد ما دامت داعيته إلى الفعل وإلى الترك على السوية يمتنع منه الفعل ؟ فاذن ما لم يحصل رجحان داعية الطاعة امتنع أن يحصل منه الطاعة وذلك الرجحان لا يكون إلا بخلق الله تعالى ، فاذن صدور تلك الطاعة من العبد نعمة من الله في حق العبد فكيف يصير ذلك موجباً على الله شيئاً ، فثبتت أن دخول الجنة لا يكون إلا بفضل الله وبرحمته وبكرمه لا باستحقاقنا .

﴿ السؤال الثاني ﴾ كيف موقع قوله (هم فيها خالدون) بعد قوله (ففي رحمة الله) .

(الجواب) كأنه قيل : كيف يكونون فيها ؟ فقيل لهم فيها خالدون لا يطعنون عنها ولا يموتون .

﴿ السؤال الثالث ﴾ الكفار مخلدون في النار كما أن المؤمنين مخلدون في الجنة ، ثم إنه تعالى لم ينص على خلود أهل النار في هذه الآية مع أنه نص على خلود أهل الجنة فيها فما الفائدة ؟ .

(والجواب) كل ذلك إشارات بأن جانب الرحمة أغلب ، وذلك لأنه ابتدأ في الذكر بأهل الرحمة وختم بأهل الرحمة ، ولما ذكر العذاب ما أضافه إلى نفسه ، بل قال (فذوقوا العذاب) مع أنه ذكر الرحمة مضافة إلى نفسه حيث قال (ففي رحمة الله) ولما ذكر العذاب ما نص على الخلود مع أنه نص على الخلود في جانب الثواب ، ولما ذكر العذاب عللهم فقال

(فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) ولما ذكر الشواب علله برحمته فقال (ففي رحمة الله) ثم قال في آخر الآية (وما الله يريده ظلماً للعالمين) وهذا جار مجرى الاعتذار عن الوعيد بالعقاب ، وكل ذلك مما يشعر بأن جانب الرحمة مغلب ، يا أرحم الراحمين لا تخربنا من برد رحمتك ومن كرامة غفرانك وإحسانك .

ثم قال تعالى (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) فقوله (تلك) فيه وجهان (الأول) المراد أن هذه الآيات التي ذكرناها هي دلائل الله ، وإنما جاز إقامة (تلك) مقام (هذه) لأن هذه الآيات المذكورة قد انقضت بعد الذكر ، فصار كأنها بعده فقيل فيها (تلك) (والثاني) إن الله تعالى وعده أن ينزل عليه كتاباً مشتملاً على كل ما لا بد منه في الدين ، فلما أنزل هذه الآيات قال : تلك الآيات الموعودة هي التي نتلوها عليك بالحق ، وتمام الكلام في هذه المسألة قد تقدم في سورة البقرة في تفسير قوله (ذلك الكتاب) وقوله (بالحق) فيه وجهان (الأول) أي ملتيسة بالحق والعدل من إجزاء المحسن والمسيء بما يستوجبانه (الثاني) بالحق ، أي بالمعنى الحق ، لأن معنى التلو حق .

ثم قال تعالى (وما الله يريده ظلماً للعالمين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ إنما حسن ذكر الظلم هنا لأنه تقدم ذكر العقوبة الشديدة وهو سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين ، فكانه تعالى يعتذر عن ذلك وقال إنهم ما وقعوا فيه إلا بسبب أفعالهم المنكرة ، فإن مصالح العالم لا تستقيم إلا بتهديد المذنبين ، وإذا حصل هذا التهديد فلا بد من التحقيق دفعاً للكذب ، فصار هذا الاعتذار من أدل الدلائل ، على أن جانب الرحمة غالب ، ونظيره قوله تعالى في سورة (عم) بعد أن ذكر وعيد الكفار (إنهم كانوا لا يرجون حساباً وكذبوا بأياتنا كذباً) أي هذا الوعيد الشديد إنما حصل بسبب هذه الأفعال المنكرة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ قال الجبائي : هذه الآية تدل على أنه سبحانه لا يريد شيئاً من القبائح لا من أفعاله ولا من أفعال عباده ، ولا يفعل شيئاً من ذلك ، وبيانه : وهو أن الظلم إنما أن يفرض صدوره من الله تعالى ، أو من العبد ، وبتقدير صدوره من العبد ، فاما أن يظلم نفسه وذلك بسبب إقدامه على المعاصي أو يظلم غيره ، فاقسام الظلم هي هذه الثلاثة ، وقوله تعالى (وما الله يريده ظلماً للعالمين) نكرة في سياق النفي ، فوجب أن لا يريد شيئاً مما يكون ظلماً ، سواء كان ذلك صادراً عنه أو صادراً عن غيره ، فثبتت أن هذه الآية تدل على أنه لا يريد شيئاً من هذه الأقسام الثلاثة ، وإذا ثبت ذلك وجوب أن لا يكون فاعلاً لشيء من هذه

الأقسام ، ويلزم منه أن لا يكون فاعلاً للظلم أصلاً ويلزم أن لا يكون فاعلاً لأعمال العباد ، لأن من جملة أعمالهم ظلمهم لأنفسهم وظلم بعضهم بعضاً ، وإنما قلنا : إن الآية تدل على كونه تعالى غير فاعل للظلم البة لأنها دلت على أنه غير مريد لشيء منها ، لو كان فاعلاً لشيء من أقسام الظلم لكن مريداً لها ، وقد بطل ذلك ، قالوا : فثبت بهذه الآية أنه تعالى غير فاعل للظلم ، وغير فاعل لأعمال العباد ، وغير مريد للقبائح من أفعال العباد ، ثم قالوا : إنه تعالى مدح بأنه لا يريد ذلك ، والتمدح إنما يصح لوصف منه فعل ذلك الشيء وصح منه كونه مريداً له ، فدلت هذه الآية على كونه تعالى قادرًا على الظلم وعند هذا تبجحوا وقالوا : هذه الآية الواحدة وافية بتقرير جميع أصول المعتزلة في مسائل العدل ، ثم قالوا : ولما ذكر تعالى أنه لا يريد الظلم ولا يفعل الظلم قال بعده (والله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور) وإنما ذكر هذه الآية عقيب ما تقدم لوجهين (الأول) أنه تعالى لما ذكر أنه لا يريد الظلم والقبائح استدل عليه بأن فاعل القبيح إنما يفعل القبيح إما للجهل ، أو العجز ، أو الحاجة ، وكل ذلك على الله محال لأنه مالك لكل ما في السموات وما في الأرض ، وهذه المالكية تنافي الجهل والعجز وال الحاجة ، وإذا امتنع ثبوت هذه الصفات في حقه تعالى امتنع كونه فاعلاً للقبيح (والثاني) أنه تعالى لما ذكر أنه لا يريد الظلم بوجه من الوجوه كان لقائل أن يقول : إننا نشاهد وجود الظلم في العالم ، فإذا لم يكن وقوعه بارادته كان على خلاف إرادته ، فيلزم كونه ضعيفاً عاجزاً مغلوباً وذلك محال .

فأجاب الله تعالى عنه بقوله (والله ما في السموات وما في الأرض) أي أنه تعالى قادر على أن يمنع الظلمة من الظلم على سبيل الإلقاء والقهقر ، ولما كان قادرًا على ذلك خرج عن كونه عاجزاً ضعيفاً لا أنه تعالى أراد منهم ترك المعصية اختياراً وطوعاً ليصيروا بسبب ذلك مستحقين للثواب فلو قهراً على ترك المعصية لبطلت هذه الفائدة ، فهذا تلخيص كلام المعتزلة في هذه الآية ، وربما أوردوا هذا الكلام من وجه آخر ، فقالوا : المراد من قوله (وما الله ي يريد ظلماً للعالمين) إما أن يكون هو لا يريد أن يظلمهم أو أنه لا يريد منهم أن يظلم بعضهم بعضاً فان كان الأول فهذا لا يستقيم على قولكم ، لأن مذهبكم أنه تعالى لو عذب البريء عن الذنب بأشد العذاب لم يكن ظلماً ، بل كان عادلاً ، لأن الظلم تصرف في ملك الغير ، وهو تعالى إنما يتصرف في ملك نفسه فاستحال كونه ظالماً وإذا كان كذلك لم يمكن حمل الآية على أنه لا يريد أن يظلمخلق وإن حلت الآية على أنه لا يريد أن يظلم بعض العباد بعضاً ، فهذا أيضاً لا يتم على قولكم لأن كل ذلك بإرادة الله وتكون فيه على قولكم ، فثبت أن على مذهبكم لا يمكن حمل الآية على وجه صحيح (والجواب) لم لا يجوز أن يكون المراد أنه تعالى لا يريد أن يظلم أحداً

من عباده؟ قوله الظلم منه محال على مذهبكم فامتنع التمدح به قلنا : الكلام عليه من وجهين (الأول) أنه تعالى تمدح بقوله (لا تأخذه سنة ولا نوم) وبقوله (وهو يطعم ولا يطعم) ولا يلزم من ذلك صحة النوم والأكل عليه فكذا ه هنا (الثاني) أنه تعالى إن عذب من لم يكن مستحقاً للعذاب فهو وإن لم يكن ظلماً في نفسه لكنه في صورة الظلم ، وقد يطلق اسم أحد المتشابهين على الآخر كقوله (وجاء سيئة سيئة مثلها) ونظائره كثيرة في القرآن هذا تمام الكلام في هذه المناظرة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتاج أصحابنا بقوله (والله ما في السموات وما في الأرض) على كونه خالقاً لأفعال العباد ، فقالوا لا شك أن أفعال العباد من جملة ما في السموات والأرض ، فوجب كونها له بقوله (والله ما في السموات وما في الأرض) وإنما يصح قولنا : إنها له لو كانت مخلوقة له فدللت هذه الآية على أنه خالق لأفعال العباد .

أجاب الجبائي عنه بأن قوله (الله) إضافة ملك لا إضافة فعل ، ؛ ألا ترى أنه يقال : هذا البناء لفلان فيريدون أنه مملوكة لا أنه مفعوله ، وأيضاً المقصود من الآية تعظيم الله لنفسه ومدحه لـ إلهية نفسه ، ولا يجوز أن يتمدح بأن ينسب إلى نفسه الفواحش والقبائح ، وأيضاً قوله (ما في السموات وما في الأرض) إنما يتناول ما كان مظروفاً في السموات والأرض وذلك من صفات الأجسام لا من صفات الأفعال التي هي أعراض .

أجاب أصحابنا عنه بأن هذه الإضافة الفعل بدليل أن القادر على القبيح والحسن لا يرجع الحسن على القبيح إلا إذا حصل في تلبيه ما يدعوه إلى فعل الحسن ، وتلك الداعية حاصلة بخلق الله تعالى دفعاً للتسلسل ، وإذا كان المؤثر في حصول فعل العبد هو مجموع القدرة والداعية ، ثبت أن مجموع القدرة والداعية بخلق الله تعالى ثبت أن فعل مستند إلى الله تعالى خلقاً وتكويناً بواسطة فعل السبب ، فهذا تمام القول في هذه المناظرة .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قوله تعالى (والله ما في السموات وما في الأرض) زعمت الفلسفه أنه إنما قدم ذكر ما في السموات على ذكر ما في الأرض لأن الأحوال السماوية أسباب للأحوال الأرضية ، فقدم السبب على المسبب ، وهذا يدل على أن جميع الأحوال الأرضية مستندة إلى الأحوال السماوية ، ولا شك أن الأحوال السماوية مستندة إلى خلق الله وتكوينه فيكون الجبر لازماً أيضاً من هذا الوجه .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قال تعالى (والله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور) فأعاد ذكر الله في أول الآيتين والغرض منه تأكيد التعظيم ، والمقصود أن منه مبدأ

كُنْتُمْ خَيْرَ أَمَّةٍ أَخْرِجْتَ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَلَوْلَا مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩٣)
لَن يَضُرُوكُمْ إِلَّا أَذْيَ وَإِنْ يَقْاتِلُوكُمْ يُولُوكُمُ الْأَدْبَارُ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٩٤)

المخلوقات وإليه معادهم ، فقوله (والله ما في السموات وما في الأرض) إشارة إلى أنه سبحانه هو الأول وقوله (وإلى الله ترجع الأمور) إشارة إلى أنه هو الآخر ، وذلك يدل إحاطة حكمه وتصريفه وتدبیره بأولهم وأخرهم ، وأن الأسباب متنسبة إليه وأن الحاجات منقطعة عنده .

﴿ المسألة السادسة ﴾ كلمة (إلی) في قوله (وإلى الله ترجع الأمور) لا تدل على كونه تعالى في مكان وجهة ، بل المراد أن رجوع الخلق إلى موضع لا ينفذ فيه حكم أحد إلا حكمه ولا يجري فيه قضاء أحد إلا قضاوه .

قوله تعالى ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أَمَّةٍ أَخْرِجْتَ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْلَا مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ، لَن يَضُرُوكُمْ إِلَّا أَذْيَ وَإِنْ يَقْاتِلُوكُمْ يُولُوكُمُ الْأَدْبَارُ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ .

في النظم وجهاً (الأول) أنه تعالى لما أمر المؤمنين ببعض الاشياء ونهىهم عن بعضها وحذرهم من أن يكونوا مثل أهل الكتاب في التمرد والعصيان ، وذكر عقيبه ثواب المطاعين وعقاب الكافرين ، كان الغرض من كل هذه الآيات حمل المؤمنين المكلفين على الانقياد والطاعة ومنعهم عن التمرد والمعصية ، ثم إنه تعالى أردف ذلك بطريق آخر يقتضي حمل المؤمنين على الانقياد والطاعة فقال (كُنْتُمْ خَيْرَ أَمَّةٍ) والمعنى أنكم كنتم في اللوح المحفوظ خير الامم وأفضلهم ، فاللائق بهذا أن لا يبطلو على أنفسكم هذه الفضيلة ، وأن لا تزيلوا عن أنفسكم هذه الخصلة المحمودة ، وأن تكونوا منقادين مطيعين في كل ما يتوجه عليكم من التكاليف (الثاني) أن الله تعالى لما ذكر كمال حال الاشقياء وهو قوله (فأما الذين اسودت وجوههم) وكمال حال السعداء وهو قوله (وأما الذين ابيضت وجوههم) نبه على ما هو السبب لوعيد الاشقياء بقوله (وما الله يريد ظلمًا للعالمين) يعني أنهم إنما استحقوا ذلك بأفعالهم القبيحة ،

ثم نبه في هذه الآية على ما هو السبب لوعد السعداء بقوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس) أي تلك السعادات والكمالات والكرامات إنما فازوا بها في الآخرة لأنهم كانوا في الدنيا (خير أمة أخرجت للناس) وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ لفظة (كان) قد تكون تامة وناقصة وزائدة على ما هو مشرح في النحو واختلف المفسرون في قوله (كنتم) على وجوه (الأول) أن (كان) ههنا تامة بمعنى الواقع والحدث وهو لا يحتاج إلى خبر ، والمعنى : حدثتم خير أمة ووجدتم وخلقتم خير أمة ، ويكون قوله (خير أمة) بمعنى الحال وهذا قول جمع من المفسرين (الثاني) أن (كان) ههنا ناقصة وفيه سؤال :

وهو أن هذا يوهم أنهم كانوا موصوفين بهذه الصفة وأنهم ما بقوا الآن عليها .

(والجواب عنه) أن قوله (كان) عبارة عن وجود الشيء في زمان ماض على سبيل الإبهام ، ولا يدل ذلك على انقطاع طارئ بدليل قوله (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً) وقوله (وكان الله غفوراً رحيمًا) إذا ثبت هذا فنقول : للمفسرين على هذا التقدير أقوال (أحدها) كنتم في علم الله خير أمة (وثانيةها) كنتم في الأمم الذين كانوا قبلكم مذكورين بأنكم خير أمة وهو كقوله (أشداء على الكفار رحماء بينهم) إلى قوله (ذلك مثلهم في التوراة) فشدتهم على الكفار أمرهم بالمعروف ونبههم عن المنكر (وثالثتها) كنتم في اللوح المحفوظ موصوفين بأنكم خير أمة (ورابعها) كنتم منذ آمنتكم خير أمة أخرجت للناس (وخامسها) قال أبو مسلم قوله (كنتم خير أمة) تابع لقوله (وأما الذين ابضتوا وجوههم) والتقدير : أنه يقال لهم عند الخلود في الجنة : كنتم في دنياكم خير أمة فاستحقيتם ما آنتم فيه من الرحمة وبياض الوجه بسببه ، ويكون ما عرض بين أول القصة وآخرها كما لا يزال يعرض في القرآن من مثله (وسادسها) قال بعضهم : لو شاء الله تعالى لقال (انت) وكان هذا التشريف حاصلاً لكلنا ولكن قوله (كنتم) مخصوص بقوم معينين من أصحاب الرسول ﷺ وهم السابقون الأولون ، ومن صنع مثل ما صنعوا (وسابعها) كنتم منذ آمنتكم خير أمة تنبئها على أنهم كانوا موصوفين بهذه الصفة منذ كانوا .

﴿ الإحتال الثالث ﴾ أن يقال (كان) هنا زائدة ، وقال بعضهم قوله (كنتم خير أمة) هو كقوله (وادكروا إذ كنتم قليلاً فكثرتم) وقال في موضع آخر (وإذا ذكروا إذ آنتم قليل مستضعفون) وإضمار كان وإظهارها سواء إلا أنها تذكر للتاكيد وقوع الأمر لا محالة : قال ابن الأنباري : هذا القول ظاهر الاختلال ، لأن (كان) تلغى متوسطة ومؤخرة ، ولا تلغى

متقدمة ، تقول العرب : عبد الله كان قائم ، وعبد الله قائم كان على أن كان ملغاة ، ولا يقولون : كان عبد الله قائم على إلغاها ، لأن سبيلهم أن ييلوأ بما تصرف العناية إليه ، واللغى لا يكون في محل العناية ، وأيضاً لا يجوز إلغاء الكون في الآية لانتصاب خبره ، وإذا عمل الكون في الخبر فنصبه لم يكن ملغى .

﴿ الإِحْتَالُ الرَّابِعُ ﴾ أن تكون (كان) بمعنى صار ، قوله (كتم خير أمة) معناه صرتم خير أمة أخرجت للناس تأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر ، أي صرتم خير أمة بسبب كونكم أمرین بالمعروف وناهیین عن المنكر ومؤمنین بالله .

ثم قال (ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم) يعني كما أنكم أكتسبتم هذه الخيرية بسبب هذه الخصال ، فأهل الكتاب لو آمنوا لحصلت لهم أيضاً صفة الخيرية والله أعلم .

﴿ المسألة الثانية ﴾ احتاج أصحابنا بهذه الآية على أن اجماع الأمة حجة ، وتقريره من وجهين (الأول) قوله تعالى (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق) ثم قال في هذه الآية (كتم خير أمة) فوجب بحکم هذه الآية أن تكون هذه الآية أفضل من أولئك الذين يهدون بالحق من قوم موسى ، وإذا كان هؤلاء أفضل منهم وجب أن تكون هذه الأمة لا تحكم إلا بالحق إذ لو جاز في هذه الأمة أن تحكم بما ليس بحق لامتنع كون هذه الأمة أفضل من الأمة التي تهدي بالحق ، لأن المبطل يمتنع أن يكون خيراً من الحق ، فثبت أن هذه الأمة لا تحكم إلا بالحق ، وإذا كان كذلك كان إجماعهم حجة .

﴿ الوجه الثاني ﴾ وهو (أن الألف واللام) في لفظ (المعروف) ولفظ (المنكر) يفيدان الإستغراق ، وهذا يقتضي كونهم أمرین بكل معروف ، وناهیین عن كل منكر ومتى كانوا كذلك كان إجماعهم حقاً وصدقًا لا محالة فكان حجة ، والباحث الكثيرة فيه ذكرناها في الأصول .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قال الرجاج : قوله (كتم خير أمة) ظاهر الخطاب فيه مع أصحاب النبي ﷺ ، ولكنه عام في كل الأمة ، ونظيره قوله (كتب عليكم الصيام) (كتب عليكم القصاص) فإن كل ذلك خطاب مع الحاضرين بحسب اللفظ ، ولكنه عام في حق الكل كما ههنا .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال القفال رحمه الله : أصل الأمة الطائفة المجتمعة على الشيء الواحد فامة نبينا ﷺ هم الجماعة الموصوفون بالإيمان به والإقرار ببنوته ، وقد يقال لكل من جمعتهم دعوه أمهه إلا أن لفظ الأمة إذا أطلقت وحدها وقع على الأول ، ألا ترى أنه إذا قيل أجمع الأمة على كذا فهم منه الأول وقال عليه الصلاة والسلام « أمتى لا تجتمع على

صلالة » وروي أنه عليه الصلاة والسلام يقول يوم القيمة « أمتى أمتى » فلفظ الأمة في هذه الموضع وأشباهها يفهم منه المقربون بنبوته ، فأما أهل دعوته فإنه إنما يقال لهم : إنهم أمة ادعوا ولا يطلق عليهم إلا لفظ الأمة بهذا الشرط .

أما قوله (أخرجت للناس) ففيه قولان (الأول) أن المعنى كنتم خير الأمم المخرجة للناس في جميع الأعصار ، فقوله (أخرجت للناس) أي أظهرت للناس حتى تميزت وعرفت وفصل بينها وبين غيرها (الثاني) أن قوله (للناس) من تمام قوله (كنتم) والتقدير : كنتم للناس خير أمة ، ومنهم من قال (أخرجت) صلة ، والتقدير : كنتم خير أمة للناس .

ثم قال (تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتَؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) .

وأعلم أن هذا كلام مستأنف ، والمقصود منه بيان علة تلك الخيرية ، كما تقول : زيد كريم يطعم الناس ويكسوهم ويقوم بما يصلحهم ، وتحقيق الكلام أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم مقرانا بالوصف المناسب له يدل على كون ذلك الحكم معللا بذلك الوصف ، فه هنا حكم تعالى بثبوت وصف الخيرية لهذه الأمة ، ثم ذكر عقيبه هذا الحكم وهذه الطاعات ، أعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان ، فوجب كون تلك الخيرية معللة بهذه العبادات .

وهنها سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ من أي وجه يتضمن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله كون هذه الأمة خير الأمم مع أن هذه الصفات الثلاثة كانت حاصلة في سائر الأمم ؟ .

(والجواب) قال القفال : تفضيلهم على الأمم الذين كانوا قبلهم إنما حصل لأجل أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر بأكمل الوجوه وهو القتال لأن الأمر بالمعروف قد يكون بالقلب وباللسان وباليد ، وأقواها ما يكون بالقتال ، لأنه إلقاء النفس في خطر القتل وأعراف المعرفات الدين الحق والإيمان بالتوحيد والنبوة ، وأنكر المنكرات : الكفر بالله ، فكان الجهاد في الدين حملأ لأعظم المضاد لغرض إيصال الغير إلى أعظم المنافع ، وتخليصه من أعظم المضار ، فوجب أن يكون الجهاد أعظم العبادات ، ولما كان أمر الجهاد في شرعاً أقوى منه في سائر الشرائع ، لا جرم صار ذلك موجباً لفضل هذه الأمة على سائر الأمم ، وهذا معنى ما روي عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية : قوله (كنتم خير أمة أخرجت للناس) تأمرونهم أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ويقرروا بما أنزل الله ، وتقاتلونهم عليه و « لا إله إلا الله » أعظم المعروف ، والتکذيب هو أنكر المنكر .

ثم قال الفضال : فائدة القتال على الدين لا ينكره منصف ، وذلك لأن أكثر الناس يحبون أديانهم بسبب الألف والعادة ، ولا يتأملون في الدلائل التي تورط عليهم فإذا أكره على الدخول في الدين بالتخويف بالقتل دخل فيه ، ثم لا يزال يضعف ما في قلبه من حب الدين الباطل ، ولا يزال يقوى في قلبه حب الدين الحق إلى أن ينتقل من الباطل إلى الحق ، ومن استحقاق العذاب الدائم إلى استحقاق الثواب الدائم .

﴿ السؤال الثاني ﴾ لم قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في الذكر مع أن الإيمان بالله لا بد وأن يكون مقدما على كل الطاعات ؟

(والجواب) أن الإيمان بالله أمر مشترك فيه بين جميع الأمم المحتلة ، ثم إنه تعالى فضل هذه الأمة على سائر الأمم المحتلة ، فيمتنع أن يكون المؤثر في حصول هذه الخيرية هو الإيمان الذي هو القدر المشترك بين الكل ، بل المؤثر في حصول هذه الزيادة هو كون هذه الأمة أقوى حالاً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من سائر الأمم ، فاذن المؤثر في حصول هذه الخيرية هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأما الإيمان بالله فهو شرط لتأثير هذا الحكم لأنه مالم يوجد الإيمان لم يصر شيء من الطاعات مؤثراً في صفة الخيرية ، فثبتت أن الموجب لهذه الخيرية هو كونهم أمررين بالمعروف ناهين عن المنكر ، وأما إيمانهم فذاك شرط التأثير ، والمؤثر الصق بالأثر من شرط التأثير ، فلهذا السبب قدم الله تعالى ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ذكر الإيمان .

﴿ السؤال الثالث ﴾ لم اكتفي بذكر الإيمان بالله ولم يذكر الإيمان بالنبوة مع أنه لا بد منه .

(والجواب) الإيمان بالله يستلزم الإيمان بالنبوة ، لأن الإيمان بالله لا يحصل إلا إذا حصل الإيمان بكونه صادقاً ، والإيمان بكونه صادقاً لا يحصل إلا إذا كان الذي أظهر المعجز على وفق دعوه صادقاً لأن المعجز قائم مقام التصديق بالقول ، فلما شاهدنا ظهور المعجز على وفق دعوى محمد عليه السلام كان من ضرورة الإيمان بالله الإيمان بنبوة محمد عليه السلام ، فكان الاقتصار على ذكر الإيمان بالله تنبيها على هذه الدقيقة .

ثم قال تعالى (ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم) وفيه وجهان (الأول) ولو آمن أهل الكتاب بهذا الدين الذي لأجله حصلت صفة الخيرية لأتباع محمد عليه الصلاة والسلام لحصلت هذه الخيرية أيضاً لهم ، فالمقصود من هذا الكلام ترغيب أهل الكتاب في هذا الدين (الثاني) إن أهل الكتاب إنما آثروا دينهم على دين الإسلام حباً المرياسة واستبعاد العلوم ولو

آمنوا لحصلت لهم هذه الرياسة في الدنيا مع الثواب العظيم في الآخرة ، فكان ذلك خيرا لهم مما قنعوا به .

وأعلم أنه تعالى أتبع هذا الكلام بجملتين على سبيل الابتداء من غير عاطف (إحداهما) قوله (منهم المؤمنون وأكثربهم الفاسقون) (وثانيةهما) قوله (لن يضركم إلا أذى وإن يقاتلكم يولوكم الأذى ثم لا ينصرؤن) قال صاحب الكشاف : هما كلامان واردان على طريق الاستطراد عند أجراء ذكر أهل الكتاب ، كما يقول القائل : وعلى ذكر فلان فان من شأنه كيت وكيت ، ولذلك جاء (آمن) غير عاطف .

أما قوله (منهم المؤمنون وأكثربهم الفاسقون) فيه سؤالان :

﴿ السؤال الأول ﴾ الالف واللام في قوله (المؤمنون) للاستغراف أو للمعهود السابق ؟ .

(والجواب) بل للمعهود السابق ، والمراد : عبدالله بن سلام ورهطه من اليهود ، والنجاشي ورهطه من النصارى .

﴿ السؤال الثاني ﴾ الوصف إنما يذكر للبالغة فأي مبالغة تحصل في وصف الكافر بأنه فاسق .

(والجواب) الكافر قد يكون عدلا في دينه وقد يكون فاسقاً في دينه فيكون مردوداً عند الطوائف كلهم ، لأن المسلمين لا يقبلونه لكتفه ، والكافر لا يقبلونه لكونه فاسقاً فيما بينهم ، فكأنه قيل أهل الكتاب فريقان : منهم من آمن ، والذين ما آمنوا فهم فاسقون في أدیانهم ، فليسوا من يحب الاقتداء بهم البة عند أحد من العقلاء .

أما قوله تعالى (لن يضركم إلا أذى) فاعلم أنه تعالى لما رغب المؤمنين في التصلب في إيمانهم وترك الالتفات إلى أقوال الكفار وأفعالهم بقوله (كتتم خير أمة) رغبهم فيه من وجه آخر ، وهو أنهم لا قدرة لهم على الاضرار بال المسلمين إلا بالقليل من القول الذي لا عبرة به ، ولو أنهم قاتلوا المسلمين صاروا منهزمين مخذولين ، وإذا كان كذلك لم يجب الالتفات إلى أقوالهم وأفعالهم ، وكل ذلك تقرير لما تقدم من قوله (إن تطيعوا فريقاً من الذين أتوا الكتاب) فهذا وجه النظم ، فاما قوله (لن يضركم إلا أذى) فمعناه : أنه ليس على المسلمين من كفار أهل الكتاب ضرر وإنما متنه أمرهم أن يؤذوكم باللسان ، إما بالطعن في محمد وعيسي عليهما الصلاة والسلام ، وإما باظهار كلمة الكفر ، كقولهم (عزيز ابن الله ، والمسيح ابن الله ، والله ثالث ثلاثة) وإنما بتحريف نصوص التوراة والإنجيل ، وإنما بالقاء الشبه في الأسماء ، وإنما

بتحريف الضعف من المسلمين ، ومن الناس من قال : إن قوله (إلا أذى) استثناء منقطع وهو بعيد ، لأن كل الوجوه المذكورة يوجب وقوع الغم في قلوب المسلمين والغم ضرر ، فالتقدير لا يضركم إلا الضرر الذي هو الأذى ، فهو استثناء صحيح ، والمعنى لن يضركم إلا ضررا يسيرا ، والأذى موقع الضرر ، والأذى مصدر أذى الشيء أذى .

ثم قال تعالى (وإن يقاتلكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون) وهو إخبار بأنهم لو قاتلوا المسلمين لصاروا منهزمين مخذولين (ثم لا ينصرون) أي إنهم بعد صيرورتهم منهزمين لا يحصل لهم شوكة ولا قوة البتة ، ومثله قوله تعالى (ولئن قوتلوا لا ينتصرون ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون) قوله (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم) قوله (نحن جميع متصرسيهم الجمع ويولون الدبر) وكل ذلك وعد بالفتح والنصرة والظفر .

واعلم أن هذه الآية اشتملت على الإخبار عن غيوب كثيرة ، منها أن المؤمنين آمنون من ضررهم ، ومنها أنهم لو قاتلوا المؤمنين لانهزموا ، ومنها أنه لا يحصل لهم قوة وشوكة بعد الانهزام وكل هذه الأخبار وقعت كما أخبر الله عنها ، فان اليهود لم يقاتلوا إلا انهزموا ، وما أقدموا على محاربة وطلب رياسة إلا خذلوا ، وكل ذلك إخبار عن الغيب فيكون معجزا وه هنا سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ هب أن اليهود كذلك ، لكن النصارى ليسوا كذلك فهذا يقبح في صحة هذه الآيات قلنا : هذه الآيات مخصوصة باليهود ، وأسباب التزول على ذلك فزال هذا الإشكال .

﴿ السؤال الثاني ﴾ هلا جزم قوله (ثم لا ينصرون) .

قلنا : عدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الاخبار ابتداء كأنه قيل أخبركم أنهم لا ينصلون ، والفائدة فيه أنه لو جزم لكان نفي النصر مقيدا بمقاتلتهم للتولية الأدبار ، وحين رفع كان نفي النصر وعدا مطلقا كأنه قال : ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشركم بها بعد التولية أنهم لا يجدون النصرة بعد ذلك قط بل يبقون في الذلة والمهانة أبدا دائمأ .

﴿ السؤال الثالث ﴾ ما الذي عطف عليه قوله (ثم لا ينصرون) ؟ .

(الجواب) هو جملة الشرط والجزاء ، كأنه قيل : أخبركم أنهم إن يقاتلوكم ينهزموا ، ثم أخبركم أنهم لا ينصلون وإنما ذكر لفظ (ثم) لإفاده معنى التراخي في المرتبة ، لأن الاخبار بتسلیط الخذلان عليهم أعظم من الاخبار بتوليتهم الأدبار .

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذلةُ أَيْنَ مَا ثَقَفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَأْمَوْ بِغَضْبٍ
مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَيْنَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ إِمَّا عَصَوْ وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى « ضربت عليهم الذلة أينما ثقروا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وبأمو بغضب
من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما
عصوا وكانوا يعتدون ».

وأعلم أنه تعالى لما بين أنهم إن قاتلوا رجعوا مخذولين غير منصورين ذكر أنهم مع ذلك
قد ضربت عليهم الذلة ، وفي الآية مسائل :

﴿ المَسْأَلَةُ الْأُولَى ﴾ قد ذكرنا تفسير هذه اللفظة في سورة البقرة ، والمعنى جعلت الذلة
ملصقة بهم كالشيء يضرب على الشيء فيلتصق به ، ومنه قوله : ما هذا على بصرية لازب ،
ومنه تسمية الخراج ضريبة .

﴿ المَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ ﴾ الذلة هي الذل ، وفي المراد بهذا الذل أقوال (الأول) وهو الأقوى
أن المراد أن يحاربوا ويقتلوا وتعنهم أموالهم وتسيي ذراريهم وتملك أراضيهم فهو قوله تعالى
(اقتلوهم حيث ثقفهمهم) .

ثم قال تعالى (إلا بحبل من الله) والمراد إلا بعهد من الله وعصمة وذمام من الله ومن
المؤمنين لأن عند ذلك تزول الأحكام ، فلا قتل ولا غنيمة ولا سبي (الثاني) أن هذه الذلة هي
الجزية ، وذلك لأن ضرب الجزية عليهم يوجب الذلة والصغر (الثالث) أن المراد من هذه
الذلة أنك لا ترى فيهم ملكاً قاهراً ولا رئيساً معتبراً ، بل هم مستخرون في جميع البلاد ذليلون
مهينون .

وأعلم أنه لا يمكن أن يقال المراد من الذلة هي الجزية فقط أو هذه المهانة فقط لأن قوله
(إلا بحبل من الله) يقتضي زوال تلك الذلة عند حصول هذا الحبل والجزية والصغر والدناءة
لا يزول شيء منها عند حصول هذا الحبل ، فامتنع حمل الذلة على الجزية فقط ، وبعض من

نصر هذا القول . أجاب عن هذا السؤال بأن قال : إن هذا الاستثناء منقطع ، وهو قول محمد بن جرير الطبرى ، فقال : اليهود قد ضربت عليهم الذلة ، سواء كانوا على عهد من الله أو لم يكونوا فلا يخرجون بهذا الاستثناء من الذلة إلى العزة ، قوله (إلا بحبل من الله) تقديره لكن قد يعتصمون بحبل من الله وحبل من الناس ، وأعلم أن هذا ضعيف لأن حمل لفظ (إلا) على (لكن) خلاف الظاهر ، وأيضاً إذا حملنا الكلام على أن المراد : لكن قد يعتصمون بحبل من الله وحبل من الناس لم يتم هذا القدر فلا بد من إضمار الشيء الذي يعتصمون بهذة الأشياء لأجل الخدر عنه والإصرار خلاف الأصل ، فلا يصار إلى هذه الأشياء إلا عند الضرورة فإذا كان لا ضرورة هبنا إلى ذلك كان المصير إليه غير جائز ، بل هبنا وجه آخر وهو أن يحمل الذلة على كل هذه الأشياء أعني : القتل ، والأسر ، ونبي ، الذرياري ، وأخذ المال ، وإلحاق الصغار ، والمهانة ، ويكون فائدة الاستثناء هو أنه لا يبقى مجموع هذه الأحكام ، وذلك لا ينافي بقاء بعض هذه الأحكام ، وهوأخذ القليل من أموالهم الذي هو مسمى بالجزية ، وبقاء الممانة والحقارة والصغار فيهم ، فهذا هو القول في هذا الموضوع ، قوله (أينما ثقروا) أي وجدوا وصودفوا ، يقال : ثقفت فلاتاً في الحرب أي أدركته ، وقد مضى الكلام فيه عند قوله (حيث ثقتموهم) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (إلا بحبل من الله) فيه وجوه (الأول) قال الفراء : التقدير إلا أن يعتصموا بحبل من الله ، وأنشد على ذلك :

رأتنى بحبلها فصدت مخافة وفي الحبل روعاء الفؤاد فروق

واعتراضوا عليه ، فقالوا : لا يجوز حذف الموصول وإبقاء صلته ، لأن الموصول هو الأصل والصلة فرع فيجوز حذف الفرع لدلالة الأصل عليه ، أما حذف الأصل وإبقاء الفرع فهو غير جائز (الثاني) أن هذا الاستثناء واقع على طريق المعنى ، لأن معنى ضرب الذلة لزومها إياهم على أشد الوجوه بحيث لا تفارقهم ولا تنفك عنهم ، فكأنه قيل : لا تنفك عنهم الذلة ، ولن يتخلصوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس (الثالث) أن تكون الباء بمعنى (مع) كقوفهم : أخرج بنا نفعل كذا ، أي معنا ، والتقدير : إلا مع حبل من الله .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ المراد من حبل الله عهده ، وقد ذكرنا فيها تقدم أن العهد إنما سمي بالحبل لأن الإنسان لما كان قبل العهد خائفاً ، صار ذلك الخوف مانعاً له من الوصول إلى مطلوبه ، فإذا حصل العهد توصل بذلك العهد إلى الوصول إلى مطلوبه ، فصار ذلك شبيها بالحبل الذي من تمسك به تخلص من خوف الضرر .

فإن قيل : إنه عطف على حبل الله حبلًا من الناس وذلك يقتضي المغایرة فكيف هذه المغایرة ؟

قلنا : قال بعضهم : حبل الله هو الإسلام ، وحبل الناس هو العهد والذمة ، وهذا بعيد لأنه لو كان المراد ذلك لقال : أو حبل من الناس ، وقال آخرون : المراد بكلام الحبلين العهد والذمة والأمان ، وإنما ذكر تعالى الحبلين لأن الأمان المأْخوذ من المؤمنين هو الأمان المأْخوذ بأذن الله وهذا عندي أيضًا ضعيف ، والذي عندي فيه أن الأمان الحاصل للذماني قسمان (أحدهما) الذي نص الله عليه وهوأخذ الجزية (والثاني) الذي فوض إلى رأي الإمام فيزيد فيه تارة وينقص بحسب الاجتهاد (فال الأول) هو المسمى بحبل الله (والثاني) هو المسمى بحبل المؤمنين والله أعلم .

ثم قال (وبأوا بغضب من الله) وقد ذكرنا أن معناه : أنهم مكثوا ، ولبثوا وداموا في غضب الله ، وأصل ذلك مأْخوذ من البوء وهو المكان ، ومنه : تبواً فلان متزل كذا وبؤاته إيه ، والمعنى أنهم مكثوا في غضب من الله وحلوا فيه ، وسواء قوله : حل بهم الغضب وحلوا به .

ثم قال (وضررت عليهم المسكنة) والأكثرون حملوا المسكنة على الجزية وهو قول الحسن قال وذلك لأنه تعالى أخرج المسكنة عن الاستثناء وذلك يدل على أنها باقية عليهم غير زائلة عنهم ، والباقي عليهم ليس إلا الجزية ، وقال آخرون : المراد بالمسكنة أن اليهودي يظهر من نفسه الفقر وإن كان غنياً موسراً ، وقال بعضهم : هذا إخبار من الله سبحانه بأنه جعل اليهود أرزاً للمسلمين فيصيرون مساكين ، ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الأنواع من الوعيد قال (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق) والمعنى : أنه تعالى أصلق باليهود ثلاثة أنواع من المكر وها (أولها) جعل الذلة لازمة لهم (وثانيها) جعل غضب الله لازماً لهم (وثالثها) جعل المسكنة لازمة لهم ، ثم بين في هذه الآية أن العلة لإصاق هذه الأشياء المكر وها بهم هي : أنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ، وهن سؤالات :

﴿ السؤال الأول ﴾ هذه الذلة والمسكنة إنما التصقت باليهود بعد ظهور دولة الإسلام ، والذين قتلوا الأنبياء بغير حق هم الذين كانوا قبل محمد ﷺ بأدوار وأعصار ، فعلى هذا : الموضع الذي حصلت فيه العلة وهو قتل الأنبياء لم يحصل فيه المعلول الذي هو الذلة والمسكنة ، والموضع الذي حصل فيه هذا المعلول لم تحصل فيه العلة ، فكان الإشكال لازماً .

(والجواب عنه) أن هؤلاء المتأخرین وإن كان لم يصدر عنهم قتل الأنبياء عليهم السلام لكنهم كانوا راضين بذلك ، فإن أسلافهم هم الذين قتلوا الأنبياء وهؤلاء المتأخرون كانوا راضين بفعل أسلافهم ، فنسب ذلك الفعل إليهم من حيث كان ذلك الفعل القبيح فعلا

لَيَسْوُ أَسْوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَمْ قَاعِدَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ الْلَّيلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَرِّعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢﴾ وَمَا يَفْعَلُوا فَلَنْ يُكَفِّرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١٣﴾

لآبائهم وأسلافهم مع أنهم كانوا مصوبيين لاسلافهم في تلك الافعال .

﴿ السؤال الثاني ﴾ لم كرر قوله (ذلك بما عصوا) وما الحكمة فيه ولا يجوز أن يقال التكرير للتأكيد ، لأن التأكيد يجب أن يكون بشيء أقوى من المؤكد ، والعصيان أقل حالا من الكفر فلم يجز تأكيد الكفر بالعصيان ؟ .

(والجواب) من وجهين (الأول) أن علة الذلة والغضب والمسكنة هي الكفر وقتل الأنبياء ، وعلة الكفر وقتل الأنبياء هي المعصية ، وذلك لأنهم لما توغلوا في المعاصي والذنوب فكانت ظلمات المعاصي تتزايد حالا فحالا ، ونور الإيمان يضعف حالا فحالا ، ولم يزل كذلك إلى أن بطل نور الإيمان وحصلت ظلمة الكفر ، وإليه الإشارة بقوله (كلاب ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) ف قوله (ذلك بما عصوا) إشارة إلى علة العلة وهذا المعنى قال أرباب المعاملات ، من ابتلى بترك الأداب وقع في ترك السنن ، ومن ابتلى بترك السنن وقع في ترك الفريضة ، ومن ابتلى بترك الفريضة وقع في استحقاق الشريعة ، ومن ابتلى بذلك وقع في الكفر (الثاني) يحتمل أن يريد بقوله (ذلك بأنهم كانوا يكفرون) من تقدم منهم ، ويريد بقوله (ذلك بما عصوا) من حضر منهم في زمان الرسول ﷺ ، وعلى هذا لا يلزم التكرار ، فكأنه تعالى بين علة عقوبة من تقدم ، ثم بين أن من تأخر لما تبع من تقدم كان لأجل معصيته وعداوته مستوجباً مثل عقوبتهم حتى يظهر للخلق أن ما أنزله الله بالفريقين من البلاء والمحنة ليس إلا من باب العدل والحكمة .

قوله تعالى ﴿ ليسوا سوا من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله علیم بالمتقین ﴾ .

في الآية مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ أعلم أن في قوله (ليسوا سواء) قولهين (أحدهما) أن قوله (ليسوا سواء) كلام تام ، وقوله (من أهل الكتاب أمة قائمة) كلام مستأنف لبيان قوله (ليسوا سواء) كما وقع قوله (تأمرون بالمعروف) بياناً لقوله (كنتم خير أمة) والمعنى أن أهل الكتاب الذين سبق ذكرهم ليسوا سواء ، وهو تقرير لما تقدم من قوله (منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) ثم ابتدأ فقال (من أهل الكتاب أمة قائمة) وعلى هذا القول إحتلالان (أحدهما) أنه لما قال (من أهل الكتاب أمة قائمة) كان تمام الكلام أن يقال : ومنهم أمة مذمومة ، إلا أنه أضمر ذكر الأمة المذمومة على مذهب العرب من أن ذكر أحد الصدرين يعني عن ذكر الصد الآخر وتحقيقه أن الصدرين يعلمان معاً ، فذكر أحددهما يستقل بإفادته العلم بهما ، فلا جرم يحسن إهمال الصد الآخر .

قال أبو ذؤيب :

دعاني إليها القلب إنني لأمرؤ
مطيع فلا أدرى أرشد طلابها

أراد (أم غي) فاكتفى بذكر الرشد عن ذكر الغي ، وهذا قول الفراء وابن الأنباري ، وقال الزجاج : لا حاجة إلى إضمار الأمة المذمومة ، لأن ذكر الأمة المذمومة قد جرى فيها قبل هذه الآيات فلا حاجة إلى إضمارها مرة أخرى ، لأننا قد ذكرنا أنه لما كان العلم بالصدرين معاً كان ذكر أحددهما مغنىًّا عن ذكر الآخر ، وهذا كما يقال زيد وعبد الله لا يستويان زيد عاقل دين ذكي ، فيعني هذا عن أن يقال : وعبد الله ليس كذلك ، فكذا هنا لما تقدم قوله (ليسوا سواء) أغنى ذلك عن الإضمار .

﴿والقول الثاني﴾ أن قوله (ليسوا سواء) كلام غير تام ولا يجوز الوقف عنده ، بل هو متعلق بما بعده ، والتقدير : ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة وأمة مذمومة ، فأمة رفع بليس وإنما قيل (ليسوا) على مذهب من يقول : أكلوني البراغيث ، وعلى هذا التقدير لا بد من إضمار الأمة المذمومة وهو اختيار أبي عبيدة إلا أن أكثر النحوين أنكروا هذا القول لاتفاق بالأكثرين على أن قوله أكلوني البراغيث وأمثالها لغة ركيكة والله أعلم .

﴿المسألة الثانية﴾ يقال فلان وفلان سواء ، أي متساويان وقوم سواء ، لأنه مصدر لا يثنى ولا يجمع ومضى الكلام في (سواء) في أول سورة البقرة .

﴿المسألة الثالثة﴾ في المراد بأهل الكتاب قولان (الأول) وعليه الجمهر : أن المراد

منه الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام ، روى أنه لما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه قال لهم بعض كبار اليهود : لقد كفرتم وخسربتم ، فأنزل الله تعالى لبيان فضلهم هذه الآية ، وقيل : إنه تعالى لما وصف أهل الكتاب في الآية المتقدمة بالصفات المذمومة ذكر هذه الآية لبيان أن كل أهل الكتاب ليسوا كذلك ، بل فيهم من يكون موصوفاً بالصفات الحميدة والخصال المرضية ، قال الثوري : بلغني أنها نزلت في قوم كانوا يصلون ما بين المغرب والعشاء ، وعن عطاء : أنها نزلت في أربعين من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثلاثة من الروم كانوا على دين عيسى وصدقوا بمحمد عليه الصلاة والسلام .

﴿ والقول الثاني ﴾ أن يكون المراد بأهل الكتاب كل من أوتى الكتاب من أهل الأديان ، وعلى هذا القول يكون المسلمون من جملتهم ، قال تعالى (ثم أوئتا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) وما يدل على هذا ما روى ابن مسعود أن النبي ﷺ أخر صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد ، فإذا الناس يتذمرون الصلاة ، فقال « أما إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله تعالى هذه الساعة غيركم » وقرأ هذه الآية ، قال القفال رحمة الله : ولا يبعد أن يقال : أولئك الحاضرون كانوا نفراً من مؤمني أهل الكتاب ، فقيل ليس يستوي من أهل الكتاب هؤلاء الذين آمنوا بمحمد ﷺ فأقاموا صلاة العتمة في الساعة التي ينام فيها غيرهم من أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا ، ولم يبعد أيضاً أن يقال : المراد كل من آمن بمحمد ﷺ فسماهم الله بأهل الكتاب ، كأنه قيل : أولئك الذين سموا أنفسهم بأهل الكتاب حالهم وصفتهم تلك الخصال الذميمة والمسلمون الذين سماهم الله بأهل الكتاب حالهم وصفتهم هكذا ، يستويان؟ فيكون الغرض من هذه الآية تقرير فضيلة أهل الإسلام تأكيداً لما تقدم من قوله (كنتم خير أمة) وهو قوله (ألم من كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون) ،

ثم أعلم أنه تعالى مدح الأمة المذكورة في هذه الآية بصفات ثمانية .

﴿ الصفة الأولى ﴾ أنها قائمة وفيها أقوال (الأول) أنها قائمة في الصلاة يتلون آيات الله آناء الليل فعبر عن تهجدهم بتلاوة القرآن في ساعات الليل وهو قوله (والذين يبيتون لربهم سجداً وقائماً) قوله (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل) قوله (قم الليل) قوله (وقوموا لله قانتين) والذي يدل على أن المراد من هذا القيام في الصلاة قوله (وهم يسجدون) والظاهر أن السجدة لا تكون إلا في الصلاة .

﴿ والقول الثاني ﴾ في تفسير كونها قائمة : أنها ثابتة على التمسك بالدين الحق ملزمة له غير مضطربة في التمسك به كقوله (إلا ما دمت عليه قائماً) أي ملزماً للاقتضاء ثابتة على

المطالبة مستقصياً فيها ، ومنه قوله تعالى (قائماً بالقسط) .

وأقول : إن هذه الآية دلت على كون المسلم قائماً بحق العبودية وقوله (قائماً بالقسط) يدل على أن المولى قائم بحق الربوبية في العدل والإحسان فتمت المعاهدة بفضل الله تعالى كما قال (أوفوا بعهدي أوف بعهدهم) وهذا قول الحسن البصري ، واحتج عليه ماروى أن عمر بن الخطاب قال يا رسول الله : إن أناساً من أهل الكتاب يحدثوننا بما يعجبنا فلو كتبناه ، فغضب عليه وقال : أمتهم كون أنتم يا ابن الخطاب كما تهوكت اليهود ، قال الحسن : متّحرون متّردون « أما والذى نفسي بيده لقد أتيتكم بها بپضاء نقية » وفي رواية أخرى قال عند ذلك ، إنكم لم تتكلفوا أن تعملوا بما في التوراة والإنجيل وإنما أمرتم أن تؤمنوا بها وتفوضوا علمها إلى الله تعالى ، وكلفتم أن تؤمنوا بما أنزل علي في هذا الوحي غدوة وعشياً والذي نفس محمد بيده لو أدركني إبراهيم وموسى وعيسى لآمنوا بي واتبعوني » فهذا الخبر يدل على أن الثبات على هذا الدين واجب وعدم التعلق بغيره واجب ، فلا جرم مدحهم الله في هذه الآية بذلك فقال (من أهل الكتاب أمة قائمة) .

﴿ القول الثالث ﴾ (أمة قائمة) أي مستقيمة عادلة من قولك : أقمت العود فقام بمعنى استقام ، وهذا كالترير لقوله (كنتم خير أمة) .

﴿ الصفة الثانية ﴾ قوله تعالى (يتلون آيات الله آناء الليل) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ (يتلون ويعملون) في محل الرفع صفتان لقوله (أمة) أي أمة قائمة تالون مؤمنون .

﴿ المسألة الثانية ﴾ التلاوة القراءة وأصل الكلمة من الاتباع فكان التلاوة هي اتباع اللفظ اللفظ .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ آيات الله قد يراد بها آيات القرآن ، وقد يراد بها صناف مخلوقاته التي هي دالة على ذاته وصفاته والمراد هنا الأولى .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ (آناء الليل) أصلها في اللغة الأوقات والساعات وواحدتها إنما ، مثل : معى وأمعاء وإنني مثل نحو وإنحاء ، مكسور الأول ساكن الثاني ، قال القفال رحمه الله ، كان الثاني مأخذ منه لأنه انتظار الساعات والأوقات ، وفي الخبر أن النبي ﷺ قال للرجل الذي أخر المجيء إلى الجمعة « آذيت وأنيت » أي دافعت الأوقات .

﴿ الصفة الثالثة ﴾ قوله تعالى (وَهُمْ يَسْجُدُونَ) وفيه وجوه (الأول) يحتمل أن يكون

حالا من التلاوة كأنهم يقرؤن القرآن في السجدة مبالغة في الخضوع والخشوع إلا أن القفال رحمه الله روي في تفسيره حديثاً : أن ذلك غير جائز ، وهو قوله عليه السلام « ألا إني نهيت أن أقرأ راكعاً وساجداً » (الثاني) يحتمل أن يكون كلاماً مستقلاً والمعنى أنهم يقومون تارة يتغرون بالفضل والرحمة بأنواع ما يكون في الصلاة من الخضوع لله تعالى وهو قوله (والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً) قوله (آمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذرا الآخرة ويرجور حمه ربها) قال الحسن : يريح رأسه بقدميه وقدميه برأسه ، وهذا على معنى إرادة الراحة وإزالة التعب وإحداث النشاط (الثالث) يحتمل أن يكون المراد بقوله (وهم يسجدون) أنهم يصلون وصفهم بالتهجد بالليل والصلاحة تسمى سجوداً وسجدة وركوعاً وركعة وتسبيحاً وتسبيحة ، قال تعالى (واركعوا مع الراكعين) أي صلوا وقال (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) والمراد الصلاة (الرابع) يحتمل أن يكون المراد بقوله (وهم يسجدون) أي يخضعون ويخشعون لله لأن العرب تسمى الخشوع سجوداً كقوله (ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض) وكل هذه الوجوه ذكرها القفال رحمه الله .

﴿ الصفة الرابعة ﴾ قوله (يؤمنون بالله واليوم الآخر) وأعلم أن اليهود كانوا أيضاً يقومون في الليالي للتهجد وقراءة التوراة ، فلما مدح المؤمنين بالتهجد وقراءة القرآن أردف ذلك بقوله (يؤمنون بالله واليوم الآخر) وقد بينما أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بجميع أنبيائه ورسله والإيمان باللهم الآخر يستلزم الحذر من العاصي ، وهؤلاء اليهود ينكرون أنبياء الله ولا يحترزون عن معاصي الله ، فلم يحصل لهم الإيمان بالمبداً والمعد .

وأعلم أن كمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته ، والخير لأجل العمل به ، وأفضل الأعمال الصلاة وأفضل الأذكار ذكر الله ، وأفضل المعرفة معرفة المبدأ ومعرفة المعد ، قوله (يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) إشارة إلى الأعمال الصالحة الصادرة عنهم وقوله (يؤمنون بالله واليوم الآخر) إشارة إلى فضل المعرفة الحاصلة في قلوبهم فكان هذا إشارة إلى كمال حالم في القوة العملية وفي القوة النظرية ، وذلك أكمل أحوال الإنسان ، وهي المرتبة التي يقال لها : إنها آخر درجات الإنسانية وأول درجات الملكية .

﴿ الصفة الخامسة ﴾ قوله (ويأمرون بالمعروف) .

﴿ الصفة السادسة ﴾ قوله (ينهون عن المنكر) وأعلم أن الغاية القصوى في الكمال أن يكون تاماً وفوق التمام فكون الإنسان تاماً ليس إلا في كمال قوته العملية والنظرية وقد تقدم

ذكره ، وكونه فوق تمام أن يسعى في تكميل الناقصين ، وذلك بطريقين ، إما بارشادهم إلى ما ينبغي وهو الأمر بالمعروف ، أو بمنعهم مما لا ينبغي وهو النهي عن المنكر ، قال ابن عباس رضي الله عنها : (يأمرون بالمعروف) أي بتوحيد الله وبنبوة محمد ﷺ (وينهون عن المنكر) أي ينهون عن الشرك بالله ، وعن إنكار نبوة محمد ﷺ ، وأعلم أن لفظ المعروف والمنكر مطلق فلم يجز تخصيصه بغير دليل ، فهو يتناول كل معروف وكل منكر .

﴿ الصفة السابعة﴾ قوله (ويسارعون في الخيرات) وفيه وجهاً (أحدهما) أنهم يتبادرن إليها خوف الفوت بالموت ، والأخر : يعملونها غير متشاقلين . فان قيل : أليس أن العجلة مذمومة قال عليه الصلاة والسلام « العجلة من الشيطان والثاني من الرحمن » فما الفرق بين السرعة وبين العجلة ؟ قلنا : السرعة مخصوصة بأن يقدم ما ينبغي تقديمه ، والعجلة مخصوصة بأن يقدم ما لا ينبغي تقديمه ، فالمسرعة مخصوصة بفرط الرغبة فيها يتعلق بالدين ، لأن من رغب في الأمر ، آثر الفور على التراخي ، قال تعالى (وسارعوا إلى مغفرة ربكم) وأيضاً العجلة ليست مذمومة على الإطلاق بدليل قوله تعالى (وعجلت إليك رب لترضى) .

﴿ الصفة الثامنة﴾ قوله (وأولئك من الصالحين) والمعنى وأولئك الموصوفون بما وصفوا به من جملة الصالحين الذين صلحت أحواهم عند الله تعالى ورضيهم ، وأعلم أن الوصف بذلك غاية المدح ويدل عليه القرآن والمعقول ، أما القرآن ، فهو أن الله تعالى مدح بهذا الوصف أكابر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقال : بعد ذكر إسماعيل وإدريس وذي الكفل وغيرهم (وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين) وذكر حكاية عن سليمان عليه السلام أنه قال (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) وقال (فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين) وأما المعقول فهو أن الصلاح ضد الفساد وكل ما لا ينبغي أن يكون فهو فساد ، سواء كان ذلك في العقائد ، أو في الأعمال ، فإذا كان كل ما حصل من باب ما ينبغي أن يكون ، فقد حصل الصلاح ، فكان الصلاح دالاً على أكمل الدرجات .

ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الصفات الثمانية قال (وما يفعلوا من خير فلن يكفرون والله عليم بالمتقين) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى﴾ قرأ حزوة والكسائي وحفص عن عاصم (وما يفعلوا من خير فلن يكفرون) بالياء على المغایبة ، لأن الكلام متصل بما قبله من ذكر مؤمني أهل الكتاب ، يتلون ويسجدون ويؤمنون ويأمرون وينهون ويسارعون ، ولن يضيع لهم ما يعلمون ، والمقصود أن جهال اليهود لما قالوا : لعبد الله بن سلام إنكم خسرتم بسبب هذا الإيمان ، قال تعالى بل فازوا

بالدرجات العظمى ، فكان المقصود تعظيمهم ليزول عن قلبهم أثر كلام أولئك الجهل ، ثم هذا وإن كان بحسب اللفظ يرجع إلى كل ما تقدم ذكره من مؤمني أهل الكتاب ، فإن سائر الخلق يدخلون فيه نظراً إلى العلة .

وأما الباقيون فانهم قرؤا بالباء على سبيل المخاطبة فهو ابتداء خطاب لجميع المؤمنين على معنى أن أفعال مؤمني أهل الكتاب ذكرت ، ثم قال : وما تفعلوا من خير معاشر المؤمنين الذين من جملتكم هؤلاء ، فلن تکفروه ، والفائدة أن يكون حکم هذه الآية عاماً بحسب اللفظ في حق جميع المکلفین ، وما يؤکد ذلك أن نظائر هذه الآية جاءت مخاطبة لجميع الخلائق من غير تخصیص بقوم دون قوم کقوله (وما تفعلوا من خیر یعلمه الله) (وما تفعلوا من خیر یوافیکم) (وما تفعلوا من خیر تجدوه عند الله) وأما أبو عمرو فالموقول عنه أنه كان يقرأ هذه الآية بالقراءتين .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (فلن تکفروه) أي لن تمنعوا ثوابه وجزاءه وإنما سمي منع الجزاء کفر لوجهين (الأول) أنه تعالى سمي بإصال الشواب شکراً قال الله تعالى (فان الله شاکر علیم) وقال (فأولئك کان سعيهم مشکوراً) فلما سمي بإصال الجزاء شکراً سمي منعه کفراً (والثاني) أن الكفر في اللغة هو الستر فسمي منع الجزاء کفراً ، لأنه بمنزلة الجحد والستر .

فإن قيل : لم قال (فلن تکفروه) فعداه إلى مفعولين مع أن شکر وكفر لا يتعديان إلا إلى واحد يقال شکر النعمة وكفرها .

قلنا : لأننا بينما أن معنى الكفر هنا هو المنع والحرمان ، فكان كأنه قال : فلن تحرموه ، ولن تمنعوا جزاءه .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ احتج القائلون بالموازنة من الذاهبين إلى الإحباط بهذه الآية فقال : صريح هذه الآية يدل على أنه لا بد من وصول أثر فعل العبد إليه ، فلو انحط ولم ينحط من المحبط بقدر شيء لبطل مقتضى هذه الآية ، ونظير هذه الآية قوله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرأ يره) .

ثم قال (والله علیم بالمتقین) والمعنى أنه تعالى لما أخبر عن عدم الحرمان والجزاء أقام ما يجري بجرى الدليل عليه وهو أن عدم إصال الشواب والجزاء إما أن يكون للسهو والنسيان وذلك محال في حقه لأنه علیم بكل المعلومات ، وإما أن يكون للعجز والبخل وال الحاجة وذلك محال لأنه إله جميع المحدثات ، فاسم الله تعالى يدل على عدم العجز والبخل وال الحاجة ، وقوله

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أُولَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٦﴾

(عليم) يدل على عدم الجهل ، وإذا انتفت هذه الصفات امتنع المنع من الجزاء ، لأن منع الحق لا بد وأن يكون لأجل هذه الأمور والله أعلم ، إنما قال (عليم بالمتقين) مع أنه عالم بالكل بشارته للمتقين بجزيل الثواب ودلالة على أنه لا يفوز عنده إلا أهل التقوى .

قوله تعالى ﴿ إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

أعلم أنه تعالى ذكر في هذه الآيات مرة أحوال الكافرين في كيفية العقاب ، وأخرى أحوال المؤمنين في الثواب جاماً بين الزجر والترغيب والوعيد ، فلما وصف من آمن من الكفار بما تقدم من الصفات الحسنة أتبعه تعالى بوعيد الكفار ، فقال (إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم) وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في قوله (إن الذين كفروا) قوله (الأول) المراد منه بعض الكفار ثم القائلون بهذا القول ذكرروا وجوها (أحدها) قال ابن عباس : يريد قريظة والنمير ، وذلك لأن مقصود رؤساء اليهود في معاندة الرسول ما كان إلا المال والدليل عليه قوله تعالى في سورة البقرة (ولا تشتروا بأياتي ثمنا قليلا) (وثانية) أنها نزلت في مشركي قريش ، فإن أبا جهل كان كثير الإفخار بماله وهذا السبب نزل فيه قوله (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورثياً) قوله (فليدع ناديه سندع الزبانية) (وثالثها) أنها نزلت في أبي سفيان ، فإنه انفق مالا كثيرا على المشركين يوم بدر وأحد في عداوة النبي ﷺ .

﴿ والقول الثاني ﴾ أن الآية عامة في حق جميع الكفار ، وذلك لأنهم كلهم كانوا يعززون بكثرة الأموال ، وكانوا يعيرون الرسول ﷺ وأتباعه بالفقر ، وكان من جملة شبههم أن قالوا : لو كان محمد على الحق لما تركه ربه في هذا الفقر والشدة ، ولأن اللفظ عام ، ولا دليل يوجب التخصيص فوجب إجراؤه على عمومه ، وللأولين أن يقولوا : إنه تعالى قال بعد هذه الآية (مثل ما ينفقون) فالضمير في قوله (ينفقون) عائد إلى هذا الموضع ، وهو قوله (إن الذين كفروا) ثم إن قوله (ينفقون) مخصوص ببعض الكفار ، فوجب أن يكون هذا أيضاً مخصوصاً .

مَثْلُ مَا يَنْفَقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الَّتِي كَمَّلَ رِيحَ فِيهَا صَرُّ أَصَابَتْ حَرَثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا
أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمُوهُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧١)

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنما خص تعالى الأموال والأولاد بالذكر لأن أفعى الجمادات هو الأموال وأنفع الحيوانات هو الولد ، ثم بين تعالى أن الكافر لا ينتفع بها البة في الآخرة ، وذلك يدل على عدم انتفاعه بسائر الأشياء بطريق الأولى ، ونظيره قوله تعالى (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) قوله (واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئاً) الآية قوله (فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به) قوله (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى) ولما بين تعالى أنه لا انتفاع لهم بأموالهم ولا بأولادهم ، قال (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

وأتحجج أصحابنا بهذه الآية على أن فساق أهل الصلاة لا يبقون في النار أبداً فقالوا قوله (وأولئك أصحاب النار) كلمة تفيد الحصر فإنه يقال : أولئك أصحاب زيد لا غيرهم وهم المنتفعون به لا غيرهم ولما أفادت هذه الكلمة معنى الحصر ثبت أن الخلود في النار ليس إلا للكافر .

قوله تعالى ﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرت قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمتهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾ .

أعلم أنه تعالى لما بين أن أموال الكفار لا تغنى عنهم شيئاً ، ثم أنهن ربما أنفقوا أموالهم في وجوه الخيرات ، فيخطر ببال الإنسان أنهم ينتفعون بذلك ، فأزال الله تعالى بهذه الآية تلك الشبهة ، وبين أنهم لا ينتفعون بتلك الإنفاقات ، وإن كانوا قد قصدوا بها وجه الله .

وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المثل الشبه الذي يصير كالعلم لكثرة استعماله فيما يشبه به وحاصل الكلام أن كفراهم يبطل ثواب نفقتهم ، كما أن الريح الباردة تهلك الزرع .

فإن قيل : فعل هذا التقدير مثل إنفاقهم هو الحرج الذي هلك ، فكيف شبه الإنفاق

بالرياح الباردة المهلكة .

قلنا : المثل قسمان منه ما حصلت فيه المشابهة بين ما هو المقصود من الجملتين وإن لم تحصل المشابهة بين أجزاء الجملتين ، وهذا هو المسمى بالتشبيه المركب ، ومنه ما حصلت المشابهة فيه بين المقصود من الجملتين ، وبين أجزاء كل واحدة منها ، فإذا جعلنا هذا المثل من القسم الأول زال السؤال ، وإن جعلناه من القسم الثاني ففيه وجوه (الأول) أن يكون التقدير : مثل الكفر في إهلاك ما ينفقون ، كمثل الرياح المهلكة للحرث (الثاني) مثل ما ينفقون ، كمثل مهلك ريح ، وهو الحرث (الثالث) لعلن الإشارة في قوله (مثل ما ينفقون) إلى ما أنفقوا في إيذاء رسول الله ﷺ في جمع العساكر عليه ، وكان هذا الإنفاق مهلكاً لجميع ما أتوا به من أعمال الخير والبر وحيثند يستقيم التشبيه من غير حاجة إلى إضمار وتقديم وتأخير ، والتقدير : مثل ما ينفقون في كونه مبطلاً لما أتوا به قبل ذلك من أعمال البر كمثل ريح فيها صر في كونها مبطلة للحرث ، وهذا الوجه خطر ببابي عند كتابتي على هذا الموضوع ، فإن إنفاقهم في إيذاء الرسول ﷺ من أعظم أنواع الكفر ومن أشدّها تأثيراً في إبطال آثار أعمال البر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ اختلفوا في تفسير هذا الإنفاق على قولين (الأول) أن المراد بالإنفاق هنا هو جميع أعمالهم التي يرجون الانتفاع بها في الآخرة سواه الله إنفاقاً كما سمي ذلك بيعاً وشراء في قوله (إن الله اشتري من المؤمنين أنفسهم) إلى قوله (فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به) وما يدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) والمراد به جميع أعمال الخير وقوله تعالى (لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) والمراد جميع أنواع الانتفاعات .

﴿ والقول الثاني ﴾ وهو الأشبه أن المراد إنفاق الأموال ، والدليل عليه ما قبل هذه الآية وهو قوله (لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم) .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (مثل ما ينفقون) المراد منه جميع الكفار أو بعضهم ، فيه قولان : (الأول) المراد الإخبار عن جميع الكفار ، وذلك لأن إنفاقهم إما أن يكون لمنافع الدنيا أو لمنافع الآخرة فان كان لمنافع الدنيا لم يبقَ منه أثر البتة في الآخرة في حق المسلمين فضلاً عن الكافر وإن كان لمنافع الآخرة لم ينتفع به في الآخرة لأن الكفر مانع من الانتفاع به ، فثبتت أن جميع نفقات الكفار لا فائدة فيها في الآخرة ، ولعلهم أنفقوا أموالهم في الخيرات نحو بناء الرباطات والقنطر والإنصاف والإحسان إلى الضعفاء والأيتام والأرامل ، وكان ذلك المنفق يرجو من ذلك الإنفاق خيراً كثيراً فإذا قدم الآخرة رأى كفره مبطلاً لآثار الخيرات ، فكان كمن زرع زرعاً

وتوقع منه نفعاً كثيراً فأصابته ريح فأحرقته فلا يبقى معه إلا الحزن والأسف ، هذا إذا أنفقوا الأموال في وجوه الخيرات أما إذا أنفقوها فيما ظنوه أنه الخيرات لكنه كان من المعاصي مثل إنفاق الأموال في إيذاء الرسول ﷺ وفي قتل المسلمين وتخريب ديارهم ، فالذى قلناه فيه أسد وأشد ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً متشوراً) وقال : (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة) وقوله : (والذين كفروا أعواهم كسراب بقيعة) فكل ذلك يدل على الحسنات من الكفار لا تستعقب الثواب ، وكل ذلك مجموع في قوله تعالى : (إنما يتقبل الله من المتقين) وهذا القول هو الأقوى والأصح .

وأعلم أنا فسرنا الآية بخيبة هؤلاء الكفار في الآخرة ولا يبعد أيضاً تفسيرها بخيبتهم في الدنيا ، فانهم أنفقوا الأموال الكثيرة في جمع العساكر وتحملوا المشاق ثم أنقلب الأمر عليهم ، وأظهر الله الإسلام وقواه فلم يبق مع الكفار من ذلك الإنفاق إلا الخيبة والحسرة .

﴿ والقول الثاني ﴾ المراد منه الإخبار عن بعض الكفار ، وعلى هذا القول ففي الآية وجوه (الأول) أن المنافقين كانوا ينفقون أموالهم في سبيل الله ولكن على سبيل التقىة والخوف من المسلمين وعلى سبيل المداراة لهم فالآية فيهم (الثاني) نزلت هذه الآية في أبي سفيان وأصحابه يوم بدر عند ظاهرهم على الرسول عليه السلام (الثالث) نزلت في إنفاق سفلة اليهود على أخبارهم لأجل التحرير (الرابع) المراد ما ينفقون ويظنون أنه تقرب إلى الله تعالى مع أنه ليس كذلك .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ اختلفوا في (الصر) على وجوه (الأول) قال أكثر المفسرين وأهل اللغة : الصر البرد الشديد وهو قول ابن عباس وقتادة والسدى وابن زيد (والثاني) أن الصر : هو السموم الحارة والنار التي تغلى ، وهو اختيار أبي بكر الأصم وأبي بكر بن الأنباري ، قال ابن الأنباري : وإنما وصفت الناز بأنها (صر) لتصويتها عند الالتهاب ، ومنه صرير الباب ، والصر صر مشهور ، والصرة الصيحة ومنه قوله تعالى (فأقبلت امرأته في صرة) وروى ابن الأنباري بسانده عن ابن عباس رضي الله عنهما في (فيها صر) قال فيها نار ، وعلى القولين فالقصد من التشبيه حاصل ، لأنه سواء كان برداً مهلكاً أو حراً محرقاً فإنه يصير مبطلاً للحرث والزرع فيصبح التشبيه به .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ المعتزلة احتاجوا بهذه الآية على صحة القول بالإحباط ، وذلك لأنه كما أن هذه الريح تهلك الحرث فكذلك الكفر يهلك الإنفاق ، وهذا إنما يصح إذا قلنا : إنه لو لا الكفر لكان ذلك الإنفاق موجباً لمنافع الآخرة وحينئذ يصح القول بالإحباط ، وأجاب

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْدِعُو بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوَّا مَا عَنْتُمْ قَدْ
بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيْنَ الْكُلُّ أَلَا يَرَى إِنْ كُنْتُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾

أصحابنا عنه بأن العمل لا يستلزم الثواب إلا بحكم الوعد ، والوعد من الله مشروط بحصول الإيمان ، فإذا حصل الكفر فات المشروط لفوات شرطه لأن الكفر أزاله بعد ثبوته ، ودلائل بطلان القول بالاحباط قد تقدمت في سورة البقرة .

ثم قال تعالى (أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم) وفيه سؤال : وهو أن يقال : لم لم يقتصر على قوله (أصابت حرث قوم) وما الفائدة في قوله (ظلموا أنفسهم) .

قلنا : في تفسير قوله (ظلموا أنفسهم) وجهان (الأول) أنهم عصوا الله فاستحقوا هلاك حرثهم عقوبة لهم ، والفائدة في ذكره هي أن الغرض تشبيه ما ينفقون بشيء يذهب بالكلية حتى لا يبقى منه شيء ، وحرث الكافرين الظالمين هو الذي يذهب بالكلية ولا يحصل منه منفعة لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فاما حرث المسلم المؤمن فلا يذهب بالكلية لأنه وإن كان يذهب صورة فلا يذهب معنى ، لأن الله تعالى يزيد في ثوابه لأجل وصول تلك الأحزان إليه (والثاني) أن يكون المراد من قوله (ظلموا أنفسهم) هو أنهم زرعوا في غير موضع الزرع أو في غير وقته ، لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، وعلى هذا التفسير يتتأكد وجه التشبيه ، فان من زرع لا في موضعه ولا في وقته يضيع ، ثم إذا أصابته الريح الباردة كان أولى بأن يصير ضائعا ، فكذا ه هنا الكفار لما أتوا بالإنفاق لا في موضعه ولا في وقته ثم أصابه شؤم كفراهم امتنع أن لا يصير ضائعا والله أعلم .

ثم قال تعالى (وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون) والمعنى أن الله تعالى ما ظلمهم حيث لم يقبل نفقاتهم ، ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث أتوا بها مقرونة بالوجوه المانعة من كونها مقبولة لله تعالى قال صاحب الكشاف : قرىء (ولكن) بالتشديد معنى ولكن أنفسهم يظلمونها ، ولا يجوز أن يراد ، ولكنه أنفسهم يظلمون على إسقاط ضمير الشأن ، لأنه لا يجوز إلا في الشعر .

قوله تعالى ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْدِعُو بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوَّا مَا عَنْتُمْ قد
بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيْنَ الْكُلُّ أَلَا يَرَى إِنْ كُنْتُمْ
تَعْقِلُونَ ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال المؤمنين والكافرين شرع في تحذير المؤمنين عن مخالطة الكافرين في هذه الآية ولهنا مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ اختلقو في أن الذين نهى الله المؤمنين عن مخالطتهم من هم ؟ على أقوال : (الأول) أنهم هم اليهود ذلك لأن المسلمين كانوا يشاورونهم في أمورهم ويؤنسونهم لما كان بينهم من الرضاع والخلف ظنًا منهم أنهم وإن خالفوهم في الدين فهم ينصحون لهم في أسباب المعاش فنهاهم الله تعالى بهذه الآية عنه ، وحججة أصحاب هذا القول أن هذه الآيات من أو لها إلى آخرها مخاطبة مع اليهود فتكون هذه الآية أيضًا كذلك (الثاني) أنهم هم المنافقون ، وذلك لأن المؤمنين كانوا يغترون بظاهر أقوال المنافقين ويعظون أنهم صادقون فيفشوون إليهم الأسرار ويطلعونهم على الأحوال الخفية ، فالله تعالى منعهم عن ذلك ، وحججة أصحاب هذا القول أن ما بعد هذه الآية يدل على ذلك وهو قوله (وإذا لفوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيط) ومعلوم أن هذا لا يليق باليهود بل هو صفة المنافقين ، ونظيره قوله تعالى في سورة البقرة (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون) (الثالث) المراد به جميع أصناف الكفار والدليل عليه قوله تعالى (بطانة من دونكم) فمنع المؤمنين أن يتخدوا بطانة من غير المؤمنين فيكون ذلك نهياً عن جميع الكفار وقال تعالى (يا ايهما الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) وما يؤكّد ذلك ما روى أنه قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : هنا رجل من أهل الحيرة نصراني لا يعرف أقوى حفظاً ولا أحسن خطأ منه ، فإن رأيت أن تتحذره كاتباً ، فامتنع عمر من ذلك وقال : إذن اتخذت بطانة من غير المؤمنين ، فقد جعل عمر رضي الله عنه هذه الآية دليلاً على النهي عن اتخاذ بطانة ، وأما ما تمسكوا به من أن ما بعد الآية مختص بالمنافقين فهذا لا يمنع عموم أول الآية ، فإنه ثبت في أصول الفقه أن أول الآية إذا كان عاماً وأخرها إذا كان خاصاً لم يكن خصوص آخر الآية مانعاً من عموم أولها .

﴿المسألة الثانية﴾ قال أبو حاتم عن الأصممي : بطن فلان بفلان يبطن به بطوناً وبطانة ، إذا كان خاصاً به داخلاً في أمره ، فالبطانة مصدر يسمى به الواحد والجمع ، وبطانة الرجل خاصة الذين يبطنون أمره وأصله من البطن خلاف الظاهر ، ومنه بطانة الثوب خلاف ظهارته ، والحاصل إن الذي يخصه الإنسان بمزيد التقريب يسمى بطانة لأنه بمنزلة ما يلي بطنه في شدة القرب منه .

﴿المسألة الثالثة﴾ قوله تعالى (لا تتخذوا بطانة) نكرة في سياق النفي فيفيد العموم .

أما قوله (من دونكم) ففيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ من دونكم أي من دون المسلمين ومن غير أهل ملتكم ولفظ (من دونكم) يحسن حمله على هذا الوجه كما يقول الرجل : قد أحسنت إلينا وأنعمت علينا ، وهو يريد أحسنت إلى إخواننا ، وقال تعالى (ويقتلون النبيين بغير حق) أي آباءهم فعلوا ذلك .

﴿ المسألة الثانية ﴾ في قوله (من دونكم) احتالان (أحدهما) أن يكون متعلقاً بقوله (لا تتخذوا) أي لا تتخذوا من دونكم بطانة (والثاني) أن يجعل وصفاً للبطانة والتقدير : بطانة كائنات من دونكم .

فإن قيل : ما الفرق بين قوله : لا تتخذوا من دونكم بطانة ، وبين قوله (لا تتخذوا بطانة من دونكم) ؟

قلنا : قال سيبويه : انهم يقدمون الاهم والذى هم بشأنه اعني وھنالیس المقصود اتخاذ البطانة إنما المقصود أن يتخد منهم بطانة فكان قوله : لا تتخذوا من دونكم بطانة أقوى في إفاده المقصود .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قيل (من) زائدة ، وقيل للنبيين : لا تتخذوا بطانة من دون أهل ملتكم . فإن قيل : هذه الآية تقضي المنع من مصاحبة الكفار على الإطلاق ، وقال تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم) (إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم) فكيف الجمع بينهما ؟ قلنا : لا شك أن الخاص يقدم على العام .

واعلم أنه تعالى لما منع المؤمنين من أن يتخذوا بطانة من الكافرين ذكر علة هذا النهي وهي أمور (أحدهما) قوله تعالى (لا يأولونكم خبala) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال صاحب الكشاف : يقال (ألا) في الأمر يأولوا إذا قصر فيه ، ثم استعمل معدى إلى مفعولين في قوله : لا آلوك نصحاً ، ولا آلوك جهداً على التضمين ، والمعنى لا امنعك نصحاً ولا أنقصك جهداً .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الخبال الفساد والنقسان ، وأنشدوا :

لستم بيد إلا يداً محبولة العضد

أي فاسدة العضد منقوضتها ، ومنه قيل : رجل محبول ومحبل ومحبتل من كان ناقص

العقل ، وقال تعالى : (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبلاً) أي فساداً وضرراً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (لا يألونكم خبلاً) أي لا يدعون جهدهم في مضرتكم وفسادكم ، يقال : ما ألوته نصحاً ، أي ما قصرت في نصيحته ، وما ألوته شرًا مثله .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ انتصب الخبال بلا يألونكم لأنه يتعدى إلى مفعولين كما ذكرنا وإن شئت نصيحته على المصدر ، لأن معنى قوله (لا يألونكم خبلاً) لا يخبلونكم خبلاً (وثانيها) قوله تعالى (ودوا ما عنتم) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ يقال وددت كذا ، أي أحبيته و (العنت) شدة الضرر والمشقة قال تعالى (ولول شاء الله لأعنتهكم) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ما مصدرية كقوله (ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) أي بفرحكم ومرحكم وكقوله (والسماء وما بناتها والأرض وما طحاهما) أي بنائه إليها وطحئها إليها .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ تقدير الآية : أحبوا أن يضروكم في دينكم ودنياكم أشد الضرر .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ قال الواحدi رحمه الله : لا محل لقوله (ودوا ما عنتم) لأنه استثناف بالجملة وقيل : إنه صفة لبطانة ، ولا يصح هذا لأن البطانة وقد وصفت بقوله (لا يألونكم خبلاً) فلو كان هذا صفة أيضًا لوجب إدخال حرف العطف بينهما .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ الفرق بين قوله (لا يألونكم خبلاً) وبين قوله (ودوا ما عنتم) في المعنى من وجوه (الأول) لا يقترون في إفساد دينكم ، فان عجزوا عنه ودوا إلقاءكم في أشد أنواع الضرر (الثاني) لا يقترون في إفساد أموركم في الدنيا ، فإذا عجزوا عنه لم يزد عن قلوبهم حب إعانتكم (الثالث) لا يقترون في إفساد أموركم ، فإن لم يفعلوا ذلك لمانع من خارج ، فحب ذلك غير زائل عن قلوبهم (وثالثها) قوله تعالى (قد بدت البغضاء من أفواههم) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ البغضاء أشد البغض ، فالبغض مع البغض كالضر مع الضراء .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الأفواه جمع الفم والفتح أصله فهو بدليل أن جمعه أفواه ، يقال : فوه وأفواه كسوط وأساطير ، وطوق وأطواق ، ويقال رجل مفوه إذا أجاد القول ، وأفوه إذا كان

هَنَّا نَّمَّ أُولَئِكَ تُحْبِبُونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا قَوْكَرْ قَالُوا إِنَّا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْ عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الْصَّدُورِ ﴿٩﴾

واسع الفم ، فثبتت أن أصل الفم فهو بوزن سوط ، ثم حذفت الهاء تخفيفاً ثم أقيم الميم مقام الواو لأنها حرفان شفويان .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (قد بدت البغضاء من أفواههم) إن حملناه على المنافقين ففي تفسيره وجهان (الأول) أنه لا بد في المنافق من أن يجري في كلامه ما يدل على نفاقه ومفارقة طريق المصالحة في الود والنصيحة ، ونظيره ، قوله تعالى (ولترعفونهم في لحن القول) (الثاني) قال قتادة : قد بدت البغضاء لأوليائهم من المنافقين والكافار لاطلاع بعضهم ببعض على ذلك ، أما إن حملناه على اليهود فتفسير قوله (قد بدت البغضاء من أفواههم) فهو أنهم يظهرون تكذيب نبيكم وكتابكم وينسبونكم إلى الجهل والحمق ، ومن اعتقاد في غيره الإصرار على الجهل والحمق امتنع أن يحيط ، بل لا بد وان يبغضه ، فهذا هو المراد بقوله (قد بدت البغضاء من أفواههم) .

ثم قال تعالى (وما تخفي صدورهم أكبر) يعني الذي يظهر على لسان المنافق من علامات البغضاء أقل مما في قلبه من النفرة ، والذي يظهر من علامات الحقد على لسانه أقل مما في قلبه من الحقد ، ثم بين تعالى أن إظهار هذه الأسرار للمؤمنين من نعمه عليهم ، فقال (قد بينما لكم الآيات إن كنتم تعقلون) أي من أهل العقل والفهم والدرأة ، وقيل (إن كنتم تعقلون) الفصل بين ما يستحقه العدو والولي ، والمقصود بعثتهم على استعمال العقل في تأمل هذه الآية وتدبر هذه البيانات ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ هَا أَنْتُمْ أُولَئِكَ تُحْبِبُونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا خَلَوْ عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .

واعلم أن هذا نوع آخر من تحذير المؤمنين عن مخالطة المنافقين ، وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قال السيد السرخيسي سلمه الله (هـ) للتبليه و (أنتـ) مبتدأ

و (أولاء) خبره و (تحبونهم) في موضع النصب على الحال من اسم الاشارة ، ويجوز أن تكون (أولاء) بمعنى الذين و (تحبونهم) صلة له ، والموصول مع الصلة خبر (أنتم) وقال الفراء (أولاء) خبر و (تحبونهم) خبر بعد خبر .

﴿ المسألة الثانية ﴾ أنه تعالى ذكر في هذه الآية أموراً ثلاثة ، كل واحد منها على أن المؤمن لا يجوز أن يتخد غير المؤمن بطانة لنفسه (فال الأول) قوله (تحبونهم ولا يحبونكم) وفيه وجوه : (أحدها) قال المفضل (تحبونهم) تريدون لهم الإسلام وهو خير الأشياء (ولا يحبونكم) لأنهم يريدون بقاءكم على الكفر ، ولا شك أنه يجب الهلاك (الثاني) (تحبونهم) بسبب ما بينكم وبينهم من الرضاعة والمصاهرة (ولا يحبونكم) بسبب كونكم مسلمين (الثالث) (تحبونهم) بسبب أنهم أظهروا لكم الإيمان (ولا يحبونكم) بسبب أن الكفر مستقر في باطنهم (الرابع) قال أبو بكر الأصم (تحبونهم) بمعنى أنكم لا تريدون إلقاءهم في الآفات والمحن (ولا يحبونكم) بمعنى أنهم يريدون إلقاءكم في الآفات والمحن ويتربصون بكم الدوائر (الخامس) (تحبونهم) بسبب أنهم يظهرون لكم محبة الرسول ومحب المحبوب محبوب (ولا يحبونكم) لأنهم يعلمون أنكم تحبون الرسول وهم يبغضون الرسول ومحب المبغوض مبغوض (ال السادس) (تحبونهم) أي تخالطونهم ، وتتشوشون إليهم أسراركم في أمور دينكم (ولا يحبونكم) أي لايفعلون مثل ذلك بكم .

واعلم أن هذه الوجه التي ذكرناها إشارة إلى الأسباب الموجبة لكون المؤمنين يحبونهم ولكونهم يبغضون المؤمنين ، فالكل داخل تحت الآية ، ولما عرفهم تعالى كونهم مبغضين للمؤمنين وعرفهم أنهم مبطلون في ذلك البعض صار ذلك داعياً من حيث الطبع ، ومن حيث الشرع إلى أن يصير المؤمنون مبغضين لهؤلاء المنافقين .

﴿ والسبب الثاني لذلك ﴾ قوله تعالى (وتؤمنون بالكتاب كله) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في الآية إضمار ، والتقدير : وتومنون بالكتاب كله وهم لا يؤمنون به ، وحسن الحذف لما بينا أن الضدين يعلمان معاً فكان ذكر أحدهما مغنياً عن ذكر الآخر .
 ﴿ المسألة الثانية ﴾ ذكر (الكتاب) بلفظ الواحد لوجوه (أحدها) أنه ذهب به مذهب الجنس كقولهم : كثر الدرهم في أيدي الناس (وثانية) أن المصدر لا يجمع إلا على التأويل ، فلهذا لم يقل الكتب بدلاً من الكتاب ، وإن كان لو قاله لجاز توسعأً .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ تقدير الكلام : أنكم تؤمنون بكتبهم كلها وهم مع ذلك يبغضونكم فيما بالكم مع ذلك تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم ، وفيه توبیخ شديد بأنهم في

قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ الآية سورة آل عمران

باطلهم أصلب منكم في حكمكم ، ونظيره قوله تعالى (فانهم يألفون كما تألفون وترجون من الله ما لا يرجون) .

﴿السبب الثالث لقبح هذه المغالطة﴾ قوله تعالى (وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عدوا عليكم الأنامل من الغيظ) والمعنى : أنه إذا خلا بعضهم ببعض أظهرها شدة العداوة ، وشدة الغيظ على المؤمنين حتى تبلغ تلك الشدة إلى بعض الأنامل ، كما يفعل ذلك أحدهما إذا اشتد غيظه وعظم حزنه على فوات مطلوبه ، ولما كثر هذا الفعل من الغضبان ، صار ذلك كنابة عن الغضب حتى يقال في الغضبان : إنه بعض يده غيظاً وإن لم يكن هناك عرض ، قال المفسرون : وإنما حصل لهم هذا الغيظ الشديد لما رأوا من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم وصلاح ذات بينهم .

ثم قال تعالى (قل موتوا بغيظكم) وهو دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به ، والمراد من ازدياد الغيظ ازدياد ما يجب لهم ذلك الغيظ من قوة الإسلام وعزه أهله وما لهم في ذلك من الذل والخزي .

فإن قيل :

(قوله (قل موتوا بغيظكم) أمر لهم بالإقامة على الغيظ ، وذلك الغيظ كفر ، فكان هذا أمراً بالإقامة على الكفر وذلك غير جائز .

قلنا : قد بينا إنه دعاء بازدياد ما يجب لهذا الغيظ وهو قوة الإسلام فسقط السؤال :

وأيضاً فإنه دعاء عليهم بالموت قبل بلوغ ما يتمنون .

ثم قال (إن الله عليم بذات الصدور) وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ (ذات) كلمة وضعت لنسبة المؤنث كما أن (ذو) كلمة وضعت لنسبة المذكر والمراد بذلك الصدور الخواطر القائمة بالقلب والداعي والصوارف الموجودة فيه وهي لكونها حالة في القلب متسبة إليه فكانت ذات الصدور ، والمعنى أنه تعالى عالم بكل ما حصل في قلوبكم من الخواطر والبواعث والصوارف .

﴿المسألة الثانية﴾ قال صاحب الكشاف يحتمل أن تكون هذه الآية داخلة في جملة المقول وأن لا تكون (أما الأول) فالتقدير : أخبرهم بما يسرونه من عضهم الأنامل غيظاً إذا خلوا وقل لهم : إن الله عليم بما هو أخفى مما تسرونه بينكم ، وهو مضمرات الصدور ، فلا تظنو أن شيئاً من اسراركم يخفى عليه (أما الثاني) وهو أن لا يكون داخلاً في المقول فمعناه : قل لهم ذلك يا محمد ولا تتعجب من اطلاعي إليك على ما يسرون ، فإني أعلم ما هو أخفى من

إِنْ تَمْسِكُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصْبِكُمْ سَيْئَةً يُفْرِحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَقَوَّلَا لَا يُضْرِكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢﴾

ذلك ، وهو ما أضموه في صدورهم ولم يظهوه باليستهم ويجوز أن لا يكون ، ثم قول وأن يكون قوله (قل موتوا بغطيكم) أمر الرسول ﷺ بطيب النفس وقوة الرجاء والاستبشران وبعد الله إياه أنهم يهلكون غيظاً باعزاز الإسلام وإذلالهم به . كأنه قيل : حدث نفسك بذلك والله تعالى أعلم .

قوله تعالى ﴿ إن تمسكتم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط ﴾ .

واعلم أن هذه الآية من تمام وصف المنافقين ، وبين تعالى أنهم مع ما لهم من الصفات الذمية والأفعال القبيحة متربقون نزول نوع من المحن والبلاء بالمؤمنين ، وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ المس أصله باليد ثم يسمى كل ما يصل إلى الشيء (ماساً) على سبيل التشبيه فيقال : فلان مسه التعب والنصب ، قال تعالى (وما مسنا من لغوب) وقال (وإذا مسكم الضر في البحر) قال صاحب الكشاف : المس هنا يعني الإصابة ، قال تعالى (إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة) قوله (ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) وقال (إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ المراد من الحسنة هنا منفعة الدنيا على اختلاف أحواها ، فمنها صحة البدن وحصول الخصب والفوز بالغنيمة والاستيلاء على الأعداء وحصول المحبة والألفة بين الأحباب والمراد بالسيئة أصدادها ، وهي المرض والفقر والهزيمة والانهزام من العدو وحصول التفرق بين الأقارب ، والقتل والنهب والغارة ، وبين تعالى أنهم يحزنون ويعتمدون بحصول نوع من أنواع الحسنة لل المسلمين ويفرحون بحصول نوع من أنواع السيئة لهم .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ يقال ساء الشيء بسوء فهو سيء ، والأنهى سيئة أي قبح ، ومنه قوله تعالى (ساء ما يعملون) والسوأى ضد الحسنى .

ثم قال (وإن تصبروا) يعني على طاعة الله وعلى ما ينالكم فيها من شدة وغم (وتقوا) كل ما نهاكم عنه وتوكلوا في أموركم على الله (لا يضركم كيدهم شيئاً) وفيه مسائل :

المسألة الأولى ﴿ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو (لا يضركم) بفتح الباء وكسر الصاد وسكون الراء ، وهو من ضاره يضيره ، ويضوره ضوراً إذا ضره ، والباقيون (لا يضركم) بضم الصاد والراء المشددة وهو من الضر ، وأصله يضرركم جزماً ، فادغمت الراء في الراء ونقلت ضمة الراء الأولى إلى الصاد وضمت الراء الأخيرة ، اتباعاً لأقرب الحركات وهي ضمة الصاد ، وقال بعضهم: هو على التقديم والتأخير تقديره: ولا يضركم كيدهم شيئاً إن تصبروا وتتقوا ، قال صاحب الكشاف: وروى الفضل عن عاصم (لا يضركم) بفتح الراء .

المسألة الثانية ﴿ الكيد هو أن يحتال الإنسان ليقع غيره في مكروه ، وابن عباس فسر الكيد ههنا بالعداوة . **المسألة الثالثة** ﴿ شيئاً) نصب على المصدر أي شيئاً من الضر . **المسألة الرابعة** ﴿ معنى الآية : أن كل من صبر على أداء أوامر الله تعالى واتقى كل ما نهى الله عنه كان في حفظ الله فلا يضره كيد الكافرين ولا حيل للمحتالين .

وتحقيق الكلام في ذلك هو أنه سبحانه إنما خلق الخلق للعبودية كما قال (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فمن وفي بعهد العبودية في ذلك فالله سبحانه أكرم من أن لا يفي بعهد الربوبية في حفظه عن الآفات والمخافات ، وإليه الإشارة بقوله (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب) إشارة إلى أنه يصل إليه كل ما يسره ، وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن تكتب من يحسد فاجتهد في اكتساب الفضائل

ثم قال تعالى (إن الله بما يعملون محيط) وفيه مسائل :

المسألة الأولى ﴿ قرئ بما يعملون بالياء على سبيل المغایبة بمعنى أنه عالم بما يعملون في معاداتكم فيعاقبهم عليه ، ومن قرأ بالباء على سبيل المخاطبة ، فالمعنى أنه عالم محيط بما عملون من الصبر والتقوى فيفعل بهم ما أنتم أهله .

المسألة الثانية ﴿ إطلاق لفظ المحيط على الله مجاز ، لأن المحيط بالشيء هو الذي يحيط به من كل جوانبه وذلك من صفات الأجسام ، لكنه تعالى لما كان عالما بكل الأشياء قادرًا على كل المكنات ، جاز في مجاز اللغة أنه محيط بها ، ومنه قوله (والله من ورائهم محيط) وقال (والله محيط بالكافرين) وقال (ولا يحيطون به علما) وقال (وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً) .

المسألة الثالثة ﴿ إنما قال (إن الله بما يعملون محيط) ولم يقل إن الله محيط بما يعملون لأنهم يقدمون الأهم والذي هم بشأنه ، أعني وليس المقصود ههنا بيان كونه تعالى عالماً ، بينما أن جميع أعمالهم معلومة لله تعالى ومجاز بهم عليها فلا جرم قد ذكر العمل والله أعلم .

وَإِذْ غَدُوتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِِالْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٦﴾ إِذْ هَمَّتْ
طَّافِقَاتٍ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلِيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى ﴿ وَإِذْ غَدُوتْ مِنْ أَهْلِكَ تَبُوئِ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلقتالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، إِذْ هَمَتْ طَافِقَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشِلاَا وَاللهُ وَلِيَهَا وَعَلَى اللهِ فَلِيَتَوَكَّلَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

اعلم أنه تعالى لما قال (وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً) أتبعه بما يدهم على سنة الله تعالى فيهم في باب النصرة والمعونة ودفع مضار العدو إذا هم صبروا واتقوا ، وخلاف ذلك فيهم إذا لم يصبروا فقال (وإذا غدروت من أهلك) يعني أنهم يوم أحد كانوا كثيرين للقتال ، فلما خالفوا أمر الرسول انهزموا ، ويوم بدر كانوا قليلين غير مستعددين للقتال فلما أطاعوا أمر الرسول غلبوا واستولوا على خصومهم ، وذلك يؤكّد قولنا ، وفيه وجه آخر وهو أن الانكسار يوم أحد إنما حصل بسبب تحالف عبد الله بن أبي بن سلول المنافق ، وذلك يدل على أنه لا يجوز اتخاذ هؤلاء المنافقين بطيئة وفيه مسائل :

﴿المسألة الأولى﴾ قوله (إذ غدوت من أهلك) فيه ثلاثة أوجه (الأول) تقديره واذكر إذ غدوت (والثاني) قال أبو مسلم : هذا كلام معطوف بالواو على قوله (قد كان لكم آية في فتئين التقى فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة) يقول : قد كان لكم في نصر الله تلك الطائفة القليلة من المؤمنين على الطائفة الكثيرة من الكافرين موضع اعتبار لتعرفوا به أن الله ناصر المؤمنين ، وكان لهم مثل ذلك من الآية إذ غدا الرسول ﷺ يبوء المؤمنين مقاعد للقتال (والثالث) العامل فيه محيط : تقديره والله بما يعلمون محيط وإذ غدوت .

﴿المسألة الثانية﴾ اختلروا في أن هذا اليوم أي يوم هو؟ فالأكثرون: أنه يوم أحد: وهو قول ابن عباس والسلفي وابن إسحاق والربيع والأصم وأبي مسلم وقيل: إنه يوم بدر، وهو قول الحسن، وقيل إنه يوم الأحزاب وهو قول مجاهد ومقاتل، حجة من قال هذا اليوم هو يوم أحد وجوه (الأول) أن أكثر العلماء باللغازي زعموا أن هذه الآية نزلت في وقعة أحد (الثاني) أنه تعالى قال بعد هذه الآية (ولقد نصركم الله بدر) والظاهر أنه معطوف على ما تقدم، ومن حق المعطوف أن يكون غير المعطوف عليه، وأما يوم الأحزاب، فالقوم إنما

خالفوا أمر الرسول ﷺ يوم أحد لا يوم الأحزاب ، فكانت قصة أحد أليق بهذا الكلام لأن المقصود من ذكر هذه القصة تقرير قوله (وإن تصبروا وتنقوا لا يضركم كيدهم شيئاً) فثبت إن هذا اليوم هو يوم أحد ((الثالث)) أن الانكسار واستيلاء العدو كان في يوم أحد أكثر منه في يوم الأحزاب لأن في يوم أحد قتلوا جمعاً كثيراً من أكابر الصحابة ولم يتفق ذلك يوم الأحزاب فكان حمل الآية على يوم أحد أولى .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ روى أن المشركين نزلوا بأحد يوم الأربعاء فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه ودعا عبدالله بن أبي بن سلول ولم يدعه قط قبلها فاستشاره فقال عبدالله وأكثر الأنصار : يا رسول الله أقم بالمدينة ولا تخرج إليهم والله ما خرجنا منها إلى عدو فقط إلا أصابنا ولا دخل عدو علينا إلا أصبننا منه ، فكيف وأنت فينا؟ فدعهم فان أقاموا أقاموا بشرط موضع وإن دخلو قتلهم الرجل في وجوههم ، ورمأهم النساء والصبيان بالحجارة ، وإن رجعوا رجعوا خائبين وقال آخرون : أخرج بنا إلى هؤلاء الكلب لثلا يظنوا أنا قد خفناهم ، فقال عليه الصلاة والسلام « إني قد رأيت في منامي بقرا تذبح حولي فأولتها خيراً ورأيت في ذباب سيفي ثلما فأولته هزيمة ورأيت كأنني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة فان رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوههم » فقال قوم من المسلمين من الذين فاتتهم (بدر) وأكرمهم الله بالشهادة يوم أحد أخرج بنا إلى أعدائنا فلم يزالوا به حتى دخل فلبس لامته ، فلما لبس ندم القوم ، وقالوا : بئسما صنعتنا نشير على رسول الله والوحى يأتيه ، فقالوا : له اصنع يا رسول الله ما رأيت ، فقال « لا ينبغي لنبي أن يلبس لامته فيضعها حتى يقاتل » فخرج يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال ، فمشى على رجليه وجعل يصف أصحابه للقتال كأنما يقوم بهم القدر إن رأى صدرأ خارجاً قال له تأخر ، وكان نزوله في جانب الوادي ، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد وأمر عبدالله بن جبير على الرماة ، وقال : ادفعوا عنا بالتبليح حتى لا يأتونا من ورائنا ، وقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه : اثبتو في هذا المقام ؛ فإذا عاينوكم ولوكم الأدبار ، فلا تطلبوا المدبرين ولا تخرجوا من هذا المقام ، ثم إن الرسول عليه الصلاة والسلام لما خالفة رأى عبدالله بن أبي شق عليه ذلك ، وقال : أطاع الولدان وعصاني ، ثم قال لأصحابه : إن حمداً إنما يظفر بعدهم بكم ، وقد وعد أصحابه أن أعداءهم إذا عاينوهم انهزموا ، فإن رأيتم أعداءهم فانهزموا فيتبعوكم ، فيصير الأمر على خلاف ما قاله محمد عليه السلام ، فلما التقى الفريقيان انهزم عبدالله بالمنافقين ، وكان جملة عسكر المسلمين ألفاً ، فانهزم عبدالله بن أبي مع ثلاثة ، فبقيت سبعمائة ، ثم قواهم الله مع ذلك حتى هزموا المشركين ، فلما رأى المؤمنون انهزام القوم ، وكان الله تعالى بشرهم

بذلك ، طمعوا أن تكون هذه الواقعة كواقعة بدر ، فطلبو المدبرين وتركوا ذلك الموضع ، وخالفوا أمر الرسول ﷺ بعد أن أراهم ما يحبون ، فأراد الله تعالى أن يفطمهم عن هذا الفعل لئلا يقدموا على خالفة الرسول عليه السلام وليعلموا أن ظفرهم إنما حصل يوم بدر ببركة طاعتهم لله ولرسوله ، ومتي تركهم الله مع عدوهم لم يقوموا لهم . فنزع الله الرعب من قلوب المشركين ، فكثر عليهم المشركون وتفرق العسكر عن رسول الله ﷺ ، كما قال تعالى (إِذْ تَصْعُدُونَ وَلَا تَلُوْنَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَاكُمْ) وشج وجه الرسول ﷺ وكسرت رباعيته وشلت يد طلحة دونه ، ولم يبق معه إلا أبو بكر وعلي العباس وسعد ، ووقيعت الصيحة في العسكر أن محمدًا قد قتل ، وكان رجل يكتن أبي سفيان من الأنصار نادى الأنصار وقال : هذا رسول الله ، فرجع إليه المهاجرون والأنصار ، وكان قتل منهم سبعون وكثيراً منهم الجراح ، فقال ﷺ « رَحْمَةُ اللَّهِ رَجُلًا ذَبَّ عَنِ إِخْرَانِهِ » وشد على المشركين من معه حتى كشفهم عن القتلى والجرحى والله أعلم .

والمقصود من القصة أن الكفار كانوا ثلاثة آلاف والمسلمون كانوا ألفاً وأقل ، ثم رجع عبد الله بن أبي ثلثائة من أصحابه فبقي الرسول ﷺ مع سبعينه . فأعانهم الله حتى هزموا الكفار ، ثما لما خالفوا أمر الرسول واستغلوه بطلب الغنائم انقلب الأمر عليهم وانهزموا ووقع ما وقع وكل ذلك يؤكده قوله تعالى (وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَقَوْلُوا لَا يُضْرِكُمْ كِيدُهُمْ شَيْئًا) وان الم قبل من أعانه الله ، والمدبر من خذله الله .

﴿ المسألة الرابعة﴾ يقال : بوأته منزلًا وبوات له منزلًا أي أنزلته فيه ، والمباءة والباءة المنزل قوله (مقاعد للقتال) أي مواطن ومواضع ، وقد اتسعوا في استعمال المقعد والمقام يعني المكان ، ومنه قوله تعالى (في مقعد صدق) وقال (قبل أن تقوم من مقامك) أي من مجلسك وموضع حكمك وإنما عبر عن الأمكنة هنا بالمقاعد لوجهين (الأول) وهو أنه عليه السلام أمرهم أن يثبتوا في مقاعدتهم لا ينتقلوا عنها ، والقاعد في مكان لا ينتقل عنه فسمى تلك الأمكنة بالمقاعد ، تبيهاً على أنهم مأموروون بأن يثبتوا فيها ولا ينتقلوا عنها البة (والثاني) أن المقاتلين قد يقدعون في الأمكنة المعينة إلى أن يلاقوهم العدو فيقوموا عند الحاجة إلى المحاربة فسميت تلك الأمكنة بالمقاعد لهذا الوجه .

﴿ المسألة الخامسة﴾ قوله (وَإِذْ غَدُوتْ مِنْ أَهْلِكَ تبويء المؤمنين مقاعد للقتال) يروى أنه عليه السلام غدا من منزل عائشة رضي الله عنها فمشى على رجليه إلى أحد ، وهذا قول مجاهد والواحد ، فدل هذا النص على أن عائشة رضي الله عنها كانت أهلاً للنبي ﷺ وقال تعالى (الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) فدل هذا النص على أنها مطهرة مبرأة عن كل قبيح ، ألا

ترى أن ولد نوح لما كان كافراً قال (إنه ليس من أهلك) وكذلك امرأة لوط .

ثم قال تعالى (والله سميع عليم) أي سميع لأقوالكم عليم بضمائركم ونياتكم ، فانا ذكرنا أنه عليه السلام شاوروا أصحابه في ذلك الحرب ، فمنهم من قال له : أقم بالمدينة ، ومنهم من قال : أخرج إليهم ، وكان لكل أحد غرض آخر فيما يقول ، فمن موافق ، ومن مخالف فقال تعالى : أنا سميع لما يقولون عليم بما يضمرون .

ثم قال تعالى (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلـا) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ العامل في قوله (إذ همت طائفتان منكم) فيه وجوه (الأول) قال الزجاج : العامل فيه التبؤة ، والمعنى كانت التبؤة في ذلك الوقت (الثاني) العامل فيه قوله (سميع عليم) (الثالث) يجوز أن يكون بدلاً من (إذ غدوت) .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الطائفتان حيان من الأنصار : بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الاوس لما انهزم عبد الله بن أبي همت الطائفتان باتباعه ، فعصيمهم الله ، فثبتوا مع الرسول ﷺ ، ومن العلماء من قال : إن الله تعالى أبهم ذكرها وستر عليها ، فلا يجوز لنا أن نهتك ذلك الستر .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ الفشل الجبن والخور ، فان قيل : الهم بالشيء هو العزم ، فظاهر الآية يدل على أن الطائفتين عزمنا على الفشل والترك وذلك معصية فكيف بها أن يقال والله ولديها ؟ .

(والجواب) الهم قد يراد به العزم ، وقد يراد به الفكر ، وقد يراد به حديث النفس ، وقد يراد به ما يظهر من القول الدال على قوة العدو وكثرة عدده ووفر عدده ، لأن أي شيء ظهر من هذا الجنس صح أن يوصف من ظهر ذلك منه بأنه هم بأن يفشل من حيث ظهر منه ما يوجب ضعف القلب ، فكان قوله (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلـا) لا يدل على أن معصية وقعت منها ، وأيضاً فبتقدير أن يقال : إن ذلك معصية لكنها من باب الصغائر لا من باب الكبائر ، بدليل قوله تعالى (والله ولديها) فان ذلك الهم لو كان من باب الكبائر لما بقيت ولاية الله لها .

ثم قال تعالى (والله ولديها) وفيه مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ قرأ عبدالله (والله ولديها) قوله (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا) .



وَلَقَدْ نَصَرْتُكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذْلَةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

﴿ المسألة الثانية ﴾ في المعنى وجوه (الأول) أن المراد منه بيان أن ذلك الهم ما أخرجها عن ولاية الله تعالى (الثاني) كأنه قيل : الله تعالى ناصرها ومتولى أمرها فكيف يليق بها هذا الفشل وترك التوكل على الله تعالى ؟ (الثالث) فيه تنبيه على أن ذلك الفشل إنما لم يدخل في الوجود لأن الله تعالى وليهما فأمددهما بال توفيق والعصمة ، والغرض منه بيان أنه لو لا توفيقه سبحانه وتسديده لما تخلص أحد عن ظلمات المعاصي ، ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى بعد هذه الآية (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) .

فإن قيل : ما معنى ما روي عن بعضهم عند نزول هذه الآية أنه قال : والله ما يسرنا أنا لم نهم بما همت الطائفتان به ، وقد أخبرنا الله تعالى بأنه وليهما ؟ .

قلنا : معنى ذلك فرط الإستبشار بما حصل لهم من الشرف ببناء الله تعالى ، وإنزاله فيهم آية ناطقة بصحة الولاية ، وأن تلك الهمة ما أخرجتهم عن ولاية الله تعالى .

ثم قال (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) التوكل : تفعل ، من وكل أمره إلى فلان إذا اعتمد فيه كفايته عليه ولم يتول بنفسه ، وفي الآية إشارة إلى أنه ينبغي أن يدفع الإنسان ما يعرض له من مكره وآفة بالتوكل على الله وأن يصرف الجزء عن نفسه بذلك التوكل .

قوله تعالى ﴿ ولقد نصركم الله بدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشکرون ﴾

في كيفية النظم وجهان (الأول) أنه تعالى لما ذكر قصة أحد أتبعها بذكر قصة بدر ، وذلك لأن المسلمين يوم بدر كانوا في غاية الفقر والعجز ، والكافار كانوا في غاية الشدة والقوه ، ثم أنه تعالى سلط المسلمين على المشركين فصار ذلك من أقوى الدلائل على أن العاقل يجب أن لا يتوصل إلى تحصيل غرضه ومطلوبه إلا بالتوكل على الله والاستعانة به والمقصود من ذكر هذه القصة تأكيد قوله (وإن تصبروا وتنتفعوا لا يضركم كيدهم شيئاً) وتأكيد قوله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (الثاني) أنه تعالى حكى عن الطائفتين أنهما همتا بالفشل .

ثم قال (والله ولهم وعلى الله فليتوكل المؤمنون) يعني من كان الله ناصراً ومعيناً له فكيف يليق به هذا الفشل والجبن والضعف ؟ ثم أكد ذلك بقصة بدر فان المسلمين كانوا في غاية الضعف ولكن لما كان الله ناصرا لهم فازوا بطلوبهم وقهروا خصومهم فكذا ه هنا ، فهذا تقرير وجه النظم ، وفي الآية مسائل :

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَّا... يَكْفِيْكُمْ أَنْ يُدْكِرُ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ

﴿ المسألة الأولى ﴾ في بدر أقوال (الأول) بدر اسم بئر لرجل يقال له بدر فسميت البشر باسم صاحبها هذا قول الشعبي (الثاني) أنه اسم للبشر كما يسمى البلد باسم من غير أن ينقل إليه اسم صاحبه وهذا قول الوادي وشيوخه ، وأنكروا قول الشعبي وهو ماء بين مكة والمدينة .

﴿ المسألة الثانية ﴾ (أدلة) جمع ذليل قال الواعدي : الأصل في الفعال إذا كان صفة أن يجمع على فعلاء كظرف وظرفاء وكثير وكثراء وشريك وشركاء إلا أن لفظ فعلاء اجتنبوه في التضييف لأنهم لوقالوا : قليل وقللاء وخليل وخللاء لاجتماع حرفان من جنس واحد فعدل إلى أفعاله لأن ، من جموع الفعال : الأفعلة ، كجريب وأجربة ، وقفيز وأقفزة فجعلوه جمع ذليل أدلة ، قال صاحب الكشاف : الأدلة جمع قلة ، وإنما ذكر جمع القلة ليدل على أنهم مع ذلهم كانوا قليلين .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (وأنتم أدلة) في موضع الحال ، وإنما كانوا أدلة لوجوه (الأول) أنه تعالى قال (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) فلا بد من تفسير هذا الذل بمعنى لا ينافي مدلول هذه الآية ، وذلك هو تفسيره بقلة العدد وضعف الحال وقلة السلاح والمال وعدم القدرة على مقاومة العدو ومعنى الذل الضعف عن المقاومة ونقضه العز وهو القوة والغلبة ، روي أن المسلمين كانوا ثلاثة عشر ، وما كان فيهم إلا فرس واحد ، وأكثرهم كانوا رجال ، وربما كان الجمع منهم يركب جملًا واحدًا ، والكافار قريبين من ألف مقاتل ومعهم مائة فرس مع الأسلحة الكثيرة والعدة الكاملة (الثاني) لعل المراد انهم كانوا أدلة في زعم المشركين واعتقادهم لأجل قلة عددهم وسلاحهم ، وهو مثل ما حكى الله عن الكفار أنهم قالوا (ليخرجن الأعز منها الأذل) (الثالث) أن الصحابة قد شاهدوا الكفار في مكة في القوة والثروة وإلى ذلك الوقت ما اتفق لهم استيلاء على أولئك الكفار ، فكانت هيبيتهم باقية في قلوبهم واستعظمتهم مقررا في نفوسهم فكانوا لهذا السبب يهابونهم ويخافون منهم .

ثم قال تعالى (فاتقوا الله) أي في الثبات مع رسوله (لعلكم تشكرون) بتقواكم ما أنعم به عليكم من نصرته أو لعل الله ينعم عليكم نعمة أخرى تشكرونها ، فوضع الشرك موضع الإنعام ، لأنه سبب له .

ثم قال تعالى ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَّا... يَكْفِيْكُمْ أَنْ يُدْكِرُ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ

منزلين ﴿١٣﴾ وفيه مسائل :

﴿المَسْأَلَةُ الْأُولَى﴾ اختلف المفسرون في أن هذا الوعد حصل يوم بدر ، أو يوم أحد ويتفرع على هذين القولين بيان العامل في (إذ) فإن قلنا هذا الوعد حصل يوم بدر كان العامل في (إذ) قوله (نصركم الله) والتقدير : إذ نصركم الله بدر وأنتم أذلة تقول للمؤمنين ، وإن قلنا إنه حصل يوم أحد كان ذلك بدلا ثانيا من قوله (وإذ غدوت) .

إذا عرفت هذا فنقول :

﴿القول الأول﴾ أنه يوم أحد ، وهو مروي عن ابن عباس والكلبي والواحدي ومقاتل ومحمد بن إسحاق ، والحججة عليه من وجوه :

﴿الحجّة الأولى﴾ أن يوم بدر إنما أمد رسول الله ﷺ بألف من الملائكة قال تعالى في سورة الأنفال (إذ تستغيثون ربكم فاستجيب لكم أني يمدكم بألف من الملائكة) فكيف يليق ما ذكر فيه ثلاثة آلاف وخمسة آلاف بيوم بدر (الحجّة الثانية) أن الكفار كانوا يوم بدر الفا... (الحجّة الثانية) أن الكفار كانوا يوم بدر الفا... الفا أو ما يقرب منه والمسلمون كانوا على الثالث منهن لأنهم كانوا ثلاثة وبضعة عشر ، فأنزل الله تعالى يوم بدر ألفاً من الملائكة ، فصار عدد الكفار مقابلا بعدد الملائكة مع زيادة عدد المسلمين فلا جرم وقعت الهزيمة على الكفار فكذلك يوم أحد كان عدد المسلمين ألفا ، وعدد الكفار ثلاثة آلاف ، فكان عدد المسلمين على الثالث من عدد الكفار في هذا اليوم ، كما في يوم بدر ، فوعدهم الله في هذا اليوم أن ينزل ثلاثة آلاف من الملائكة ليصير عدد الكفار مقابلا بعدد الملائكة مع زيادة عدد المسلمين ، فيصير ذلك دليلا على أن المسلمين يهزموهم في هذا اليوم كما هزموهم يوم بدر ثم جعل الثلاثة آلاف خمسة آلاف لتزداد قوة قلوب المسلمين في هذا اليوم ويزول الخوف عن قلوبهم ، ومعلوم أن هذا المعنى إنما يحصل إذا قلنا إن هذا الوعد إنما حصل يوم أحد .

﴿الحجّة الثالثة﴾ أنه تعالى قال في هذه الآية (ويأتوكم من فورهم هذا يمدكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) والمراد ويأتوكم أعداؤكم من فورهم ، ويوم أحد هو اليوم الذي كان يأتيهم الأعداء فاما يوم بدر فالاعداء ما أتواهم ، بل هم ذهبوا إلى الأعداء .

فإن قيل : لو جرى قوله تعالى (أن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة) في يوم أحد ، ثم إنه ما حصل هذا الإمداد لزم الكذب .

(والجواب عنه من وجهين) (الأول) أن إنزاله خمسة آلاف من الملائكة كان مشروطاً بشرط أن يصبروا ويقروا في المغانم ثم أنهم لم يصبروا ولم يتقدوا في المغانم بل خالفوا أمر الرسول ﷺ ، فلما فات الشرط لا جرم فات الشروط وأما إنزال ثلاثة آلاف من الملائكة فاما وعد الرسول بذلك للمؤمنين الذين بوأهم مقاعد للقتال وأمرهم بالسكن والثبات في تلك المقاعد ، فهذا يدل على أنه ﷺ إنما وعدهم بهذا الوعد بشرط أن يثبتوا في تلك المقاعد ، فلما أهملوا هذا الشرط لا جرم لم يحصل الشروط .

﴿ الوجه الثاني ﴾ في الجواب : لا نسلم أن الملائكة ما نزلت ، روي الواقدي عن مجاهد أنه قال : حضرت الملائكة يوم أحد ولكنهم لم يقاتلوا ، وروي أن الرسول ﷺ أعطى اللواء مصعب بن عمير فقتل مصعب فأخذته ملك في صورة مصعب ، فقال رسول الله ﷺ تقدم يا مصعب يا مصعب فعرف الرسول ﷺ أنه ملك أمد به ، وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال : كنت أرمي السهم يومئذ فيرده على رجل أبيض حسن الوجه وما كنت أعرفه ، فظننت أنه ملك ، فهذا ما نقوله في تقرير هذا الوجه .

إذا عرفت هذا فنقول : نظم الآية على هذا التأويل أنه تعالى ذكر قصة أحد ، ثم قال (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أي يجب أن يكون توكلاهم على الله لا على كثرة عددهم وعدهم فلقد نصركم الله بيدر وأنتم أذلة فكذلك هو قادر على مثل هذه النصرة في سائر الموضع ، ثم بعد هذا أعاد الكلام إلى قصة أحد فقال (إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم ثلاثة آلاف من الملائكة) .

﴿ القول الثاني ﴾ أن هذا الوعد كان يوم بيدر ، وهو قول أكثر المفسرين ، واحتجوا على صحته بوجوه .

﴿ الحجة الأولى ﴾ أن الله تعالى قال (ولقد نصركم الله بيدر وأنتم أذلة ، إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم) كذا وكذا ، فظاهر هذا الكلام يقتضي أن الله تعالى نصرهم بيدر حينما قال الرسول للمؤمنين هذا الكلام ، وهذا يقتضي أنه عليه الصلاة والسلام قال هذا الكلام يوم بيدر .

﴿ الحجة الثانية ﴾ أن قلة العدد والعدد كانت يوم بدر أكثر وكان الاحتياج إلى تقوية القلب ذلك اليوم أكثر ، فكان صرف هذا الكلام إلى ذلك اليوم أولى .

﴿ الحجة الثالثة ﴾ أن الوعد بإنزال ثلاثة آلاف من الملائكة كان مطلقاً غير مشروط بشرط ، فوجب أن يحصل ، وهو إنما حصل يوم بدر لا يوم أحد ، وليس لأحد أن يقول إنهم نزلوا لكنهم ما قاتلوا لأن الوعد كان بالإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة ، وب مجرد الإنزال لا يحصل الإمداد بل لا بد من الإعانة ، والإعانة حصلت يوم بدر ولم تحصل يوم أحد ، ثم القائلون بهذا القول أجبوا عن دلائل الأولين فقالوا .

﴿ أما الحجة الأولى ﴾ وهي قولكم : الرسول ﷺ إنما أمد يوم بدر بألف من الملائكة .

(فالجواب عنها) من وجهين (الأول) أنه تعالى أمد أصحاب الرسول ﷺ بألف ثم زاد فيهم ألفين فصاروا ثلاثة آلاف ، ثم زاد ألفين آخرين فصاروا خمسة آلاف ، فكانه عليه الصلاة والسلام قال لهم : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بألف من الملائكة فقالوا بلى ، ثم قال : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف فقالوا بلى ، ثم قال لهم : إن تصبروا وتتقوا يمدكم ربكم بخمسة آلاف ، وهو كما روي أنه ﷺ قال لأصحابه « أيسركم أن تكونوا ربع أهل الجنة قالوا نعم قال أيسركم أن تكونوا ثلث أهل الجنة قالوا نعم قال فاني أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة ». .

﴿ الوجه الثاني في الجواب ﴾ أن أهل بدر إنما أمدوا بألف على ما هو مذكور في سورة الأنفال ، ثم بلغهم أن بعض المشركين يريد إمداد قريش بعدد كثير فخافوا وشق عليهم ذلك لقلة عددهم ، فوعدهم الله بأن الكفار إن جاءهم مدد فأنما أمدكم بخمسة آلاف من الملائكة ، ثم إنه لم يأت قريش ذلك المدد ، بل انصرفوا حين بلغهم هزيمة قريش ، فاستغنوا عن إمداد المسلمين بالزيادة على الألف .

﴿ وأما الحجة الثانية ﴾ وهي قولكم : إن الكفار كانوا يوم بدر ألفاً فأنزل الله ألفاً من الملائكة ويوم أحد ثلاثة آلاف فأنزل الله ثلاثة آلاف .

(فالجواب) إنه تقرير حسن ، ولكنه لا يوجب أن لا يكون الأمر كذلك ، بل الله تعالى قد يزيد وقد ينقص في العدد بحسب ما يريد .

﴿ وأما الحجة الثالثة ﴾ وهي التمسك بقوله (ويأتوكم من فورهم) .

(فالجواب عنه) أن المشركين لما سمعوا أن الرسول ﷺ وأصحابه قد تعرضوا للغير ثار

الغضب في قلوبهم وأجتمعوا وقصدوا النبي ﷺ ، ثم إن الصحابة لما سمعوا ذلك خافوا فأخبرهم الله تعالى : أنهم إن يأتوكم من فورهم يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة فهذا حاصل ما قبل في تقرير هذين القولين ، والله أعلم بمراده .

﴿ المَسَأَةُ الثَّالِثَةُ ﴾ اختلفوا في عدد الملائكة ، وضبط الأقوال فيها أن من الناس من ضم العدد الناقص إلى العدد الزائد ، فقالوا : لأن الوعد بامداد الثلاثة لا شرط فيه ، والوعد بامداد الخمسة مشروط بالصبر والتقوى ومجيء الكفار من فورهم ، فلا بد من التغيير وهو ضعيف ، لأنه لا يلزم من كون الخمسة مشروطة بشرط أن تكون الثلاثة التي جزئها مشروطة بذلك الشرط ومنهم من أدخل العدد الناقص في العدد الزائد ، أما على تقدير الأول : فإن حملنا الآية على قصة بدر كان عدد الملائكة تسعة آلاف لأنه تعالى ذكر الألف ، وذكر ثلاثة آلاف ، وذكر خمسة آلاف ، والمجموع تسعة آلاف ، وإن حملناها على قصة : أحد فليس فيها ذكر الألف ، بل فيها ذكر ثلاثة آلاف ، وخمسة آلاف ، والمجموع : ثمانية آلاف ، وأما على التقدير الثاني وهو إدخال الناقص في الزائد فقالوا : عدد الملائكة خمسة آلاف ، ثم ضم إليها ألفان آخران ، فلا جرم وعدوا بالألف ثم ضم إليه ألفان فلا جرم وعدوا بثلاثة آلاف ، ثم ضم إليها ألفان آخران فلا جرم وعدوا بخمسة آلاف ، وقد حكينا عن بعضهم أنه قال أمد أهل بدر بألف فقيل : إن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين فشق ذلك على المسلمين ، فقال النبي ﷺ لهم : ألن يكفيكم يعني بتقدير أن يجيء المشركين مدد فالله تعالى يمددكم أيضاً بثلاثة آلاف وخمسة آلاف ، ثم إن المشركين ما جاءهم المدد ، فكذا هنا الزائد على الألف ما جاء المسلمين فهذه وجوه كلها محتملة والله أعلم بمراده .

﴿ المَسَأَةُ الثَّالِثَةُ ﴾ أجمع أهل التفسير والسير أن الله تعالى أنزل الملائكة يوم بدر وأنهم قاتلوا الكفار ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم تقاتل الملائكة سوى يوم بدر وفيما سواه كانوا عدداً ومدداً لا يقاتلون ولا يضربون ، وهذا قول الأكثرين ، وأما أبو بكر الأصم ، فإنه أنكر ذلك أشد الإنكار ، وأاحتج عليه بوجوه :

﴿ الحجّةُ الْأُولَى ﴾ إن الملك الواحد يكفي في إهلاك الأرض ، ومن المشهور أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت المدائن الأربع لقوم لوط وبلغ جناحه إلى الأرض السابعة ، ثم رفعها إلى السماء وقلب عاليها سافلها ، فاذ حضر هو يوم بدر ، فأي حاجة إلى مقاتلة الناس مع الكفار ؟ ثم بتقدير حضوره ، فأي فائدة في إرسال الملائكة ؟ .

﴿ الحجّةُ الثَّانِيَةُ ﴾ أن أكابر الكفار كانوا مشهورين وكل واحد منهم مقابلة من الصحابة معلوم

وإذا كان كذلك امتنع إسناد قتله إلى الملائكة .

﴿الحجـةـ الـثـالـثـة﴾ الملائكة لو قاتلوا لكانوا إما أن يصيروا بحـيثـ يـرـاهـمـ النـاسـ أوـ لاـ يـرـاهـمـ النـاسـ فـاـنـ رـأـهـمـ النـاسـ فـاـمـاـ أـنـ يـقـالـ إـنـهـ رـأـوـهـ فـيـ صـورـةـ النـاسـ أوـ فيـ غـيرـ صـورـةـ النـاسـ ، فـاـنـ كـاـنـ الـأـوـلـ فـعـلـ هـذـاـ التـقـدـيرـ صـارـ المـشـاهـدـ مـنـ عـسـكـرـ الرـسـولـ ثـلـاثـةـ آـلـافـ ، أوـ أـكـثـرـ ، وـلـمـ يـقـلـ أـحـدـ بـذـلـكـ ، وـلـأـنـ هـذـاـ عـلـىـ خـلـافـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ (ويـقـلـلـكـمـ فـيـ أـعـيـنـهـ) وـإـنـ شـاهـدـوـهـمـ فـيـ صـورـةـ غـيرـ صـورـةـ النـاسـ لـزـمـ وـقـوـعـ الرـعـبـ الشـدـيدـ فـيـ قـلـوبـ الـخـلـقـ فـاـنـ مـنـ شـاهـدـ الـجـنـ لـأـشـكـ أـنـهـ يـشـتـدـ فـزـعـهـ وـلـمـ يـنـقـلـ ذـلـكـ الـبـتـةـ .

﴿وـأـمـاـ الـقـسـمـ الثـانـيـ﴾ وـهـوـ أـنـ النـاسـ مـاـ رـأـواـ الـمـلـائـكـةـ فـعـلـ هـذـاـ التـقـدـيرـ : إـذـاـ حـارـبـواـ وـحـزـواـ الرـؤـسـ ، وـمـزـقـواـ الـبـطـونـ وـأـسـقـطـواـ الـكـفـارـ عـنـ الـأـفـرـاسـ ، فـحـيـشـذـ النـاسـ كـانـواـ يـشـاهـدـوـنـ حـصـولـ هـذـاـ الـأـفـعـالـ مـعـ أـنـهـمـ مـاـ كـانـواـ شـاهـدـوـاـ أـحـدـاـ مـنـ الـفـاعـلـيـنـ ، وـمـثـلـ هـذـاـ يـكـوـنـ مـنـ أـعـظـمـ الـمـعـجزـاتـ ، وـحـيـنـئـذـ يـجـبـ أـنـ يـصـيـرـ الـجـاحـدـ لـمـثـلـ هـذـهـ الـحـالـةـ كـافـرـاـ مـتـمـرـداـ ، وـلـمـ يـوـجـدـ شـيـءـ مـنـ ذـلـكـ عـرـفـ فـسـادـ هـذـاـ الـقـسـمـ أـيـضاـ .

﴿الـحـجـةـ الـرـابـعـةـ﴾ أـنـ هـؤـلـاءـ الـمـلـائـكـةـ الـذـيـنـ نـزـلـواـ ، إـمـاـ أـنـ يـقـالـ : إـنـهـمـ كـانـواـ أـجـسـاماـ كـثـيـفةـ أـوـ لـطـيـفةـ ، فـاـنـ كـانـ الـأـوـلـ وـجـبـ أـنـ يـرـاهـمـ الـكـلـ وـأـنـ تـكـوـنـ رـؤـيـةـ غـيرـهـ ، وـمـعـلـومـ أـنـ الـأـمـرـ مـاـ كـانـ كـذـلـكـ ، وـإـنـ كـانـواـ أـجـسـاماـ لـطـيـفةـ دـقـيقـةـ مـثـلـ الـهـوـاءـ لـمـ يـكـنـ فـيـهـمـ صـلـابـةـ وـقـوـةـ ، وـيـمـتـنـعـ كـوـنـهـمـ رـاكـبـيـنـ عـلـىـ الـحـيـوـيـنـ وـكـلـ ذـلـكـ مـاـ تـرـوـنـهـ .

وـأـعـلـمـ أـنـ هـذـهـ الشـبـهـ إـنـاـ تـلـيقـ بـمـنـ يـنـكـرـ الـقـرـآنـ وـالـنـبـوـةـ ، فـأـمـاـ مـنـ يـقـرـ بـهـمـ فـلاـ يـلـيقـ بـهـ شـيـءـ مـنـ هـذـهـ الـكـلـمـاتـ ، فـمـاـ كـانـ يـلـيقـ بـأـبـيـ بـكـرـ الـأـصـمـ إـنـكـارـ هـذـهـ الـأـشـيـاءـ مـعـ أـنـ نـصـ الـقـرـآنـ نـاطـقـ بـهـاـ وـوـرـودـهـاـ فـيـ الـأـخـبـارـ قـرـيبـ مـنـ الـتـوـاـتـرـ ، رـوـيـ عـبـدـالـلـهـ بـنـ عـمـرـ قـالـ لـمـ رـجـعـتـ قـرـيشـ مـنـ أـحـدـ جـعـلـوـنـ يـتـحـدـثـوـنـ فـيـ أـنـدـيـتـهـمـ بـاـ ظـفـرـوـاـ ، وـيـقـولـوـنـ : لـمـ نـرـ الـخـيلـ الـبـلـقـ وـلـاـ الـرـجـالـ الـبـيـضـ الـذـيـنـ كـنـاـ نـرـاهـمـ يـوـمـ بـدـرـ وـالـشـبـهـ الـمـذـكـورـةـ إـذـاـ قـابـلـنـاـهاـ بـكـمـالـ قـدـرـةـ اللهـ تـعـالـىـ زـالـتـ وـطـاـحـتـ فـاـنـهـ تـعـالـىـ يـفـعـلـ مـاـ يـشـاءـ لـكـونـهـ قـادـراـ عـلـىـ جـمـيعـ الـمـكـنـاتـ وـيـحـكـمـ مـاـ يـرـيدـ لـكـونـهـ مـتـرـهاـ عـنـ الـحـاجـاتـ .

﴿الـمـسـأـلـةـ الـرـابـعـةـ﴾ اـخـتـلـفـواـ فـيـ كـيـفـيـةـ نـصـرـةـ الـمـلـائـكـةـ قـالـ بـعـضـهـمـ : بـالـقـتـالـ مـعـ الـمـؤـمـنـ ، وـقـالـ بـعـضـهـمـ : بـلـ بـتـقـوـيـةـ نـفـوسـهـمـ وـإـشـعـارـهـمـ بـأـنـ النـصـرـ لـهـمـ وـبـالـقـاءـ الـرـعـبـ فـيـ قـلـوبـ الـكـفـارـ ، وـالـظـاهـرـ فـيـ الـمـدـ أـنـهـمـ يـشـرـكـوـنـ الـجـيـشـ فـيـ الـقـتـالـ إـنـ وـقـعـتـ الـحـاجـةـ إـلـيـهـمـ ، وـيـجـبـ أـنـ لـاـ تـقـعـ الـحـاجـةـ إـلـيـهـمـ فـيـ نـفـسـ الـقـتـالـ وـأـنـ يـكـوـنـ مـجـرـدـ حـضـورـهـمـ كـافـيـاـ فـيـ تـقـوـيـةـ الـقـلـبـ ، وـزـعـمـ كـثـيرـ مـنـ

بَلَّيْ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَقَوَّا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يَمْدُدُكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةَ الْأَلْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (٩٦)

المفسرين أنهم قاتلوا يوم بدر ولم يقاتلوا في سائر الأيام .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله تعالى (ألن يكفيكم) معنى الكفاية هو سد الخلة والقيام بالأمر ، يقال كفاه أمر كذا إذا سد خلته ، ومعنى الإمداد إعطاء الشيء حالاً بعد حال قال المفضل : ما كان على جهة القوة والإعانة قيل فيه أ منه يمد ، وما كان على جهة الزيادة قيل فيه : مده يمد و منه قوله (والبحر يمد) .

﴿ المسألة السادسة ﴾ قرأ ابن عامر (متزلين) مشدد الزياي مفتوحة على التكثير ، والباقيون بفتح الزياي مخففة وهو لغتان .

﴿ المسألة السابعة ﴾ قال صاحب الكشاف : إنما قدم لهم الوعد بتزول الملائكة لتقوى قلوبهم ويعزموها على الثبات ويتحققوا بنصر الله ومعنى (ألن يكفيكم) إنكار أن لا يكفيكم الإمداد بثلاثة آلاف من الملائكة وإنما جيء بلن التي هي لتأكيد النفي للأشعار بأنهم كانوا لقلتهم وضعفهم وكثرة عددهم كالآيسين من النصر .

ثم قال تعالى ﴿ بَلِّيْ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَقَوَّا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يَمْدُدُكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةَ الْأَلْفِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ وفي الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ بلي : إيجاب لما بعد (لن) يعني بل يكفيكم الإمداد فأوجب الكفاية ، ثم قال (إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا) يعني والمشرون يأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بأكثر من ذلك العدد وهو خمسة آلاف ، فجعل مجيء خمسة آلاف من الملائكة مشروطة بثلاثة أشياء الصبر والتقوى ومجيء الكفار على الفور ، فلما لم توجد هذه الشرائط لا جرم لم يوجد المشرط .

﴿ المسألة الثانية ﴾ الفور مصدر من : فارت القدر إذا غلت ، قال تعالى (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور) قيل إنه أول ارتفاع الماء منه ثم جعلوا هذه اللحظة استعارة في السرعة ، يقال جاء فلان ورَجَعَ من فوره ، ومنه قول الأصوليين الأمر للفور أو التراخي ، والمعنى حدة مجيء العدو وحرارته وسرعته .

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢٣٥﴾ لِيُقْطِعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿اللهُ

﴿المسألة الثالثة﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم (مسومين) بكسر الواو أي معلمين علموا أنفسهم بعلامات مخصوصة ، وأكثر الأخبار أنهم سوموا خيولهم بعلامات جعلوها عليها ، والباقيون بفتح الواو ، أي سومهم الله أو يعني أنهم سوموا أنفسهم ، فكان في المراد من التسوييم في قوله (مسومين) قوله (الأول) السومة العلامة التي يعرف بها الشيء من غيره ، ومضى شرح ذلك في قوله (والخيل أنسومة) وهذه العلامة يعلمها الفارس يوم اللقاء ليعرف بها ، وفي الخبر أن النبي ﷺ قال يوم بدر « سوموا فإن الملائكة قد سومت » قال ابن عباس : كانت الملائكة قد سوموا أنفسهم بالعائم الصفر ، وخيولهم وكانوا على خيل بلق ، بأن علقوا الصوف الأبيض في نواصيها وأذنابها ، وروي أن حمزة بن عبد المطلب كان يعلم بريشة نعامة ، وأن علياً كان يعلم بصوفة بيضاء وأن الزبير كان يتussب بعصابة صفراء وأن أبي دجانة كان يعلم بعصابة حمراء .

﴿القول الثاني﴾ في تفسير المسومين إنه يعني المرسلين مأخوذاً من الإبل السائمة المرسلة في الرعي ، تقول أسمت الإبل إذا أرسلتها ، ويقال في التكثير سومت كما تقول أكرمت وكرمت ، فمن قرأ (مسومين) بكسر الواو فالمعنى أن الملائكة أرسلت خيلها على الكفار لقتلهم وأسرهم ، ومن قرأ بفتح الواو فالمعنى أن الله تعالى أرسلهم على المشركين ليهلكوهم كما تهلك الماشية النبات والخشيش .

قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ
الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، لِيُقْطِعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ .

الكتابية في قوله (وما جعله الله) عائدة على المصدر ، كأنه قال : وما جعل الله المدد والإمداد (إلا بشرى لكم) بأنكم تنصرون فدل (يمددكم) على الإمداد فكنت عنه ، كما قال (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) معناه : وإن أكله لفسق فدل (تأكلوا) على الأكل فكنت عنه وقال الزجاج (وما جعله الله) أي ذكر المدد (إلا بشرى) والبشرى اسم من الإشار ومضى الكلام في معنى التبشير في سورة البقرة في قوله (وبشر الذين آمنوا) .

ثم قال (ولطمئن قلوبكم به) وفيه سؤال :

وهو أن قوله (ولطمئن) فعل وقوله (إلا بشرى) اسم وعطف الفعل على الاسم مستتر ، فكان الواجب أن يقال إلا بشرى لكم واطمئنانا ، أو يقال إلا ليشركم ولطمئن قلوبكم به فلم ترك ذلك وعدل عنه إلى عطف الفعل على الاسم

(والجواب عنه من وجهين) (الأول) في ذكر الإمداد مطلوبان ، وأحدهما أقوى في المطلوبية من الآخر ، فأحدهما إدخال السرور في قلوبهم ، وهو المراد بقوله (إلا بشرى) (والثاني) حصول الطمأنينة على أن إعانة الله ونصرته معهم فلا يجبنوا عن المحاربة ، وهذا هو المقصود الأصلي ففرق بين هاتين العبارتين تنبئها على حصول التفاوت بين هذين الأمرين في المطلوبية فكونه بشرى مطلوب ولكن المطلوب الأقوى حصول الطمأنينة ، فلهذا أدخل حرف التعلييل على فعل الطمأنينة ، فقال (ولطمئن) ونظيره قوله (والخليل والبعال والحمير لتركبوها وزينيه) ولما كان المقصود الأصلي هو الركوب أدخل حرف التعلييل عليها ، فكذا هنا (الثاني) قال بعضهم في الجواب : الواو زائدة والتقدير وما جعله الله إلا بشرى لكم لطمئن به قلوبكم .

ثم قال (وما النصر إلا من عند الله) والغرض منه أن يكون توكلهم على الله لا على الملائكة وهذا تنبئه على أن إيمان العبد لا يكمل إلا عند الإعراض عن الأسباب والإقبال بالكلية على مسبب الأسباب ، وقوله (العزيز الحكيم) فالعزيز إشارة إلى كمال قدرته ، والحكيم إشارة إلى كمال علمه ، فلا يخفى عليه حاجات العباد ولا يعجز عن إجابة الدعوات ، وكل من كان كذلك لم يتوقع النصر إلا من رحمته ولا الإعانة إلا من فضله وكرمه .

ثم قال (ليقطع طرفا من الذين كفروا) واللام في (ليقطع طرفا) متعلق بقوله (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) والمعنى أن المقصود من نصركم بواسطة إمداد الملائكة هو أن يقطعوا طرفا من الذين كفروا أي يهلكوا طائفة منهم ويقتلوا قطعة منهم ، قيل : إنه راجع إلى قوله (ولطمئن قلوبكم به ، ليقطع طرفا) ولكنه ذكر بغير حرف العطف لأنه إذا كان البعض قريبا من البعض جاز حذف العاطف ، وهو كما يقول السيد لعبدة : أكرمتك لخدمتي لتعيني ل تقوم بخدمتي حذف العاطف ، لأن البعض يقرب من البعض ، فكذا هنا ، وقوله (طرفا) أي طائفة وقطعة وإنما حسن في هذا الموضع ذكر الطرف ولم يحسن ذكر الوسط لأنه لا وصول إلى الوسط إلا بعد الأخذ من الطرف ، وهذا يوافق قوله تعالى (قاتلوا الذين يلونكم) وقوله (أو لم يروا أنا نأتي الأرض نقصها من أطرافها) .

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أُو يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿٢٨﴾

ثم قال (أو يكتبهم) الكتب في اللغة صرع الشيء على وجهه ، يقال : كتبه فانكتب هذا تفسيره ، ثم قد يذكر والمراد به الأخزاء والإهلاك واللعنة والهزيمة والغيش والإذلال ، فكل ذلك ذكره المفسرون في تفسير الكتب ، قوله (خائبين) الخيبة هي الحرمان والفرق بين الخيبة وبين اليأس أن الخيبة لا تكون إلا بعد التوقع ، وأما اليأس فإنه قد يكون بعد التوقع وقبله ، فنقىض اليأس الرجاء ، ونقىض الخيبة الظفر ، والله أعلم .

قوله تعالى ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون ﴾ .

في الآية مسائل :

﴿ المسألة الأولى ﴾ في سبب نزول هذه الآية قولان (الأول) وهو المشهور : أنها نزلت في قصة أحد ، ثم القائلون بهذا القول اختلفوا على ثلاثة أوجه (أحدها) أنه أراد أن يدعوا على الكفار فنزلت هذه الآية والقائلون بهذا ذكروا احتمالات (أحدها) روى أن عتبة بن أبي وقاص شجه وكسر رباعيته فجعل يسح الدم عن وجهه وسالم مولى أبي حذيفة يغسل عن وجهه الدم وهو يقول « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوه إلى ربهم » ثم أراد أن يدعوا عليهم فنزلت هذه الآية (وثانيها) ما روي سالم بن عبد الله عن أبيه عبدالله بن عمر أن النبي ﷺ لعن أقواما فقال « اللهم العن أبا سفيان ، اللهم العن الحرش بن هشام ، اللهم العن صفوان بن أمية » فنزلت هذه الآية (أو يتوب عليهم) فتاب الله على هؤلاء وحسن إسلامهم (وثالثها) أنها نزلت في حمزة ابن عبد المطلب وذلك لأنه ﷺ لما رأه ورأى ما فعلوا به من المثلة قال « لأمثلن منهم بثلاثين » ، فنزلت هذه الآية ، قال القفال رحمه الله ، وكل هذه الأشياء حصلت يوم أحد ، فنزلت هذه الآية عند الكل فلا يمتنع حملها على كل الاحتمالات (الثاني) في سبب نزول هذه الآية أنها نزلت بسبب أنه ﷺ أراد أن يلعن المسلمين الذين خالفوا أمره والذين انهزموا فمنعه الله من ذلك وهذا القول مروي عن ابن عباس رضي الله عنها .

﴿ الوجه الثالث ﴾ أنه ﷺ أراد أن يستغفر للمسلمين الذين انهزموا وخالفوا أمره ويدعو عليهم فنزلت الآية ، فهذه الاحتمالات والوجوه كلها مفرعة على قولنا إن هذه الآية نزلت في

قصة أحد .

﴿ القول الثاني ﴾ أنها نزلت في واقعة أخرى وهي أن النبي ﷺ بعث جمأً من خيار أصحابه إلى أهل بئر معونة ليعلمونه القرآن فذهب إليهم عامر بن الطفيلي مع عسكره وأخذهم وقتلهم فجزع من ذلك الرسول ﷺ جزاً شديداً ودعا على الكفار أربعين يوماً ، فنزلت هذه الآية ، هذا قول مقاتل وهو بعيد لأن أكثر العلماء اتفقوا على أن هذه الآية في قصة أحد ، وسياق الكلام يدل عليه وإلقاء قصة أجنبية عن أول الكلام وأخره غير لائق .

﴿ المسألة الثانية ﴾ ظاهر هذه الآية يدل على أنها وردت في أمر كان النبي ﷺ يفعل فيه فعلاً ، وكانت هذه الآية كالمنع منه ، وعند هذا يتوجه الإشكال ، وهو أن ذلك الفعل إن كان بأمر الله تعالى ، فكيف منعه الله منه ؟ وإن قلنا إنه ما كان بأمر الله تعالى وبإذنه ، فكيف يصبح هذا مع قوله (وما ينطق عن الهوى) وأيضاً دلت الآية على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فالأمر الممنوع عنه في هذه الآية إن كان حسناً فلم منعه الله ؟ وإن كان قبيحاً ، فكيف يكون فاعله معصوماً ؟ .

(والجواب من وجوه) (الأول) أن المنع من الفعل لا يدل على أن الممنوع منه كان مشغلاً به فإنه تعالى قال للنبي ﷺ (لئن أشركتم ليحبطن عملك) وأنه عليه الصلاة والسلام ما أشرك قط وقال (يا أيها النبي اتق الله) فهذا لا يدل على أنه ما كان يتقى الله ، ثم قال (ولا تطع الكافرين) وهذا لا يدل على أنه أطاعهم ، والفائدة في هذا المنع أنه لما حصل ما يوجب الغم الشديد ، والغضب العظيم ، وهو مثلة عمّه حمزة ، وقتل المسلمين ، والظاهر أن الغضب يحمل الإنسان على ما لا ينبغي من القول والفعل ، فلأجل أن لا تؤدي مشاهدة تلك المكاراة إلى ما لا يليق من القول والفعل نص الله تعالى على المنع تقوية لعصمته وتأكيداً لطهارته (والثاني) لعله عليه الصلاة والسلام إن فعل لكنه كان ذلك من باب ترك الأفضل والأولى ، فلا جرم أرشده الله إلى اختيار الأفضل والأولى ، ونظريره قوله تعالى (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم فهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا الله) كأنه تعالى قال : إن كنت تعاقب ذلك الظالم فاكتف بالمثل ، ثم قال ثانياً : وإن تركته كان ذلك أولى ، ثم أمره أمراً جازماً بتركه ، فقال (واصبر وما صبرك إلا بالله) .

﴿ الوجه الثالث ﴾ في الجواب : لعله ﷺ لما مال قلبه إلى اللعن عليهم استأذن ربه فيه ، فنص الله تعالى على المنع منه ، وعلى هذا التقدير لا يدل هذا النهي على القدح في العصمة .

﴿ المسألة الثالثة ﴾ قوله (ليس لك من الأمر شيء) فيه قولان (الأول) أن معناه ليس

لَكْ مِنْ قَصْةِ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ وَمِنْ شَأْنِ هَذِهِ الْحَادِثَةِ شَيْءٌ وَعَلَى هَذَا فَنَقَلَ عَنِ الْمُفَسِّرِينَ عَبَاراتٍ (أَحَدُهُمَا) لَيْسَ لَكَ مِنْ مَصَالِحٍ عَبَادِيٍّ شَيْءٌ إِلَّا مَا أَوْحَى إِلَيْكَ (وَثَانِيَهَا) لَيْسَ لَكَ مِنْ مَسَأَةٍ إِلَّا كَمْ شَيْءٌ ، لَأَنَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِالْمَصَالِحِ فَرَبِّمَا تَابَ عَلَيْهِمْ (وَثَالِثَهَا) لَيْسَ لَكَ فِي أَنْ يَتُوبَ لِلَّهِ عَلَيْهِمْ ، وَلَا فِي أَنْ يَعْذِبَهُمْ شَيْءٌ .

﴿ والقول الثاني ﴾ أن المراد هو الأمر الذي يضاد النهي ، والمعنى : ليس لك من أمر خلقي شيء إلا إذا كان على وفق أمري ، وهو قوله (ألا له الحكم) قوله (الله الأمر من قبل ومن بعد) وعلى القولين فالمقصود من الآية منعه عليه من كل فعل وقول إلا ما كان يأذنه وأمره وهذا هو الإرشاد إلى أكمل درجات العبودية ، ثم اختلفوا في أن المنع من اللعن لأي معنى كان؟ منهم من قال الحكمة فيه أنه تعالى ربما علم من حال بعض الكفار أنه يتوب ، أو أن لم يتتب لكنه علم أنه سيولد منه ولد يكون مسلماً برأ تقياء ، وكل من كان كذلك ، فإن اللائق برحمته الله تعالى أن يمهله في الدنيا وأن يصرف عنه الآفات إلى أن يتوب أو إلى أن يحصل ذلك الولد فإذا حصل دعاء الرسول عليهم بالإهلاك ، فإن قبلت دعوته فات هذا المقصود ، وإن لم تقبل دعوته كان ذلك كالاستخفاف بالرسول عليه ، فلأجل هذا المعنى منعه الله تعالى من اللعن وأمره بأن يفوض الكل إلى علم الله تعالى ، ومنهم من قال : المقصود منه إظهار عجز العبودية وأن لا يخوض العبد في أسرار الله تعالى في ملكه وملكته ، هذا هو الأحسن عندي والأوفق لعرفة الأصول الدالة على حقيقة الربوبية والعبودية .

﴿ المسألة الرابعة ﴾ ذكر الفراء والزجاج وغيرها في هذه الآية قولين (أحدهما) أن قوله (أو يتوب عليهم) عطف على ما قبله ، والتقدير : ليقطع طرفاً من الذين كفروا ، أو يكتبهم ، أو يتوب عليهم ، أو يعذبهم ، ويكون قوله (ليس لك من الأمر شيء) كالكلام الأجنبي الواقع بين المعطوف والمعطوف عليه ، كما تقول : ضربت زيداً ، فاعلم ذلك عمراً ، فعلى هذا القول هذه الآية متصلة بما قبلها .

﴿ والقول الثاني ﴾ أن معنى (أو) هنا معنى حتى ، أو إلا أن كقولك : لألزمتك أو تعطيني حقي والمعنى : إلا أن تعطيني أو حتى تعطيني ، ومعنى الآية ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم فنفرح بحالهم ، أو يعذبهم فتتشسفى منهم .

﴿ المسألة الخامسة ﴾ قوله تعالى (أو يتوب عليهم) مفسر عند أصحابنا بخلق التوبة فيهم وذلك عبارة عن خلق الندم فيهم على ما مضى ، وخلق العزم فيهم على أن لا يفعلوا مثل ذلك في المستقبل قال أصحابنا : وهذا المعنى متتأكد ببرهان العقل وذلك لأن الندم عبارة عن حصول إرادة في المضي متعلقة بترك فعل من الأفعال في المستقبل ، وحصول الإرادات

وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلَهُ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٣﴾

والكرهات في القلب لا يكون بفعل العبد ، لأن فعل العبد مسبوق بالإرادة ، فلو كانت الإرادات فعلاً للعبد لافتقر العبد في فعل تلك الإرادة إلى إرادة أخرى ويلزم التسلسل وهو محال ، فعلمـنا أن حصول الإرادة والكرهـات في القـلب ليس إلا بـتـخـلـيقـ اللهـ تـعـالـيـ وـتـكـوـينـهـ إـبـتـدـاءـ ، وـلـاـ كـانـتـ التـوـبـةـ عـبـارـةـ عـنـ النـدـمـ وـالـعـزـمـ ، وـكـلـ ذـلـكـ مـنـ جـنـسـ الإـرـادـاتـ وـالـكـرـهـاتـ ، عـلـمـنـاـ أـنـ التـوـبـةـ لـاـ تـحـصـلـ لـلـعـبـدـ إـلـاـ بـخـلـقـ اللهـ تـعـالـيـ ، فـصـارـ هـذـاـ بـرـهـانـ مـطـابـقـاـ لـاـ دـلـ عـلـيـهـ ظـاهـرـ الـقـرـآنـ ، وـهـوـ قـولـهـ (أـوـ يـتـوبـ عـلـيـهـمـ) وـأـمـاـ الـمـعـتـلـةـ فـاـنـهـمـ فـسـرـواـ قـولـهـ (أـوـ يـتـوبـ عـلـيـهـمـ) إـمـاـ بـفـعـلـ الـأـلـطـافـ ، أـوـ بـقـبـولـ التـوـبـةـ .

أما قوله تعالى (فـاـنـهـمـ ظـالـمـونـ) فـيـهـ مـسـائـلـ :

﴿المـسـأـلـةـ الـأـوـلـىـ﴾ إنـ كـانـ الغـرـضـ مـنـ الـآـيـةـ مـنـعـهـ مـنـ الدـعـاءـ عـلـىـ الـكـفـرـ صـحـ الـكـلـامـ وـهـوـ أـنـهـ تـعـالـيـ سـاـهـمـ ظـالـمـينـ ، لـأـنـ الشـرـكـ ظـلـمـ قـالـ تـعـالـيـ (إـنـ الشـرـكـ لـظـلـمـ عـظـيمـ) وـإـنـ كـانـ الغـرـضـ مـنـهـ مـنـعـهـ مـنـ الدـعـاءـ عـلـىـ الـمـسـلـمـينـ الـذـيـنـ خـالـفـواـ أـمـرـهـ صـحـ الـكـلـامـ أـيـضاـ ، لـأـنـ مـنـ عـصـيـ اللهـ فـقـدـ ظـلـمـ نـفـسـهـ .

﴿المـسـأـلـةـ الثـانـيـةـ﴾ يـحـتـمـلـ أـنـ يـكـونـ المـرـادـ مـنـ الـعـذـابـ المـذـكـورـ فـيـ هـذـهـ الـآـيـةـ عـذـابـ الـدـنـيـاـ ، وـهـوـ الـقـتـلـ وـالـأـسـرـ وـأـنـ يـكـونـ عـذـابـ الـآـخـرـةـ ، وـعـلـىـ الـتـقـدـيرـيـنـ فـعـلـمـ ذـلـكـ مـفـوضـ إـلـيـ اللهـ .

﴿المـسـأـلـةـ ثـالـثـةـ﴾ قوله تعالى (فـاـنـهـمـ ظـالـمـونـ) جـلـةـ مـسـتـقـلـةـ ، إـلـاـ أـنـ المـقصـودـ مـنـ ذـكـرـهـ تـعـلـيلـ حـسـنـ التـعـذـيبـ ، وـالـمـعـنـىـ : أـوـ يـعـذـبـهـ إـنـاـ يـعـذـبـهـ لـأـنـهـمـ ظـالـمـونـ .

قوله تعالى ﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ مَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلَهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فيه مـسـأـلـاتـانـ :

﴿المـسـأـلـةـ الـأـوـلـىـ﴾ إنـ المـقصـودـ مـنـ هـذـاـ تـأـكـيدـ ماـ ذـكـرـهـ أـوـلـاـ مـنـ قـولـهـ (لـيـسـ لـكـ مـنـ الـأـمـرـ شـيـءـ) وـالـمـعـنـىـ أـنـ الـأـمـرـ إـنـاـ يـكـونـ لـمـنـ لـهـ الـمـلـكـ ، وـمـلـكـ السـمـوـاتـ وـالـأـرـضـ لـيـسـ إـلـاـ اللهـ تـعـالـيـ فـالـأـمـرـ فـيـ السـمـوـاتـ وـالـأـرـضـ لـيـسـ إـلـاـ اللهـ ، وـهـذـاـ بـرـهـانـ قـاطـعـ .

﴿ المسألة الثانية ﴾ إنما قال (ما في السموات وما في الأرض) ولم يقل (من) لأن المراد الإشارة إلى الحقائق والماهيات ، فدخل فيه الكل .

أما قوله (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) فأعلم أن أصحابنا يحتجون بهذه الآية على أن سبحانه له أن يدخل الجنة بحكم إلهيته جميع الكفار والمردة ، وله أن يدخل النار بحكم إلهيته جميع المقربين والصديقين وأنه لا اعتراف عليه في فعل هذه الأشياء دلالة الآية على هذا المعنى ظاهرة والبرهان العقلي يؤكّد ذلك أيضاً ، وذلك أن فعل العبد يتوقف على الإرادة وتلك الإرادة مخلوقة الله تعالى ، فإذا خلق الله تلك الإرادة أطاع ، وإذا خلق النوع الآخر من الإرادة عصى ، فطاعة العبد من الله ومعصيته أيضاً ، من الله ، وفعل الله لا يوجب على الله شيئاً البينة ، فلا الطاعة توجب الثواب ، ولا المعصية توجب العقاب ، بل الكل من الله بحكم إلهيته وقهره وقدرته ، فصح ما ادعينا أنه لو شاء عذب جميع المقربين حسن منه ، ولو شاء يرحم جميع الفراعنة حسن منه ذلك ، وهذا البرهان هو الذي دل عليه ظاهر قوله تعالى (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) .

فإن قيل : أليس أنه ثبت أنه لا يغفر للكافار ولا يعذب الملائكة والأنبياء .

قلنا : مدلول الآية أنه لو أراد لفعل ولا اعتراف عليه ، وهذا القدر لا يقتضي أنه يفعل أو لا يفعل ، وهذا الكلام في غاية الظهور .

ثم ختم الكلام بقوله (والله غفور رحيم) والمقصود بيان أنه وإن حسن كل ذلك منه إلا أن جانب الرحمة والمعفورة غالب لا على سبيل الوجوب بل على سبيل الفصل والإحسان .

تم الجزء الثامن ، ويليه إن شاء الله تعالى الجزء التاسع ، وأوله قوله تعالى
﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا ﴾ أعنان الله تعالى على إكماله

فهرست

الجزء الثامن من التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى

صفحة	صفحة	
قوله تعالى : فنادته الملائكة وهو قائم قوله تعالى : أن الله يبشرك ببصري قوله تعالى : فالرب أني يكون لي غلام قوله تعالى : قال رب اجعل لي آية قوله تعالى : واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والإيكار قوله تعالى : وإذا قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك قوله تعالى : يا مريم اقتنى لربك قوله تعالى : ذلك من أنباء الغيب نوحيه قوله تعالى : إذا قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه قوله تعالى : اسمه المسيح عيسى بن مريم قوله تعالى : وجيها في الدنيا والآخرة قوله تعالى : ويكلم الناس في المهد وكهلا قوله تعالى : قالت رب أني يكون لي ولد قوله تعالى : ورسول إلىبني إسرائيل أنى أخلق لكم من الطين كيئة الطير قوله تعالى : وأبرئ الأكماء والأبرص قوله تعالى : وأنبهكم بما تأكلون وما تذرون في بيوتكم قوله تعالى : ومصدقاً لما بين يدي من التوراة قوله تعالى : فلما أحس عيسى منهم الكفر	٢٧ ٢٨ ٤١ ٤٢ ٤٥ ٤٦ ٤٨ ٤٩ ٥١ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٨ ٥٩ ٦٣ ٦٤ ٦٦	٢ قوله تعالى : قل اللهم مالك الملك ٧ قوله تعالى : وتعز من تشاء وتذل من تشاء ٩ قوله تعالى : بيده الخير إنك على كل شيء قادر ١٠ قوله تعالى : وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي قوله تعالى : لا يتخذ المؤمنون الكافرين ١٣ قوله تعالى : إلا أن تتقوا منهم تقاة قوله تعالى : ويجدركم الله نفسه ١٥ قوله تعالى : قل إن تخفوا ما في صدوركم ١٦ قوله تعالى : يوم تجد كل نفس ما عملت ١٨ قوله تعالى : قل إن كتم تحبون الله ٢٠ قوله تعالى : قل أطيعوا الله والرسول ٢١ قوله تعالى : إن الله اصطفى آدم ونوح ٢٤ قوله تعالى : ذرية بعضها من بعض ٢٥ قوله تعالى : إذا قالت امرأة عمران رب إني نذرتك لك ما في بطني ٣٠ قوله تعالى : فتقبلها ربهما بقبول حسن ٣١ قوله تعالى : وأنبتها نباتاً حسناً ٣٢ قوله تعالى : كلما دخل عليها زكريا المحراب ووجد عندها رزقا ٣٤ قوله تعالى : قال يا مريم أنى لك هذا ٣٥ قوله تعالى : هنالك دعا زكريا ربه

قوله تعالى : إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مَتَوفِيك

قوله تعالى : ثُمَّ إِلَيْ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ

فِيهَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

قوله تعالى : فَأُمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعْذِبُهُمْ

قوله تعالى : وَأُمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أَجْوَرَهُمْ

قوله تعالى : ذَلِكَ نَذْلَوْهُ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْآيَاتِ

وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ

قوله تعالى : إِنْ مُثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ

قوله تعالى : الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ

قوله تعالى : فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ

قوله تعالى : إِنْ هَذَا هُوَ الْقُصُصُ الْحَقُّ

قوله تعالى : قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى

كَلْمَةِ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

قوله تعالى : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَحَاجُجُونَ فِي

إِبْرَاهِيمَ

قوله تعالى : هَأْنُتُمْ هُؤُلَاءِ حَاجِتُمْ فِيهَا لَكُمْ

بِهِ عِلْمٌ

قوله تعالى : إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِيمَانِهِ وَدُنْدُبِهِ

طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَضْلُّنَّكُمْ

قوله تعالى : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَكُفُّرُونَ

بِآيَاتِ اللَّهِ

قوله تعالى : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تُلْبِسُونَ الْحَقَّ

بِالْبَاطِلِ

قوله تعالى : وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

قوله تعالى : وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا مَنْ تَبعُ دِينَكُمْ

قوله تعالى : يُخْتَصُ برِحْمَتِهِ مِنْ يَشَاءُ

قوله تعالى : وَمَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنْ أَنْ تَأْمُنَهُ

يَقْنُطُّ

قوله تعالى : ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي

الْأَمْيَنِ سَبِيلٍ

قوله تعالى : إِذْ كَانُوا لِيَسَ عَلَيْنَا فِي

قوله تعالى : بَلِّي مَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ وَاتَّقِيَ

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ

وَإِيمَانِهِمْ ثُمَّاً قَلِيلًا

قوله تعالى : وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يُلْسُونَ

أَسْتَهِمُ بِالْكِتَابِ

قوله تعالى : مَا كَانَ لَبْشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ

وَالْحُكْمُ وَالْبُوْبَةُ

قوله تعالى : وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَخَذُوا الْمَلَائِكَةَ

وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا

قوله تعالى : وَإِذْ أَخْذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّنَ

قوله تعالى : ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مَّصْلُوقٌ مَا

مَعَكُمْ

قوله تعالى : قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخْذَتُمْ عَلَيْهِمْ ذَلِكُمْ

إِصْرِي

قوله تعالى : أَفَغَيْرِ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ

قوله تعالى : وَلِهِ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ

قوله تعالى : قَلْ أَمَنَا بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا

قَوْلُهُ تَعَالَى : لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ

قوله تعالى : وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ إِلَهٍ إِلَّا إِنَّهُ

قوله تعالى : كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا

قوله تعالى : أَوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ

قوله تعالى : وَأَوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ

قوله تعالى : لَنْ تَنالُوا الْبَرَ حَتَّىٰ تَنفَقُوا مَا

تَحْبُّونَ

قوله تعالى : وَمَا تَنفَقُوا مِنْ شَيْءٍ

قوله تعالى : كُلُّ الطَّعَامَ كَانَ حَلَا لِبْنِي

إِسْرَائِيلَ

قوله تعالى : إِلَّا مَا حَرَمَ إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ

قوله تعالى : إِلَّا مَا حَرَمَ إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ

صفحة

<p>٢٠٧ قوله تعالى : يؤمنون بالله واليوم الآخر ويمارون بالمعروف</p> <p>٢٠٨ قوله تعالى : وما يفعلوا من خير</p> <p>٢١٠ قوله تعالى : إن الذين كفروا لن تنفع عنهم</p> <p>٢١١ قوله تعالى : مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر</p> <p>٢١٤ قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم</p> <p>٢١٨ قوله تعالى : ها أنتم أولاء تحبونهم</p> <p>٢٢١ قوله تعالى : إن تمسسكم حسنة تسؤهم</p> <p>٢٢٣ قوله تعالى : وإذا غدروت من أهلك</p> <p>٢٢٦ قوله تعالى : إذا همت طائفتان منكم</p> <p>٢٢٧ قوله تعالى : ولقد نصركم الله بيدر</p> <p>٢٢٨ قوله تعالى : إذا تقول للمؤمنين</p> <p>٢٣٤ قوله تعالى : بلى إن تصبروا وتنتصروا</p> <p>٢٣٥ قوله تعالى : وما جعله الله إلا بشرى لكم</p> <p>٢٣٧ قوله تعالى : ليس لك من الأمر شيء</p> <p>٢٤٠ قوله تعالى : والله ما في السموات وما في الأرض</p>	<p>١٥٥ قوله تعالى : إن أول بيت وضع للناس</p> <p>١٦٤ قوله تعالى : مقام إبراهيم</p> <p>١٦٦ قوله تعالى : والله على الناس حج البيت</p> <p>١٦٨ قوله تعالى : ومن كفر فان الله غني عن العالمين</p> <p>١٧٠ قوله تعالى : قل يا أهل الكتاب لم تكفرون</p> <p>١٧٣ قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا إن طيعوا فريقاً من الذين أتوا الكتاب</p> <p>١٧٥ قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا انقوا الله من شر الناس</p> <p>١٧٧ قوله تعالى : واعتصموا بحبل الله جميعاً</p> <p>١٨٠ قوله تعالى : ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير</p> <p>١٨٤ قوله تعالى : ولا تكونوا كالذين تفرقوا</p> <p>١٨٥ قوله تعالى : يوم تبيض وجوه</p> <p>١٨٩ قوله تعالى : وأما الذين ابپست وجههم</p> <p>١٩٣ قوله تعالى : كنتم خير أمة أخرجت للناس</p> <p>٢٠٠ قوله تعالى : ضربت عليهم الذلة</p> <p>٢٠٣ قوله تعالى : ليسوا سواء من أهل الكتاب</p>
--	--

﴿ تم الفهرست ﴾